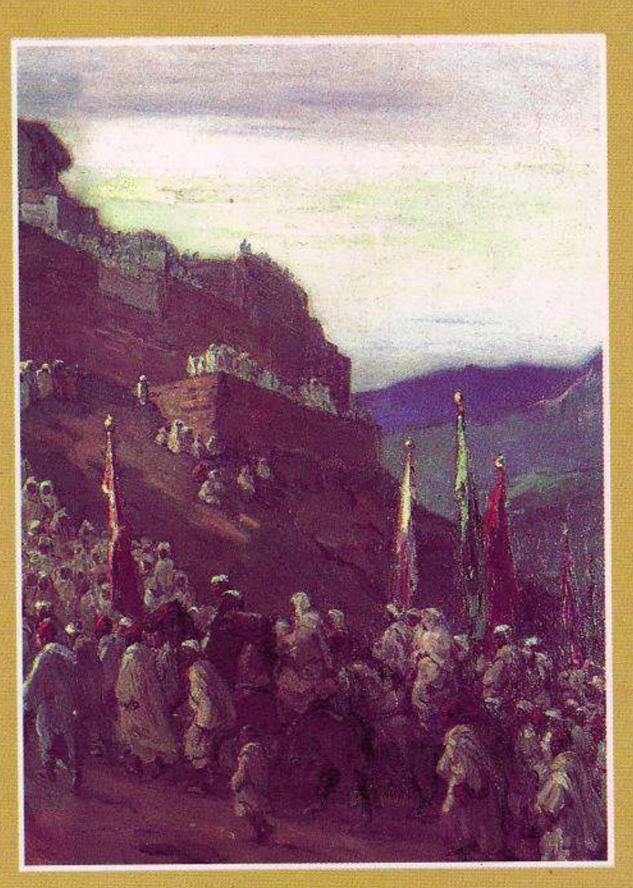
لويس أرنو

زمن "المحلات" السلطانية

الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و 1912م



ترجمة : محمد ناجي بن عمر

أفريقيا الشرق

زمن "المَحَلات"

السلطانية

المؤلف ـ لويس أرنو
ترجمة ـ محمد ناجي بن عمر

عنوان الكتاب
زمن "المَحَلات" السلطانية
الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب
ما بين 1860 و1912م

رقم الإيداع القانوني : 1037/1999

ردمك : 8-229-25-9981

أفريقيا الشرق ـ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 022 - 13 98 25 022 ـ فاكس : 80 00 44 022

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان

ص. ب. 3176 - 11

لويس أرنو

زمن "الـمَـحَلات" السلطانية

الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب
ما بين 1860 و1912م

ترجمة : محمد ناجي بن عمر

أفريقيا الشرق

فهـــرس

ولاية سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859-1873)

الجيش المغربي حوالي 1870

تقديم

تختلف مصارد تاريخ المغرب باختلاف مواردها، لكنها تتكامل جميعها من أجل كتابة تاريخ يصمد أمام كثرة الطروحات والمساءلات النظرية والمعرفية.

وتأتي الرواية الشفوية أحيانا في صدارة هذه المصادر المكتوبة في تاريخ المغرب. وتأتي ترجمة هذا الكتاب «زمن المحلات» في إطار مشروع مع ثلة من الباحثين لإعادة بعث هذه الروايات الشفوية لما لها من أهمية ليس لأنها تحمل أحايين كثيرة أخبارا ومستجدات لا توجد في المصادر المكتوبة، بل لأنها تشكل مادة تكميلية في كتابة تاريخ المغرب خاصة منه المعاصر.

لكن تجدر الإشارة إلى أن هذه الروايات تتحكم فيها أحايين كثيرة أهواء الراوي ومصالحه، ووسطه، ونفوذه وطموحه، وأهدافه. لهذا نرى ضرورة إخضاع هذه الروايات إلى منهج علمي صارم ينقي صادقها من كاذبها.

أما هذه الرواية الشفوية التي أقدمنا على ترجمتها فقد توافرت فيها شروط موضوعية أكسبتها وثوقية أكبر أهمها :

ــ كون الراوي الحاج سالم العبدي (وأحيانا أخرى الملازم بن سديرة) مواكب ومساهم في الأحداث التي رواها بدقة متناهية.

ــ كونه (أي الراوي) يتميز بموضوعية في الحديث تظهر من خلال قوله عندما لا يكون متيقنا من شيء (لا أدري، نسيت. . .).

ــ كون الكاتب لويس أرنو كان حريصا على تدوين كل ما يقوله الحاج سالم على هامشيته أحيانا.

ــ كون هذه الرواية وصفت أحداثا هامة عاشها المغرب ما بين 1860 و 1912 بطريقة لا نكاد نجدها في كثير من المصادر المكتوبة عن هذه المرحلة.

ــ كون الحاج سالم العبدي كان جنديا بخاريا، فإنه أعطى نظرة مفصلة عن طبيعة تكوين الجيش المغربي المعاصر.

ـــ كون هذه الرواية يعود تاريخ حكيها إلى الثلاثينيات من هذا القرن وهو زمن لازال فيه صدى تلك الأحداث حاضرا في عقول وقلوب من واكبها وحضرها.

رغم هذا كله لا ندعي أن كل ما ورد في هذه الرواية المفصلة متفق على صحته، لأن الأمر يتعلق باسترجاع واستذكار قد تحفه كثير من مشاكل النسيان أو الإهمال أو . . . ، وهذا إشكال نظري أترك البث فيه للمختصين، أما أنا فلست سوى باحث أغوتني هذه الرواية فترجمتها.

«شرع الحاج سالم العبدي في روايته وبأسلوبه الخاص، جالسا مرتاحا على كرسي فاسي مطرز، وأمام كأس شاي منعنع :

أتذكر في الوقت الذي أصبحت مميزا بعض الشيء، أنه كان يحكم هذه البلاد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان[1]، إلا أن أحداثا هامة عرفها هذا العهد قد تغرب عن ذهني لأنها لم تكن راسخة بالشكل الكافي.

لقد ولدت في دار ولد الحاج العياشي بعبدة، وكان أبي بخاريا[2] عبدا للمولى سليمان. وكنت عبدا للقائد العياشي أقدم صحبته من عبدة إلى المشور ثلاث مرات سنويا بمناسبة الأعياد[3]. وأتذكر أن سيدي محمد كان طويل القامة، قويا، ذا صدر عريض وقوي لكن رجلاه كانتا نحيفتين. وقد كان من عادته الاحتفاظ بشعر طويل مموج على الطريقة البربرية. كان يمتطي ظهر بغل العارف المثقف وصهوة فرس المحارب. فعندما كان خليفة لأبيه على مراكش، قام بعدة حملات عسكرية، فهو الذي كان قائد القوات المغربية لإمداد الشريف عبد القادر بالعون في مواجهة الفرنسيين بواد إسلي (14 غشت 1844)، حيث هربا متراجعين أمام قصف مدافعكم. وهو الذي قاد أيضا المغاربة للدفاع عن البلاد بعد أن لجأ إليها الجزائري المناضل (1847).

وقد كان حاجب قصره سي موسى بن حماد، والد باحماد المشهور الذي سيكون بدوره حاجبا لابنه مولاي الحسن. فقد كان حاجبه من عائلة قديمة من العبيد الزنوج وكان وزيره هو سي الطيب اليمني الملقب ببوعشرين. وكان قائد مشوره الجيلالي بن حمو، وكان خليفة هذا الأخير أو ملازمه أحد البخاريين السود يدعى الحاج محمد بن يعيش جد الحاجب الملكي الحالي الذي كان -كما تعلم -قائد المشور في عهد المولى يوسف.

وقد تميزت مدة حكمه بالحرب ضد إسبانيا (22 نونبر1859) حيث حاصر الريفيون وجبالة سبتة وطنجة. وأحدثوا عدة اضطرابات بها مما جعل الأسبان يخرجون لمحاربتهم. وقد كان أصحابنا معسكرين بمعسكر عين الدالية، ولا يتعدى عددهم خمسة عشر ألف رجل بما في ذلك النظاميون وغير النظاميين، وعشرات المدافع يشغلها بعض الفارين من

الجندية، وألف فارس فقط مكونين الحرس الخاص لمولاي العباس أخ السلطان وقائد النظاميين. ورغم عدد المغاربة : فقد انهزمنا أمام الطلقات السريعة للبنادق الإسبانية. ولا أتحدث لك عن هذه الحرب إلا عن سماع، لأني لم أولد إلا بعد انتهاء هذه الحرب[4].

وقد انتبه السلطان بعد هذه الهزيمة إلى ضعف وقلة أفواج جيشه، وإلى تنظيم وتخطيط الجيوش المسيحية، ففكر في إمداد جيشه بجميع التعزيزات من أجل ترميم وخلق جيش قوي يحمل هذا الاسم.

وهكذا فتح مخازنه، ووزع الأموال والأسلحة والألبسة، وأرسل طلبات للحصول على البنادق والتموينات من إنجلترا كما نظم مصلحة خاصة بالمخابرات مركزا رجالاتها في الميناءات والمدن الكبرى من أجل الإخبار بكل ما يروح في البلاد. وهكذا أصبح الجيش والمخزن يحتلان مكانة وأهمية أكبر بالنسبة للعرش. وسأحاول أن أصف لك وضعيتها الجيدة سنة 1285 هـ/ 1868.

لقد كان الرجال الذين يحاربون ويرافقون السلطان في الحملات ضد القبائل الفوضوية ثلاثة أنواع : فقد كان هناك النظاميون، و الجنود الرسميون (العسكر)، ثم رجال المخزن أو المسخرين الذين كانوا لايحملون البنادق والبارود إلا عندما يخرج السلطان إلى الفراك[5]، ثم في الأخير يأتي مجندو القبائل العرضيون، أعدادهم غير قارة، ولا يلتحقون بصفوف الجيش إلا في الحالات والدعوات الخاصة.

إن « العسكر » الذي تكون مجموعاته ما يسمى بالكيش، يكون دائما في حالة استعداد للمعارك. ويقطن رجاله في القصبات، مجهزين وممونين من الخزينة. ويأتي هؤلاء الجنود في الأصل من القبائل المخزنية التي يعهد لها بمجموعة من الامتيازات منها إمداد السلطان بالوحدات العسكرية التي يكون عددها محددا أو متفاوتا حسب أهمية القبيلة. وهذه القبائل هي :

1- **الوداية** : المكونة من ثلاث مجموعات، كما تعلم، الأولى قرب وادي سبو[6]، الثانية بقصبة الرباط، والثالثة بحوز مراكش.

2 - **الشراكة** : من أصل عربي أتوا من المشرق، وأكبر فخدة فيهم هم «أولاد جامع الموجودين في الجهة الشمالية لفاس، والمكونين لأكبر عدد من العسكر. حيث يفوق عددهم جميع باقي الشراكة، حتى إنه أصبحنا نحن أصحاب المخزن، لا نفرق بين أولاد جامع والشراكة.

3 - «الكيش» تنتمي للشراردة المحسوبة على أولاد دليم الشبانات وعدة قبائل أخرى.

4 - وفي الأخير يأتي البخاريون الذين أنتمي إليهم والذين يقضون حياتهم في الجندية

5 - كما يوجد أيضا كيش صغير مكون من رجال سوس (أهل سوس) المستقرين بسهل سايس قرب صفرو. لكنه لا أتذكر مؤسس هذا الجيش هل هو سيدي محمد أم مولاي الحسن. [7]

ولا يجب أن تظن بأن قبائل المخزن هذه التي أشرت إليها سابقا تبعث 100 أو 200 رجل سنويا من أجل تكوين العسكر. ذلك أمر كان واردا في البداية. أما مع توالي الأيام فقد أصبحت الجندية حرفة، وأصبح أبناء الجنود يشكلون خلفا لآبائهم من أجل الحفاظ على التوازن. فقد كنا جنودا أبا عن جد، حيث كانت العائلة إذا كان لها أولاد ذكور، ترسل أحدهم إلى العسكر والآخر إلى فرسان البخاريين، والثالث إلى المخزن في هيئة معينة. وكان السلطان لا يلجأ إلى طلب الجنود من القبائل الخاضعة إلا في الحالات الخاصة، حيث يأمر ببعث العديد من الجنود إلى فاس أو مراكش.

كما كان هناك مورد آخر للحصول على جنود للعسكر المخزني : فقد كان العبيد يشكلون مجموعتين الأولى : تسمى «طابور عسكر العبيد» حيث تضم العبيد الذين كانوا يستحقون السجن ثم الصعاليك منهم، المسجلين بصفة رسمية، الثانية : البخاريين ذوي السيرة القبيحة، (لكن هؤلاء الأخيرين يتم الإحتفاظ بهم لفترات غير محددة لا يفقدون حقهم بصفتهم أحرارا) خاصة العبيد العاطلين الذين يزعجون القصر. وكان من عادة القواد الأغنياء للقبائل الكبرى : دكالة، عبدة، متوكة، كلاوة إهداء عدد مهم من العبيد والخدم إلى القصر في الأعياد الكبرى. ولقد أحصيتهم بالمئات في بعض أيام «الهدية»[8] فقد بعث المتوكي يوما، إلى مولاي الحسن مجموعة من العبيد تقدر ب 200 فرد.

وقد كان القائد العام للجيش هو محمد الشركي أما الذي كان يحكم كل خيالة وفرسان المحلة[9] والفرسان النظاميين وغيرهم فهو قائد الرحى من أصل تركي. وسيحتفظ بهذا المنصب حتى عهد مولاي الحسن.

في الأيام العادية كانت توزع بعض التجريدات من الجيش النظامي في الميناءات والمدن التي لا يقطنها السلطان مثل : الرباط، مكناس، تازة حيث ركز سيدي محمد «مخازنية» كانوا من قدامى جنود أبيه أصبحوا منخرطين في سلك الشرطة ورجال الدرك وقد كان مجموع العسكر الملازم للسلطان في حلّه وترحاله سواء إلى فاس و مراكش يضم :

ـــ فيلقا من 1800 إلى 2000 من المشاة تحت قيادة الحاج عزوز الفاسي الذي كان ممسكا بقصبة بوجلود. وقصبة فيلالة بفاس، وكانت له في مراكش قصبة كبيرة قرب باب الملاح لم يبق لها وجود.

ــ فيلقا من الفرسان البخاريين يتراوح عددهم ما بين 500 و 1000 تحت قيادة الحاج عبد القادر البخاري المستقر في فاس بقصبة الشراردة، كما تضم القصبة نفسها جنود القائد المشهور : الحاج منو المتراوح عددهم ما بين 1200 و 1500 من المشاة و 500 فارس.

أما مختلف أبراج فاس (البسيون) أي البرج الشمالي، و البرج الجنوبي، و برج سيدي بونافع و برج الشيخ احمد فقد كانت تحت قيادة فيلق مكون من 500 راجل تحت قيادة ابن المختار. و سيركز مولاي الحسن معملا للسلاح (مكينة) قرب القصر في المشور القديم بين باب السكمة و باب دكاكين. تحت مراقبة معسكر طابور العبيد (نحو 400 رجل) و قيادة القائد صالح بن الحايط.

و قد كان قائد الرحى، رئيس الفيلق يتقاضى 250 فرنك يوميا إضافة إلى عدة قروش من راتب بعض الجنود الذين لا توجد منهم إلا أسماء على الورق، ومن أسلحة متلفة، وهدايا مختلفة مما يجعلني أقول دون أدنى شك أن راتب قائد الرحى يساوي الآن 30 إلى 50 فرنك وكان راتب قائد المائة (قائد مجموعة من الجنود مكونة من 100 جندي) يساوي 2 إلى 4 قروش يوميا في حين كان راتب الجندي العادي فلسا واحدا في اليوم، وعليه تدبر شؤونه في باقي مصاريف غدائه حيث يتلقى الإمدادات من عائلته أو قبيلته أو أن يسرق من هنا وهناك ولا يعيش في أغلب الأحيان إلا على الحْركات [10] وقد كانت تعطاه أسلحته : بوشفرة (بندقية من الحجارة) استبدل في مرحلة لاحقة بالبندقية المدهنة، والبندقية البلجيكية، ثم الحربة (تافلة) بغمدها أو دونه، وقد كان الجنود كلهم تقريبا يحملون خنجرا بجانب أحزمتهم، حيث كانوا يشترون هذا السلاح المميز لهم باعتبارهم رجال بارود، ولم تكن هنالك بدلة عسكرية حقيقية بالمعنى الذي يعطيه « الروميون [11]» الغربيون فقد كان البعض منهم يلبس البلاغي، وفي حالة المشي للحروب وكان الكل يمشي حافي القدمين باستثناء دوي الرتب العالية المقدمين (الرقباء :جمع رقيب والخلفاء (أي الملازمين) وكانت البدلة الأكثر ارتداء : سروالا فضفاضا من كتان / ثوب أزرق، يعطيه المخزن للجنود، مع معطف في لون الراية : أخضر، أزرق، إلى غير ذلك. . وقفطانا مقطوعا إلى المنكبين.

ولم يكن باستطاعته الجندي أن يعيش في راحة تامة، حيث تتعدد الحملات والحملات المتعاقبة، إذ يوزع المخزن الرصاص المستدير الأصفر عن عيار البندقية على الجنود وقد كان عدد الرصاصات يتراوح ما بين الخمس والست وكان البارود يباع بالتقسيط في علب من ورق محزومة، يحتفظ بها المحارب في قرابه إذا توفر له أو في وعاء من خشب.

ورغم مجهودات القادة وجود محاربين مهرة في الجيش فإن التمارين / المناورات العسكرية لم تكن تسير بشكل منظم، بسبب التغييات المستمرة للجنود لأسباب مختلفة وفي الحقيقة فقد كان الجنود يمتهنون حرفا أخرى من أجل العيش، وإعالة عائلتهم خاصة

أن عددا كبيرا منهم كان متزوجا، بل كان بعضهم يبيع سلاحه ويتخلى عن سلك الجندية. لكن عادة ما نجدهم في الصفوف منتظمين حين كل انطلاقة ببندقية الله وحده يعلم مصدرها.

وإلى جانب العسكر كان هناك «المسخرين» رجال المخزن، الذين كانوا كلهم تقريبا. . في المحلات على صهوات الجياد، هندامهم مغربي عادي، قفطان ملون، وفرجية غالبا ما تكون رقيقة وشفافة، و سلهام غليظ، و شاشية حمراء مقرنة مديلة في الأخير « ببلوطة» من حرير سوداء. وكان لقوادهم نفس الهندام، لكن كانوا يتميزون عنهم بإدارة عمامة بيضاء غليظة حول الشاشية.

وقد كان لهم نفس سلاح العسكر أحدثك هنا، عن الرجال دوي الخناجر (الكميات) وليس عن الوزراء والكتاب المثقفين : رجال الشكارة (محفظة من جلد توضع على الحزام مشدودة بحبل من جلد أو غيره إلى العنق) فهؤلاء، لم تكن لهم علاقة بالحروب حيث كانوا لا يحملون إلا أقلامهم القصبية الرقيقة الرأس[12]

وكان هؤلاء المسخرين يأتون من نفس القبائل المخزنية، حيث يتوارثون هذه المهنة أبا عن جد. فقد كانوا يجتمعون متأهبين للانطلاق في حركات تحت قيادة قائد الرحى مكونين مجموعة مهمة بعض الشيء (1500 من البخاريين، و 500 من الوداية و 500 من الشراكة ، و 400 من أهل سوس).

وقد كان هؤلاء المسخرين، خلال الأيام العادية، موزعين في مختلف أجنحة القصر : مروضي خيول، سعاة، منظفي إسطبل الخيول والبغال، مشيدي خيام، أصحاب سلاح، معدي أسرة، معدي شاي، مهيئي ماء نظافة السلطان. . . وعندما تكون هناك حركة ما فإنهم يأخذون أسلحتهم ويصحبون السلطان، حيث يبنون من خيامهم دائرة حول الفراك، مكونين بذلك حزاما أمنيا قويا. أما في المدن الكبرى فقد كانوا يعيشون مع عائلتهم في نوايل [13] مجتمعة أو في دور أو منازل مجاورة لدار المخزن إنهم في ملك السلطان، وأبناؤهم في خدمة المخزن، سواء في سلك الجندية أو في أحد أروقة المسخرين، أو سواء اشتغلت فتيانهم لدا العائلات المخزنية أو داخل القصر.

لكن سيدي محمد الذي كان يريد جيشا كثيرا وقويا لن يتأخر في ملاحظة أن عدد المسخرين غير كاف، فقد أحصاهم، يوما ولم يجد عددهم يتعدى الألف فقط وكان يذهب نصفهم في حين يبقى النصف الآخر قارا للحراسة أو للعمل داخل دار المخزن في غياب السلطان. ولهذا فكر في خلق قبائل تسمى «النايبة» مهمتها تزويده بالجنود فارس مسلح من كل عائلة. وكانت تسمى حركات هذه القبائل : النوايب. وكانت تأخذ مكانها بجوار المسخرين حول الفراك و يتشكلون من قبائل عبدة، و دكالة، و الرحامنة،

والمنابهة. لكن هؤلاء الوافدين الجدد لم يكونوا محط رضى المسخرين الرسميين الذين يتباهون بشاشياتهم ويعتبرون أنفسهم عمدة السلطة في البلاد، أليسوا تقريبا من درجة القواد؟ أليس منهم يختار السلطان موظفيه والحاجب الملكي وقائد المشور ؟ لهذا كانوا يتجاهلون فئة النوايب إلا أنه عندما تتحدث البنادق، تكون الحاجة إلى النوايب أكثر حيث يوضعون في الأماكن الأكثر اشتغالا في الحرب. وأذكر أن هؤلاء الأقوياء كانوا أكثر شجاعة من المسخرين. وقد كان أول من لبى نداء السلطان من هذه القبائل، الرحامنة، الرماة الأقوياء والأغنياء، فقد كانوا دائما في حرب بضواحي مراكش وكان منهم الفرسان والخيول القوية دائما محيطة بالسلطان. وبعد مدة لاحقة سوف تعمل كل قبائل الحوز : عبدة والمنابهة واحمر و حربيل ودكالة [14] على إرسال أنصاف المسخرين إلى قاعدة «المخازنية» وقد كانت هذه الطريقة وسيلة جيدة لتقوية المخزن واستتباب السلم في جنوب البلاد. هذا إذن كل ما يتعلق بما هو نظامي في العسكر والمسخرين.

أما بالنسبة للمدفعية : فقد كان هناك طابور مكون من 400 مدفعي، والجنود المسمى طابور الطبجية أو المهندس مكلف بالثماني أو العشر مدافع التي كانت تتبع المحلة. وقد كانت هذه المدافع المختلفة الأنواع تحمل بشكل مسهم على ظهر الجمال كما كانت هناك مدافع صغيرة خاصة بالجبل تملأ من أفواهها. لكن المغاربة لم يكن منهم ميل وإتقان لتشغيل هذه المدافع، حيث كان يتولى تشغيلها بدلهم بعض المرتّدين العسكريين الأسبان. ولم نكن نعد من المغاربة سوى «معلما» واحدا يدعى إسماعين في تجريدة المدفعيين في الرباط يستدعي الرماية والإصلاحات[15].

وقد كان عدد هؤلاء المهندسين أو الجنود المهرة حوالي 30 فردا محسوبين على طابور المدفعية، وتتحدد مهمتهم في توضيح الطريق أمام المحلة حيث كان عليهم معرفة جميع الطرق والممرات، والمعابر والمسالك، وعيون المياه، وتحديد أماكن التعسكر، وكان الجيش يسير بتوقيت مضبوط، حيث كان هناك موظف خاص (الموقت) مهمته ضبط التوقيت بساعة يحملها في المستودع.

وكان على هؤلاء المهندسين أيضا تسطير تصاميم الجهات التي ستمر بها المحلة. والتعرف على الأحوال، واستباق الطابور من أجل معرفة حالة الأودية والتغيرات التي لحقت المسالك والمعابر. وكانوا لا يشاركون في الحروب، إلا أن هذا لا ينفي أنهم دائما كانوا مسلحين مثل باقي الجنود الآخرين.

وكانت فئة الخيالة لا تتميز عن باقي مكونات العسكر التي وصفتها. ففي الطريق (أي طريق المحلة) كان المشاة والخيالة يسيران معا متبادلين الإعانة، وفي الحالات الخاصة أو القيام ببعض العمليات المعددة، يجمع كل الخيالة (1500 إلى 2000 نظامي) ويضاف إليهم فرسان القبائل التي سأحدثك عنها بعد قليل، تحت قيادة وتعليمات قائد الرحى الغوجة.

أما البحرية العسكرية فلم تكن موجودة كما هو الشأن عندكم، فقد كانت هناك بعض المدفعيات فقط، وفرقاطة أو فرقاطتين بالعرائش لا تفيد في شيء خاصة أنه لم يكن لها ربابنة وبحارين مستعدين لقيادتها.

كما لم تكن هناك أيضا مصالح طبية في عهد سيدي محمد، ولم نجد أطباء في المحلة إلا زمن مولاي الحسن مع قدوم الأطباء الفرنسيين الأوائل llinares Jaffary اللذان كان يحضيان باحترام وحب كبيرين. كما كان هناك أيضا عالم يدعى مولاي أحمد الزواق يعتني بفئة المهندسين ويقدم علاجاته أثناء الحملات، وأثناء التوقفات كان الجنود يلجأون إلى المداوين التقليديين.

هكذا كانت تركيبة الجيش المغربي في هذه الفترة إلا أنه يجب أن نضيف إلى هذه المجموعات النظامية، الوحدات العسكرية للحرْكة. فعندما يقرر السلطان بعث حملة ضد هذه القبيلة أو تلك يعين حرْكة، أو حين يريد الذهاب من فاس إلى مراكش، سكناه الرسميين، مرورا بالرباط، فإنه يكون واجبا على قواد القبائل الخاضعة المشعرين من قبل بعث وحداث عسكرية محسوبة من الحركة لتأمين وتقوية طريق المخزن. ويكون القائد عادة هو الذي يتولى قيادة رجال قبيلة المتراوحة أعدادهم حسب أهمية القبيلة. وهكذا كان يصل عدد دكالة إلى 2000 رجل وكانت عبدة تبعث 5000 رجل، واحمر 250 والشياظمة 500 وحاحا 2000 و زمران 500، و الرحامنة 2000 والشاوية 3000 وبني مسكين 300 والشراردة، وكان السلطان لا يرغب إلا في فارس واحد لكل 50 كانون (منزل). لكن كنا نبعث ما كان بالمستطاع وكان بعض الناس يستبدلون أو يقدمون الأموال للقواد من أجل إعفائهم وكان بعض المشاة يتفرقون منذ المراحل الأولى للحركة، راجعين إلى أراضيهم و قطعانهم. لقد كانوا في حقيقة الأمر جماعة من المحاربين المترددين الذين يوضعون في الحراسة الأمامية، وعلى جوانب المحلة وكان المخزن لا يفكر كثيرا في مؤونة وصيانة مجموعات الحركة، لأن القبيلة هي التي كانت تدفع المال الكافي لكل فرد / جندي طول مدة الجندية. حيث كانت كل فرقة تصرف الأموال على عدد الفرسان والخيول التي بعثت بها، وقد كان القائد هو خازن وممون مجموعته دون أدنى مراقبة ، وبما أن الجنود هم المعول عليهم في قوة المخزن، فإنهم يكونون هم السباقون إلى الاستفادة من خدمات القبائل، وكان القائد أحيانا يعطي منذ الإنطلاقة مصاريف كل الطريق لكن النتيجة تكون دائما نفسها حيث تنهب الأموال منذ المراحل الأولى . وحول معسكر السلطان كانت تتجمع القبائل يمينا ويسارا حيث تضرب خيامها على بعد من هذا الأخير.

وقد كان الفراگ يضم خيام السلطان المزينة في أعلاها بالكرات الذهبية، والمحاطة بخيام الوزراء والكتاب والموسيقيين. وكانت خيام المسخرين تشكل حول هذه النقطة الوسطى مربعا مغلقا صعب الاختراق، بداخله خيول السلطان وبغال الموكب والمدافع.

وليس بعيدا عن هذا المكان، يتجمع الجنود داخل خيامهم الجلدية حول خيمة العلاف أو وزير الحرب، كما يوجد طابور عسكر العبيد أقرب ما يكون إلى المعسكر السلطاني وسأقول لك السبب في ذلك : فقد كان السلطان يصحب معه أثناء الحملات عددا من النساء ثلاثين أو أربعين يوجد منهن الخدم والجواري وعشرات الخصيان. إنها داره المتحركة بالأمتعة والجواهر على ظهور البغال التي يحرسها هؤلاء العبيد السود والحال أن العبيد الزنوج وحدهم عادة هم الذين لهم الحق في رؤية النساء غير المحتجبات. وعندما يكون هناك إعصار أو رياح شرقية قوية تتحرك من جرائها جوانب الفراگ، تستقدم وبسرعة أفواج العبيد حيث يبقون معلقين على حبال الفراك طول مدة هذا الطقس المضطرب، وإذا سقط أو رفع الفراگ لم يكن من اللائق لغير المسخرين البيض رؤية مقر إقامة السلطان.

ولهذا السبب بالضبط كان طابور عسكر العبيد المرافق دائما لبغال نساء القصر والخصيان وأمتعة السلطان لا يطلع بأي دور عسكري مهم، وعندما تريد امرأة أو أحد الخصيان التوقف في الطريق لقضاء الحاجة فإن المقدم يعمل على بناء خيمة صغيرة من الكتان تطوى من بعد بواسطة عبدين مكلفين. وكانت صفات العبيد ناقصة فأحيانا عندما يهجم على الموكب الذي يحرسون ولا توجد له الأموال ولا نساء، فإن رعبا كبيرا يمتلكهم.

وعادة ما يكون بين معسكر الجنود والمسخرين سوق متنقل تعرض فيه كل السلع : واللحوم والتوابل وقطع الثوب والشموع والسكر والشاي وسلع اليهود، بل حتى النساء اللواتي يخففن ويرفهن على الجنود بأغانيهن ورقصاتهن.

ولم يكن هناك نظام معين لسير المحلات، فعادة - عند عبور أراضي القبائل الثائرة تتكلف وحدات القبائل بأخذ القيادة من أجل إجلاء كل المخاطر على جوانب المحلة. لكن عندما يخاف من المفاجآت من الخلف خاصة من القبائل البربرية، تعطى الأوامر لهذه الوحدات بالرجوع إلى الخلف وعندما تكون هناك حرب ما فإنهم يكونون دائما في الصفوف الأمامية وبما أنهم قد تعودوا على ذلك فإنه ليس ضروريا أن يتدخل النظاميون لأعانتهم والحسم في الصراع وقد كانت تسير الحملة تحت حمايتهم في السهول حتى إنك تخالها بحرا بشريا أمواجه تتلاطم تباعا مشاة وفرسانا. وعندما تمر هذه الأمواج يظهر السلطان في الوسط خلف خط حاشيته تحت مضلته وموسيقيين الذين يغنون خلال الثلاث ساعات من الرحلة متقدما بذلك المسخرين الشراكة و الوداية والقواد والضباط، أما أسلحته فكانت قريبة منه عند من هو مكلف بذلك. وخلفه يوجد الحاجب والوزراء والكتاب فوق البغال، والرماة بمدافعهم وأفواج باقي المسخرين مشكلين بذلك حزاما أمنيا للموكب، وتبعا لطبيعة المناطق والقبائل المعبورة فإنه يحاط أيضا بطابور الزنوج وما يحرسون سواء في مقدمة الأفواج أم خلفها.

أما فيما يتعلق بالأسلحة والتموينات، فإن سيدي محمد كان يستقدمها من إنجلترا، لكن لم يكن بالإمكان لكل الجنود الحصول عليها، خاصة رجال وحدات القبائل الذين كانوا يأتون بأسلحة قديمة متوارثة أبا عن جد من مسالح فاس، تطوان، مكناس حيث ظلوا متوفرين دائما على بنادق من الحجارة تملأ من الأنبوب، وحتى لا تزيغ الرصاصة من المستديرة من مكانها فإنها كانت تلفف بشيء من الصوف في قطعة من برنوس أو في حشو نخلة قصيرة تسمى الليفة. في حين يأتي الباقي من الحملة بدون أسلحة أخرى غير الخنجر أو المطرقة. وكان بعض الفرسان يحتفظون برماحهم التي قد تفيدهم في الهجوم على الأعداء. ولم يكن سيدي محمد مهتما كثيرا بمسألة التسلح حيث لم يقم بأي مجهود لتطوير هذا القطاع في حين أن ابنه مولاي الحسن هو الذي عمل على بناء معمل للأسلحة بفاس، من أجل صنع المدافع والبنادق والعتاد (1286) وكان يسمى المعمل« المكينة » وقد بني، المشور القديم في باب السكمة، وباب الدكاكن حيث تشتغل عدة آلات تحت إدارة الإيطاليين الذين جاؤوا لهذا الغرض[16]. فكان يخرج من هذا المعمل الرصاص، والمدافع والبنادق والنقود حيث كانت تسك بها أيضا النقود التي تلعب دورا حاسما في الحرب. وقد كانت دائما الأشياء الجديدة تواجه بعراقيل تحول دون انتشارها في المغرب فمن أجل صنع سلاح واحد كان لابد من مكينات / مصانع كثيرة. فإلى حدود عهد مولاي عبد العزيز كان البارود يعطى للجنود في علب من الورق ولازالت هناك بنادق قديمة لا نريد إتلافها، كما كانت هناك أعدادا مهمة من البنادق العادية والخفيفة العصرية , Gras Martintteury ،Winchester, Mauser وزعت بشكل عشوائيْ وقد وكان هذا التنوع في الأسلحة يفرض بالمقابل تنوعا في العتاد وبما أن الأعتدة الخاصة كانت ناقصة فإن البعض فضل الرجوع إلى بنادق آبائه التي كانت تطلق طلقات لا بأس بها، لكن بمعدل طلقة واحدة من عشر طلقات من بنادقكم.

أما فيما يخص تغذية هذا العدد الهائل من الرجال، فلم يكن هناك مورد قار للمؤونة أو مخازن فعندما كنا نعبر إحدى القبائل الطائعة فإنه كان عليها تقديم المؤونة[17]. أما إذا عبرنا منطقة عدو أو ثائر فإن كل واحد من الجنود ينصرف نحو قطعان الأغنام والدجاج ومخازن الحبوب حيث كنا نجمع كل ما نجد أمامنا. وقد كانت محلة السلطان تمر بأراضي القبائل الخاضعة أحيانا لأنها كانت تحمل المخزن على كواهلها المتعبة، وقد كانوا يمدون المخزن إضافة إلى ذلك إما بالعسكر أو المسخرين، أو النقود أو وحدات الجنود غير النظامية وكان عليهم أيضا تغذية عدة آلاف من الرجال طول مدة إقامتهم على ترابهم، مما جعل القبائل البعيدة تفضل الانشقاق وتكوين بلاد السيبة، حيث تحدث حروب بين الفينة والأخرى مما يخلف مشاكل مستعصية، تجلب الخسائر للطرف المنهزم، لكنها أهون وأقل كلفة من ضرائب المخزن.

ومن أجل إنهاء قصة سيدي محمد سأضيف بأنه كانت هناك ثورات كبرى قليلة في هذه الحقبة، وكان الناس مسرورين وسعداء فقد كان القمح متوفرا في المخازن حتى الفئران كانت تأكله ولا تلجأ إلى قضم جلود سروج الخيل. وأذكر أنه في سنة (1285 ه/ 1867م) حين استضاف سيدي محمد سلطانكم (نابليون 3) بعث بعض المغاربة برئاسة أحد وجهاء فاس الحاج محمد بن العربي القباج، إلى معرض بقصر كريسطال بسروج مطرزة وأحزمة فاسية مزينة بالذهب، وزرابي جميلة جدا.

ورغم ذلك فإنه كانت تبعث حملات اعتيادية لزمور والرحامنة المستعدين للتمرد والعصيان في كل وقت، وكذلك إلى قبائل بني موسى بتادلة حيث كان يؤتى منها بخمسين قتيل وسبعين سجين.

وكان السلطان لا يغادر القصر إلا قليلا، تاركا لأبنائه[18] مهمة تسيير هذه العمليات الصغيرة، مرتاحا بصفة خاصة لجنوب البلاد تحت حكم ابنه المفضل وخليفته على مراكش مولاي الحسن.

وبعد مدة وجيزة من بعث الحملات إلى قبائل تادلة (1873 م) توفي فجأة سيدي محمد في قصره بمراكش. ولم يصدق الناس هذه الوفاة المفاجئة لهذا الرجل العالم المحبوب وقالوا بأنه قد شرب حريرة سببت له في إسهال حاد ولعل المقصود بذلك عندهم، أنه مات مسموما ولكن ذلك أمر لا يعلمه إلا الله وحده.

الهوامش

1 - حكم المولى سليمان ما بين 1792 و 1822 ومولاي عبد الرحمان ما بين (1822 و 1859).

2 - البخاريين جمع بخاري :وهم رجال ينتمون إلى طائفة البخاريين التي أنشأها مولاي إسماعيل سنة 1677م. ويكونون ميلشيات زنجية سوداء، أقسمت على كتاب صحيح البخاري ثم حملت هذا الاسم بعد ذلك.

3 - يتعلق الأمر بالأعياد الدينية الثلاثة : عيد الفطر، عيد الأضحى، عيد المولد النبوي.

4 - كان مجموع الإنزال : 35000 رجل، بما في ذلك 74 مدفعا، وكانت أهم المعارك Los Castillejos حيث انتصر الإسبان مخلفين حوالي 100 قتيل و500 جريح (3 يناير1860). تطوان حيث كانت الخسائر تقدر ب 66 قتيل و1097 جريح وقد كانت اتفاقية الصلح لواد الراس في 26 أبريل 1860م.

5 - نطاق من الخيام تعزل فيه خيام السلطان في مجموعة خاصة.

6 - وبالتحديد على ضفاف واد مكيس رافد واد سبو.

7 - لقد شكل أهل سوس منذ القديم خاصة في عهد السعديين : (نواة عرب بني معقل) تجمعا واحدا، وأدمجهم المولى إسماعيل في الوداية مع « المكافرة » في فاس وأعيد تكوينهم في عهد مولاي الحسن في فاس مع مهاجري سوس، وتافيلالت وجماعة صغيرة من جبالة وفريق أولاد إدريس الشراردة المستقرين في سهل سايس قرب صفرو.

p : 186 Colin. E.Aubin : le Maroc d'aujourd'hui

8 - حفلات الولاء والهدايا التي تعقب الأعياد الدينية الثلاثة

9 - مركز انطلاق الحملات العسكرية.

10- الحملات العسكرية من أجل إخضاع القبائل الثائرة.

11- لفظ كان يطلق على النصراني.

12- تلميحا لأقلام الكتاب زمنها المصنوعة من قصب، وغالبا ما يكون رأسها رقيقا.

13- نوع من السكن يبنى من قصب وطين.

14- لم تكن دكالة محسوبة على قبائل النوايب.

15- منذ عهد مولاي الحسن أصبحت المدفعية تسير أمام السلطان خاصة أن هذا الأخير كان يعطي أهمية كبرى لهذا النوع من الأسلحة.

16- لقد كانت أول سفارة إيطالية في المغرب سنة 1875، أي بعد سنتين من تولية مولاي الحسن.

17- عبارة عن أطعمة تعطى يوميا لعابري السبيل أو منهم في حاجة إليها.

18- فمن بين أبنائه السبعة أربعة تربوا في مدرسة فاس وهم إسماعيل، عرفة، الرشيد، د، الحسن، وهذا الأخير هو الذي عينه سيدي محمد خليفة له بعد أن بدت عليه معالم الرجولة.

ولاية مولاي الحسن (1874-1894)

I- الاستيلاء على فاس ومغامرة غياتة

ا - تولية مولاي الحسن الأول:

عندما توفي سيدي محمد (بن عبد الرحمان)، كان ابنه مولاي الحسن ولي العهد وخليفته على مراكش في عمليات حربية في حاحة و بوريقي قرب دار القائد أنفلوس في حوض واد إيكر أو نزار حيث أعلن هناك سلطانا للبلاد. فغادر العمليات الحربية الجارية ثم اتجه صوب مراكش حيث سيقضي شهر سبتمبر.

وقد أخبر وهو في الطريق أن الرحامنة، عندما علموا بوفاة السلطان، قد شقوا عصا الطاعة ضد قائدهم و لدبلة المتهم بحبسه قائدهم القديم عبد الحميد بالصويرة (موكادور). فأطلق مولاي الحسن سراح هذا السجين وعينه قائدا على الرحامنة، وكان هذا التعيين هو أول تعيين رسمي له.

كان هذا السلطان الجديد طويل القامة، رقيقا وقويا، وذا بنية جسمية نبيلة وذا سحنة، ووجه لطيف أسمر مع عينين سوداوين واسعتين وأنف أقنى وخدين ممتلأين، وشفتين مثمرتين ولحية سوداء.

وكان إبان خلافته على مراكش يحضى باحترام جميع المسلمين المثقفين والأغنياء، وحتى الفقراء بل إن بعضهم قد قال بأنه سيكون ملكا عظيما مثل مولاي اسماعيل، وذهب البعض أن سيدي محمد قد كان مصيبا جدا عندما عين مولاي الحسن وليا للعهد رغم أنه لم يكن الابن الأكبر. وقد كان الكل مسرورا ويطلب طول العمر لمولاي الحسن. وكان هذا الأخير قد ذهب لإحلال النظام وإخضاع عائلة مشهورة (عائلة أوبيهي)المتمردة ضد قائدها، وفي طريق عودته صحب معه بعض وحدات القبائل المجاورة (عبدة و الشياظمة و متوكة و دكالة وأحمر و گلاوة و دمنات)، ودخل إلى مراكش وسط استقبالات شعبية كبيرة، حيث انحنى أفراد المخزن أمامه مبايعين. وقد تم الاحتفاظ بجميع وزراء سيدي محمد بما في ذلك الخلفاء، كما عين مولاي عثمان قائدا على مراكش.

ب - رحلة السلطان إلى مكناس

وبعد إقامة، قرابة شهر، في مراكش كانت جميع المشاكل المستعجلة قد حلت وقرر مولاي الحسن الذهاب إلى مكناس عبر الرباط للقيام بالزيارة المعتادة لمولاي إدريس زرهون والتي بدونها لن تكون هناك بيعة صحيحة وحقيقية، وهكذا عبر نهر أم الربيع عبر مشرع بن عبو لتنزل المحلة بسيدي حجاج، حيث واجهت أمطارا غزيرة ورياحا قوية، لم يعد معها بالإمكان شد الخيام بسهولة، حتى أن الوحل انغرست فيه الأرجل (أكتوبر 1873). لنعبر بعد ذلك مزاب ثم وصلنا الرباط عبر زعير، ومن الرباط بعث مولاي الحسن، حسب العادة، استطلاعات نحو بني حسن الذين كان يشك دائما في خضوعهم للنظام. وكان أفراد هذا الاستطلاع مكونا من قسم من الخيالة مع الغوجة والجنود لابن المختار. وبوصولنا إلى ما بين للايطو وواد بهت، فوجئ جنودنا بالقائد العربي لكحل الحسناوي على رأس حملة مختلطة من زمور وبني حسن. وعند انهزام القائدين (الغوجة وابن المختار) إتجها نحو الرباط راجعين بدون عتاد ولا سلاح، وفي نصف ثياب. وفي الطريق بين سلا و القنيطرة شاهدا محلة السلطان تتقدم، فوقف السلطان غير مكترث لرؤية قائديه الراجعين الخجولين فبدا كأنه غير مهتم بجنوده المهزومين المختبئين بين الصفوف، ورغم ذلك تبلور عنده مشروع حلق لحيهم لمعاقبتهم، وكان الشرفاء الوزانيون الموجودون في المحلة قد تدخلوا ليشفعوا للقائدين المهزومين عند الملك، خاصة أنهما فوجئا أمام حملات الحسناوي. فعفى عنهم السلطان، لكن طلب منهم إخباره بالمكان المدقق الذي وقعت فيه الواقعة، إلا أننا عندما وصلنا إلى الممر الخطير لم نجد أحدا، يبدو أن المتمردين المسرورين بأول انتصار لهم (على الوحدات السلطانية) لم يريدوا تضييع فرصة السبق، فقد اختفوا خائفين من قبضة هذا السلطان الجديد الذي يريد تركيز سلطته ومد نفوذه بالملموس [1]. وقد كان مولاي الحسن قد بعث إليهم وفدا لإخبارهم بأنه سيذهب إلى مولاي إدريس، وأنه يمكنهم الذهاب في أمان إلى مكناس، إذا بدا لهم ذلك حسنا وأن قائدهم لن يمسه مكروه. ودون أي إزعاج وصل السلطان إلى الضريح، حيث سيبقى أياما للزيارة وإغداق الهدايا على شرفاء الزاوية. [2] وبعد ذلك يستعد للرجوع إلى مكناس قصد الاستقرار بدار المخزن الإقامة المعتادة لأبيه المرحوم بالله.

ج-أحداث كروان

لكن في طريقه إلى مكناس لاحظ السلطان بعض الفوضى في صفوف جنوده وهكذا أعطى تعليماته لمختلف قواد الرحى الذين نبهوه بأن مصدر هذه الفوضى هو تحركات الكروانيين في آخر الصفوف أو ما تسموه أنتم بالمواكب، حيث ينهبون التجار، ويقتلون دون ذنب بعض الجنود المكناسيين الذين كانوا يحرسونهم. وفي اليوم نفسه قال مولاي الحسن «غدا،

فجرا سنهاجم كروان، وسأكلف فيلق الحاج منو بالهجوم والعلاف سي عبد الله بن أحمد بقيادة العمليات»، وقد كان هذا الأخير وزيرا للحرب في عهد مولاي الحسن وأخا لسي موسى الذي كان وزيرا وحاجبا في الوقت نفسه، وكان هذا المنصب المزدوج يخول له التحكم في المخزن ككل.

وهكذا انطلق فيلق الحاج منو لتمشيط الطريق، إلا أنه لم يكن يتعلق الأمر إلا ببعض الطوائف من اللصوص النهابين الذين يجب إزاحتهم عن يمين ويسار الطريق حتى يهاجموا بعض الفرق المنعزلة من محلتنا. وقد تم بالفعل طرد هؤلاء الفوضويين على يد بعض المخبرين، كما رجعنا بعدة أسرى ورؤوس منقين بذلك الطريق بين مولاي إدريس و مكناس، وبهذا مشط حوض وادي الردم تماما، وعندما علم سكان مكناس بقرب وصول السلطان الجديد، وإزالة خطر هؤلاء الفوضويين الذين خربوا أجنتهم لقريبة منهم منذ وفاة سيدي محمد، خرجوا فاتحين أبوابهم فرحين بسي عبد الله وجنوده مرتدين لباس العيد منتظرين قدوم مولاي الحسن.

هكذا إذن دخل السلطان مكناس في حفل بهي وسط زغاريد النساء، وطلقات البنادق، متجها إلى دار المخزن، في حين ذهب الجيش الكبير والمسخرين للاستراحة إلى معسكر سيدي بوزكري، المكان المعتاد لتعسكر المحلات الشريفة[3]

وقد عزز الحرس الملكي المكون من البخاريين المستقرين في النوايل قرب باب الروى بجنود الحاج عبد القادرالبخاري. وليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب من هذا الأمر، فقد سبق أن قلت لك، أن كل وحدات المسخرين مكونة من قسم قار ورسمي ثم قسم متحرك غير قار يعين أفراده بشكل تناوبي، فكان القارون الرسميون منهم يمكثون في القصر في حين يذهب الآخرون إلى الحركات، لكن عددهم كان قليلا وفي الوقت الذي يكون فيه السلطان مقيما بأحد قصوره فإن هذا العدد يعزز بالعناصر التي تؤخذ من الوحدات التي وصلت مع المحلة. [4]

لقد كان مولاي الحسن متزوجا يصحب معه في طريقه من مراكش إلى مكناس ثلاثين من النساء بما فيهم محضياته وجواريه وخدمه، وكن يركبن، كما تعلم، البغال التي يحرسها خمسة عشر عبدا من الخصيان وتحت مراقبة طابور عسكر العبيد.

وكان وصول السلطان الجديد إلى مكناس بداية لأسبوع من الحفلات والأفراح حيث خلد الشعب أفراحه، ونشط التجار، وشويت وطهيت الأطعمة الشهية في كل أطراف المدينة، حتى إن الرائحة المنبعثة من الأحياء توحي بأيام العيد الكبير (الأضحى) وفي كل مساء عقب كل صلاة عصر تقام حفلات الخيالة التبوريدة في ساحة باب المنصور العلج.

د – أحداث بني مطير

لكن الأنباء السيئة لم تفتأ أن وصلت إلى القصر : فإن طوائف قوية من بني مطير الذين أجاعهم فصل الشتاء قد هبطوا من الجبال اتجاه مكناس حيث اجتاحوها تماما. وقد فوجئوا جدا برؤيتهم المحلة الشريفة معسكرة ببوزكري بعد أن نهبوا قطعان الأغنام من المراعي. وقتلوا الحراس ليلا بعد أن شوهوا جثتهم وعروا عنهم ثيابهم. وإثر هذه الأحداث ذهب سيدي عبد الله لإخبار السلطان :

ـــ ما الذي تحكي لي أنت؟ قال السلطان. هذا غير معقول !؟ أليس هناك في المحلة وحدة عسكرية من بني مطير مع قائدهم ولد الشبلي.

ـــ نعم سيدنا ! قال الآخر الصواب ما قلتم سيدي ولد الشبلي معنا، لكن إنهم أيضا بنو مطير من يقتل رجالنا، فقد تمكننا من معرفة بعضهم حالت رصاصاتنا دون هروبهم.

ـــ إذن ابعث لي، وبكل سرعة، ولد الشبلي !

ثم جاء هذا القائد بسرعة، وبعد أداء فروض الطاعة والتحية سأله السلطان :

ـــ ولد الشبلي !ماذا تعني هذه الضوضاء، والاضطرابات التي يحدثها الآن أتباعك. لقد طمأنتني، وضمنت لي أبناء قبيلتك بأن يعترفوا بي سلطانا عليهم، ويطيعونني. وهاهو الآن يصلني أن بني مطير قد نهبوا قطعاني وقتلوا حراس محلتي.

نعم سيدي، والله لقد قلت الحقيقة، إن قبيلتي فعلا سيدي طائعة، ولكن إذا كان من تحدثني عنهم سيدي من بني مطير، ولست متيقنا من ذلك، فليسوا، وبدون شك سوى مجموعة من اللصوص، وبعض من « سخن عليهم الرأس » كما هو الشأن، في كل قبيلة، ولا أستطيع أن أدافع عن هؤلاء الأغبياء، لكنني رهن إشارتكم فإذا رغبتم سيدي فإني مستعد منذ الآن أن آخذ وحدتي العسكرية مع بعض جنود التقوية الذين تمدونني بها من أجل تنظيم حركة ضد هؤلاء.

ـــ إذن فلتذهب حالا، يقول السلطان، وأرى أن جنودك وحدهم يكفونك لإحلال النظام والتعقل في تلك العقول المتهورة، وبهذا ستحكم سيطرتك عليهم. فانطلق ولد الشبلي راجعا إلى بوزكري ليذهب مع جنوده بعد أن قام ببعض الاستطلاعات، وتمكن فعلا من إنجاز المهمة، وبعث ببعض الرؤوس إلى مكناس لكن فقد بالمقابل بعض التجريدات التي ضاعت بشكل تمرد وسط الاشتباكات. وفي خضم هذه السلسلة من الانتصارات والهزائم تصاعد تدور القبيلة ككل حيث عمت الفوضى كل أفراد القبيلة وجهر بذلك حتى في الأسواق، مما جر القبائل الأخرى المجاورة للفتن مثل بني مكيلد والمجاط وأيت يوسي فقرر

السلطان تنظيم صوكة [5] قوية ضد هؤلاء وهكذا بدأت لغة البنادق والبارود في النطق بين بني مطير والمخزن فاستمرت طيلة فصل الشتاء بشكل تناوبي بين الطرفين، وعندما تعب السلطان من رؤية تزايد هجوم أعدائه الذين وصلوا إلى حدود أسوار مقر إقامته، قرر الخروج شخصيا مع المحلة كلها وجميع الأفواج المخزنية المعسكرة في سيدي بوزكري خاصة أن الوضعية أصبحت أكثر صعوبة. كما نادى من مكناس على وحدات جديدة من قبائل بني مسكين وزمران و الرحامنة واحمر وعبدة و دكالة مما مكنه من جمع حوالي 5000 رجل لتقوية صفوفه.

وكانت المعركة على جبهة مكناس -قصبة الحاجب - على امتداد مساحة أكثر من خمس كيلومترات شيئا ما شمال زاوية سيدي أحمد التجاني. حيث التقى الطرفان على خطين متقابلين، وهكذا تقدم بنو مطير في شكل منتظم مثل عمود خشبي عريض يتوسط الساحة منشدين أغانيهم الحربية، وضدا عليهم فقد أحكم السلطان تنظيم وحدات القبائل في خط طويل أيضا. وكان قد أخذ بنفسه مكانا في نفس الخط مع حرسه فوق هضبة مما مكنه من متابعة أطوار المعركة بواسطة نظارتيه بشكل أسهل مع إعطاء التعليمات الضرورية، وكان قد وضع هذا الخط قواته النظامية الاحتياطية.

وقد استمرت المعركة التي بدأت صباحا اليوم كله، لكن دون نتائج مشجعة وعند المساء شن الحاج منو، بعد موافقة السلطان، حملة قوية أعطت الانتصار للوحدات المخزنية، وهكذا تمكن من جمع جنوده وتوجه بحيوية أكثر مع فرسانه إلى الجهة اليسرى من بني مطير. وعندما هددهم بالإحاطة بهم طالب الرجال الموجودين في المواجهة إعانة جنود الوسط للوقوف ضد هؤلاء الأعداء الجدد وعندما كان الحاج منو في وضعية صعبة أمر رجاله بالانبساط أرضا، والفرسان بالذهاب على يمين ويسار هذا الخط، وفي الوقت التي ضعفت فيه الحرب على الجبهة الرئيسة، بدأ القصف يتقوى اتجاه جنود الحاج منوا، لكن هؤلاء الأخيرين كانوا قد تلقوا تداريب على مثل هذه الظروف، وبعد أن ناوشوا بعض الشيء وقرعوا الطبول متراجعين. ليزيلوا بعد ذلك الغطاء على الخط الجديد من الرماة الذين لم يكن ينتظرهم العدو حيث كانوا مختبئين في فنادق صغيرة محفورة بسرعة، بالخناجر، هذا في وقت كان الحاج منو يركز جداره المتحرك، وكان الجنود في الخنادق الصغيرة يقاومون عدوا متزايدا شيئا فشيئا وواثقا من النصر. لكن وبإشارة، اجتمع فرسان اليمين واليسار على بني مطير في شكل جيب ولم يستطع الفرار منهم إلا القليل، وهكذا جمع الحاج منو 40سجينا، وحمل إلى السلطان عشرين رأسا وسط زغاريد وتهاليل الانتصار، وعندما رأى باقي جنوده بني مطير في الجهة اليمنى هذا المنظر فروا خلف متابعة الفرسان الاحتياطيين. وهكذا رجعت المحلة ليلا إلى سيدي بوزكري حيث ستعسكر.

وبعد مرور يومين انطلقنا لمطاردة بني مطير الذين قبض عليهم قرب الحاجب، وخلال أربع ساعات وصلت الأفواج السلطانية للقاء العدو الذي كان في وضعية جيدة محميا في الخلف بمرتفعات جبلية.

وفي بداية الحرب قتل الشريف مولاي المدني الامراني المتهم، ظنا، بكونه المسؤول الرئيس عن ثورة بني مطير فتوقف إطلاق النار وتوقفت المواجهة، وأيقن المتمردون أنهم على وشك الخضوع والانصياع للأمر الواقع، وهكذا جاء أعيانهم ورجا لاتهم سائقين ثيران « التركيبة »[6]. ونساؤهم تستغيث، وأطفالهم يحملون ألواحهم القرآنية على صدورهم مرتدين ثيابهم البيض فأعطاهم مولاي الحسن الأمان، وأمر بأن يؤتى إليه في الغد أعيان بني مطير بدار المخزن بمكناس.

وبالفعل حضر وجهاء بني مطير وضمنهم القائد ولد الشبلي الذي كانت تحركاته أثناء، هذه الحملة مشبوهة بشكل لافت، وفي حضرة السلطان نودي على ولد الشبلي وتقدم مجموعة من العساكر لإخراجه ووضع القيود في رجليه والذهاب به إلى مراكش ثم أعلن السلطان على لسان قائد مشوره، خلع وإقالة جميع قواد بني مطير السابقين وطلب منهم تعيين قوادهم بأنفسهم فأجابوا :

ــ القبيلة أمامكم سيدي، عينوا أنتم قوادها الجدد وسيكون اختياركم محط رضانا وطاعتنا. ودون أدنى تردد عين مولاي الحسن القائد رحو ولد ماما لمطيري قائدا عاما على كل بني مطير، فانصرف أعيان بني مطير مرتبكين قلقين لأنهم قد علموا أنه ولي عليهم رجل قوي وحيوي، لين وقاس في الوقت نفسه وكانوا أمامه كفئران أمام قطة.

ــ أحداث فاس

وبعد تصفية هذه القضية، قرر السلطان الذهاب إلى فاس مدينة « العلماء »، لكن منذ انطلاقه من الرباط كان قد علم عبر مخبريه طبيعة موقف أهل فاس من المخزن، وعلم أيضا أنهم قد ثاروا ضد الأمين الكبير[7] للمدينة : المدني بنيس المكلف باسم السلطان باستخلاص مستحقات أبواب وأسواق المدينة فقد عنفوه وأهانوه في الشارع وكاد يقتل في إحدى الأمسيات لولا احتماؤه بأحد الحمامات، واختبأ في أحد غرفه المظلمة الملأى بالسطول الخشبية حيث أمضى فيها ليلته هذا في الوقت الذي كان فيه منزله تحت حراسة المتمردين المنتظرين وصوله لتعنيفه حتى يبوح بمكان خزنه الذهب والمال ثم بعد ذلك يتخلصون منه. وعندما أخبره أحدهم بذلك استجار بضريح مولاي إدريس.

وإثر هذه الأحداث كتب السلطان من مكناس، إلى أعيان فاس ما يلي :

« لقد علمت ببالغ الأسى والأسف أن الفاسيين قد ثاروا ضد خديمنا الأرضي سي المدني بنيس[8].

أدعوكم إلى العودة إلى رشدكم والطاعة، وأن تدعوا هذا الموظف في أمان، خاصة أنه لم يقم إلا بواجبه وتنفيذ الأوامر.

واعلموا أني لا أعطي كبيرا اهتمام للتصرفات الراهنة للفاسيين في هذه القضية بالإضافة إلى عدم اكتراثنا بالنقود التي سرقت من المدني بنيس، إنها أموال المخزن وهو من سيسترجعها.

لكن تبينوا جيدا ما هي دواعي كتابتنا لكم : إننا نود أن تكونوا كلكم في سلام وسرور، فعبروا عما تريدون وترغبون. والسلام عليكم.

ثم قرئت هذه الخطبة على منبر القرويين، فبدأ الناس يهنؤون بعضهم البعض برضى السلطان عنهم. هامسا بعضهم بتقدير السلطان لهم، وأنه لو عاملهم السلطان معاملة سيئة ولو بالكلام فقط، لخرجوا لمواجهته في مكناس.

وفي الوقت نفسه كان السلطان قد أرسل رسالة للمدني بنيس يقول له فيها بأن لا يخشى شيئا، وأن هذه المشاكل ستزول في اليوم الموالي، داعيا الله أن يعوضه خيرا عن خسائره، خاصة أن المخزن قوي وغني.

وعلى صدى هذه الأحداث غادر السلطان مكناس مع محلته وكل أسرته (فبراير، مارس 1874) ليصل إلى فاس عبر ثلاث مراحل : عين طوطو، بن خاسة (واد النجا) والصوبيات حيث توجد بركتين مالحتين.

وخلال يومين دخل السلطان رسميا فاس في استقبال حماسي رائع. وجاء العلماء بكثرة لاستقباله مرافقين خليفة السلطان وأخاه مولاي إسماعيل [9] في حشد كبير. وفي الوقت الذي دخل فيه السلطان وحاشيته والمخزن والشخصيات الرئيسية من باب السكمة عرج على ضريح مولاي إدريس [10]، كانت المحلة قد عسكرت على الهضبة القريبة من قصبة الشراردة، على مرتفع المصلى حيث تمركزت وحدة بني مسكين بقيادة القائد الشافعي المسكيني، تحت الزياتين شمال باب محروق، في حين التحقت الوحدات النظامية بمختلف قصبات المخزن (الشراردة، الثور. . الخ) في حين كان «بستيون» الباب المحروق (البرج الشمالي)، وحسب الأعراف القديمة، تحت حراسة الوحدات الفاسية لمراقبة تحركات جنود السلطان إذا أرادوا إحداث اضطرابات في المدينة.

وقد أقيمت هذه النسك وقدمت الهدايا بضريح مولاي إدريس، حسب العادة، وهكذا دخل السلطان الممتطي جواده دائما قصر فاس الجديد دون مشكل يذكر. وبعد مرور

أسبوعين تقرر استدعاء أعيان المدينة، حيث استقبلوا استقبالا رائعا ثم غادروا بعد ذلك، وفي ساحة القصر تبعهم الوزير الأول سي الطيبي بن اليمني ليقول لهم :

« اسمعوني سكان فاس جيدا. فمن واجبي أن أشرح إليكم الأمور كما هي، فلقد اقترفتم ضد المخزن وضد سيدنا أخطاء كبيرة، فقد هاجمتم ونهبتم سي المدني بنيس والواقع أن الرجل ليس سوى موظف لنا مكلف باستخلاص حقوق المخزن. وكأنكم بفعلكم هذا قد هاجمتم ونهبتم المخزن نفسه، ثم إني أرى من بينكم خدام المخزن الذين يدينون له بالشيء الكثير، وأرى من بينكم كذلك شرفاء زاوية مولاي إدريس ورغم ذلك تمردوا وقد أمرني سيدنا مولاي الحسن بإخباركم الآن بأنكم لن تفلتوا من العقوبات التي تستحقونها».

ففوجئ الأعيان بهذا الكلام القاسي، بعد أن سمعوا كلمات الترحاب قبل قليل وقالوا بعد أن اضطربت ألسنتهم :

ـــ سنرى معالي الوزير ما يجب علينا فعله.

ثم نزلوا نحو فاس البالي غير راضين عن الكلام الذي سمعوه. ومرت ثلاثة أيام وهم يناقشون الوضعية دون أن يصلوا إلى حل معقول وفي حدود مساء الاثنين حيث اجتمع حيث اجتمع الأعيان في المسجد وقرروا انتخاب قائد « السيبة» الذي كان يدعى الحاج احمد الرايس. وفي اليوم الموالي صباحا، وبينما كانت أبواب المدينة مغلقة، جاءت وحدات مسلحة لتعزيز باقي الوحدات التي تحرس مختلف الحصون داخل وخارج المدينة. .

وعندما علم مولاي الحسن بالأمر، بعث شخصيات مختلفة ومحترمة إلى الأعيان لمعرفة مضمون شكواهم التي كان من ضمنها تنحية الفقيه سي عبد السلام البقالي الذي كان ينزل إلى المسجد حاملا « التهليل »[11] في الجانب، و السبحة في اليد.

ـــ قال الأعيان، إننا نريد الطاعة فعلا، لكن شريطة ما يلي، أن يوضع رهن إشارتنا ويسجن بعض الوقت كل من سي موسى بن أحمد وأنت أيضا سي عبد السلام البقالي وكذلك قائد المشور الجيلالي بن حمو، لأنهم الشخصيات المقربة من السلطان والتي تؤلبه ضدنا، كما نطلب علاوة على ذلك، أن تردوا إلينا سي المدني بنيس المنعم برضى المخزن حاليا، لنحاسبه ونقاضيه بأنفسنا ونعاقبه بما يستحقه.

هذه هي شروطنا من أجل الاتفاق. وإذا رفضها السلطان فله كامل الحرية أن يرد بالطريقة التي تعجبه.

وقد دار كل هذا النقاش والأبواب مغلقة والحصون محروسة. وفي اليوم الموالي بعث السلطان، الذي كان قلقا جدا من مجريات هذه الأحداث ببعض المخزنيين للاستطلاع.

لكن لم يكد يصل هؤلاء الرجال إلى باب بوجلود حتى قوبلوا بإطلاق الرصاص، فردوا بالمقابل لتبدأ المعركة إذن، حيث شرع حصن باب محروق يقصف بمدافعه المحلة المعسكرة حول قصبة الشراردة. وعلى الفور أعطى مولاي الحسن أمرا لأفواجه بالهجوم على المدينة. ثم تقدم بقطعه إلى مرتفع البطحاء لتهديد صومعتهم، وكان الفاسيون المحتلون لمسجد بوجلود يطلقون، على مهل، مدفعياتهم التي تقترب لتقوية قطعهم. ووسط هذه الأحداث اقترح موحى، قائد رحى « الطبجية » أنه يمكن اقتحام باب بوجلود الصغير المفضي إلى الجنانات بواسطة المشاة. وهكذا نزل الحاج منو، بالفعل مع جنوده وفرسانه من قصبة الشراردة نحو باب بوجلود، حيث انتشروا في الحدائق على طول الواد، لكن طلقات الرصاص المنطلقة من صومعة المسجد كانت تعرقل تقدم تحركات جنود الحاج منو الذي طلب من موحى إسكات هؤلاء والقضاء عليهم فقصف موحى المسجد حتى انشطرت الصومعة شطرين، كما قتل عددا من الفاسيين، فاستغل الحاج منو فورا هذه الاضطرابات ليقتحم السور المحيط بالمدينة ويدخل مع جنوده حي الدوح.

وهكذا فر الفاسيون خوفا من هجوم هؤلاء الجنود المتحمسين تاركين وراءهم سلاحهم، وتم إخلاء المسجد من محتليه إلا أن بعض جنود السلطان انطلقوا في نهب الأزقة والشوارع المفضية للمدينة، فاقتحموا الفنادق [12]، وكسروا أبواب المحلات التجارية بعد أن جمعوا الغنائم. فأطلقت المدفعية أربعين طلقة والستين نافور. لمحلة مولاي الحسن الذي كان يتابع تقدم العمليات بنظارتيه من على مقصورة « قبة النصر » ويعطي أوامره لجنوده من داخل البنيقات [13] بالتمهل في الانطلاق وقتل ونهب وأقل ما يمكن.

وبعد ذلك رجع بعض الجنود من المواجهة، صاحبين معهم الأسرى والأثواب والسلع المختلفة بالإضافة إلى النقود في الجيوب. وهكذا أخضع الحاج منوحي بوجلود إخضاعا تاما، ولم تبق أمامه سوى جبهة قوية، إنها قصبة فيلالية، حيث كان أهل تافيلالت مساعدين للفاسيين وقد احتار الحاج منو أي جهة سيأخذ خاصة أنه علم فجأة أن فيلالة قد انظموا إلى المخزن، ويقصفون الآن فاسيي «الطالعة» [14] وهاك ما حدث :

فأمام تقدم الأفواج الشريفة التي تحيط بهم من كل الجهات ومخافة العواقب المستقبلية تملك الخوف فيلالة فاجتمعوا فيما بينهم وطرح عليهم أحدهم السؤال التالي :

ــ لقد تشاجر أبي مع أمي، وقررا الافتراق، فأيهما سأتبع يا فيلالة؟

ــ فأجيب : عليك باتباع من له الحق.

ــ إذن : فأبي هو السلطان، وأمي هي فاس، فالذي معه الحق تأكيدا هو أبي لأنه المخزن، فعلي إذن أتباعه.

وبطريقة لا شعورية شرع فيلالة في إطلاق النار على أهل فاس وأخبر الحاج منو بأنهم معه.

وهكذا تراجع السكان نحو الأحياء السفلية، بعد أن تسلق بنو مسكين وضربوا سور الطالعة حيث تابعوا العمليات وقتلوا بعض التجار الذين كانوا يحاولون حماية متاجرهم، وقع كل هذا ورماة برج النور لا يعلمون ما حدث، فاكتفوا فقط بمناوشة أهل الطالعة، جاهلين ارتداد فيلالة، وهكذا أفرغت المنازل والأحياء، ثم اتجه هذا الجمع الرهيب لأحداث الفوضى والاضطرابات في اتجاه باب فتوح باحثين عمن يدافع عنهم، وكان من ضمن هذه الجماعة الفوضوية قائد السيبا الحاج أحمد الرايس الذي كان شخصية بارزة وسط هذه الحشود، المكونة من 25000 شخص متهيج، يتسارعون نحو الأبواب الجنوبية حاملين أمتعتهم النفيسة، ثم اجتمع أعيان المدينة في مسجد القرويين خوفا، لأنهم يعلمون بأن أفواج المخزن قد استولت على كل الأحياء الفوقية، وعند فرارهم قال قائد السيبا لرجاله :

ــ ألسنا على طريق ضريح مولاي إدريس؟ فعلينا الاستعانة و التبرك به، ثم اتجه نحو الضريح أعزل، بندقية على كتفه فجلس على ركبتيه فقال :

ــ الله ينصر السلطان ! هذا ما أريده وأتمناه، فلا داعي أن تعولوا على في شيء.
وطيلة هذا الوقت ظل دائما صوت الرصاص والمدافع مسموعا، مما جعل السلطان يأمر المشاة والرماة بإطلاق الرصاص في الهواء لإخافة سكان فاس لضمان مسيرة أحسن لجنوده، فقد كان يرغب أن يقتل أقل عدد ممكن من الناس خاصة أنه كان هناك ثلاث قطع الأولى قرب ضريح سيدي بوبكر العربي والثانية قرب دار البطحاء، والثالثة باب برجات، التي أحدثت فزعا جهنميا.

وهكذا أحكم القبض على الفاسيين كفئران في مصيدة.

وفي ظل هذه الوضعية، أرسل السلطان مبعوثا إلى الأعيان يخبرهم أن السلطان مستعد لإيقاف إطلاق النار إذا ما استطاعوا المجيء إليه ومبايعته، فبعث السكان النساء للاستعطاف، والأطفال الصغار بألواحهم القرآنية، وقائد السيبا سي احمد الرايس ملتفا في غطاء ضريح مولاي إدريس محروسا ومحميا بملازميه.

فاستقبلهم السلطان بعد أن أوقف الحرب ثم قال لهم :

ــ لا تخافوا أي شيء، لن نعاقبكم لأنكم لستم أنتم المذنبين، فقد سامحتكم فاذهبوا آمنين.

وبالفعل بدأت طلقات النار تهدأ، وتساقطت الأبواب في أيدي الجنود دون أدنى مقاومة تذكر، بعد أن ركز الحاج منو في كل واحد منها مجموعة قوية من الحراس. ولم يحل الليل حتى أصبحت المدينة كلها في يد السلطان.

وفي اليوم الموالي استدعي جميع الأعيان إلى دار المخزن، وكان من بينهم باشا فاس سي إدريس السراج، وللمرة الثانية، أحمد الرايس قائد السيبا السابق وكان أول المستقبلين الباشا وحده. الذي قال له مولاي الحسن.

ــ إن هذه المدينة متميزة، في الواقع بفوضاها، وعناد أهلها أتظن يا إدريس أن لها مثيلات كثر؟ لا أظن ! فمن أين جاء هذا الشر إذن؟ !

ــ إن سكان فاس، سيدنا، علماء جدا، ولهذا لا يستحسنون ولا يرضون تلك الامتيازات التي تعطي للآخرين.

ــ لا يا إدريس ! إن مرد ذلك فقط، لأنهم يشعرون أنهم تحت قبضة أيدي ضعيفة فأنت لا تعرف الحكم والقيادة، فإنك أنت سبب هذا العصيان، فسأسجنك أنت أيضا.

ثم قيده بعد ذلك المخازنية وتم إخراجه من قاعة الاستقبال على مرأى من الفاسيين، الذين دهشوا عندما أذن لهم بالدخول، وبعد أن وقفوا مذهولين أمام السلطان خرجوا للاجتماع مع قائد المشور الذي قرأ عليهم هذا الخطاب.

ــ « إعلموا سكان فاس، إن المسؤول عن فوضى وعصيان فاس هو باشاكم القديم سي إدريس السراج، ولهذا سجن، واعلموا أن باشكم الجديد الذي ما لبث يريده سيدنا هو : الجيلالي بن حمو. ثم إن قائد السيبا سيصبح قائد السلاح بتوليته منصب خليفة الباشا، فانتم من تمرد، دون سبب، ضد أمينكم بنيس وبالتالي ضد المخزن ولهذا قرر السلطان لمعاقبتكم ما يلي : من كان منكم يؤدي قرشا للضريبة سيؤدي قرشين، كما عليكم دفع تعويض عن خسائر الحرب ب 100000 دورو، كما عليكم أيضا تجهيز وحدة عسكرية دائمة من 500 جندي. ويأمر سيدنا أن يكونوا من أبناء مدينتكم لا من الخارجيين عنها أو المعوضين أو المشترون. كما سيكون الفيلق الفاسي تحت قيادة ابن أحمد الرايس. واعلموا أيضا أن السلطان قد أخذ من كل مدينتكم وحدات حربية، فلا داعي لعصيانكم من جديد، أنا الجيلالي بن حمو، خلال أيام سأكون من الآن باشاكم وسأعمل على تنفيذ هذه التعليمات في أحسن الأحوال، ذلك لأنني لا أعرف إلا الإستقامة والحزم في تسيير الأمور، والويل لمن أراه يندس في الطرقات والمعابر. هذا كل ما في الأمر، والسلام عليكم».

وهكذا رجع الفاسيون إلى بيوتهم صامتين مطأطئين.

وخلال هذه الفترة بالضبط أصبح الحاج محمد بن يعيش قائدا للمشور بعد أن عين الجيلالي بن حمو في باشوية فاس.

وقد أقام السلطان بالمدينة أربعة أشهر تقريبا خضعت فيها المدينة خضوعا تاما وبعد ذلك انصرف للاعتناء بجنوده، وملأ الفراغات، ومراقبة تقدم المدفعية، كما عمل على

تنشيط التحاق وحدات المدن التي حدثتك عنها قبل قليل. ومراقبة الفيلق الفاسي الجديد، ومتابعة، وبانتباه شديد، كل الأحداث الجديدة الآتية من نقط المغرب المختلفة.

و- أحداث بوعزة الهبري

ثم ما لبث أن وصلت أخبار متمرد يسمى بوعزة الهبري، يدعي أنه ساحر وكثر الحديث عنه في نواحي تازة حيث هاجم فرسانا يدعون أنهم أتباع بوعزة قبيلة أولاد الحاج سبو، وكان السلطان لا ينتظر إلا الفرصة المواتية للخروج لهذا المتمرد، وهكذا حمل الفراك إلى معسكر قنطرة واد سبو تاركا وراءه أفواجا كافية لحراسة المدينة وبعد ذلك انطلقت المحلة للبحث عن بوعزة هذا (سبتمبر 1874)

لقد كان الحاج منو يتوفر على مخبرين في كل مكان تقريبا في طنجة كما في سوس، وقد علم من أحدهم أن هذا المتمرد قد اختبأ عند بعض الأتباع من بني سادن الذين أعطوه الأمان والحماية، وهكذا اجتحنا المنطقة تحت مناوشات بسيطة لم تكن لها أهمية تذكر، فسلبنا ونهبنا لكن دون أن نجد هذا المبحوث عنه، ثم إن بني سادن كانوا سيسلمونه لنا إن كان عندهم فعلا.

وقيل لنا بأنه موجود عند أيت سغروشن فانطلقنا إليهم، لكن هؤلاء الرجال كانوا لا يدعوننا نجتاح أراضيهم ومزارعهم دون مقاومة. ثم تتبعنا مكان وجود صاحبنا عبر بني وارين إلى حدود غياثة وهناك فقدناه. وفي الوقت الذي كان السلطان يعسكر أمام تازة ويستقبل هدايا قبائل المنطقة، أخذنا نتساءل هل ذهب هذا المتمنع بوعزة إلى الريف أو الصحراء أو جبال بني وارين. وقد كان هذا الاختفاء المفاجئ لهذا المتمرد فرصة لإكثار الحديث بين الجنود حول كونه ساحرا. وفجأة علمنا أنه موجود عند هوارة واد مسون قرب تازة، حيث تخلى عنه هؤلاء بكل تلقائية، وكان من حمل الخبر إلى المعسكر أحد مخبري الحاج منو.

وكان قد دخل هذا الساحر المشعوذ إلى السوق ليقول للناس :

أنا هو بوعزة الهبري، لست خائفا من سلطانكم الجديد مولاي الحسن المعسكر الآن مع بعض الجنود قرب تازة. فمن حيث الجنود فإني أتوفر على عدد أكثر منه، أخرجهم وقتما شئت خاصة أنني أخرجهم من الأرض لقيادتهم، أترون جلد الخروف هذا المطروح على الأرض فإن تحته أسلحتي، وسترون ذلك.

ثم رفع ذلك الجلد بهدوء :

إذن انظروا أيها الجاحدون، هؤلاء هم مشاتي، وهؤلاء هم جنودي، وهنا كل مدافعي، فما علي سوى إعطاء إشارة إلى هذه الحلقة لإخراج كل هذه الفرق وقصف الأفواج الشريفة،

لكن لا أريد بالسلطان شرا، فليقم بواجبه، وليتركني أقوم بمهامي، وأحتفظ بجنودي لحروب أكثر قداسة، وأقول لكم يا هوارة، الذين يسمعونني، أنا مؤيد للقيام بالجهاد.

ولم ير من كان يحيط بالرجال سوى حجارة حول جلد الخروف، فنظر بعضهم إلى بعض مستغربين من هذا الرجل الواهم، ثم قال له أحد الرعاة الأكثر ذكاء من الآخرين :

ــ ألا ترون يا هوارة، أيها الرجال البسطاء الصرحاء أن هذا الرجل يخدعكم بقوله إنه ولي، وفي الواقع إنه ليس كذلك، ذلك أنه لو كان كذلك لكان وجوده في قبيلة ما يكفيها من كل خطر وشر، والحال أنه كان بين ظهراني بني سادن و أيت سغروشن وبني وارين، وعند آخرين، وتعلمون ماذا جنوا من ذلك، فقد نهبت كل هذه القبائل، وأتلفت محاصيلها، وبيعت نساؤها وأصبح أطفالها عبيدا للقبائل المجاورة، وهاهم الآن يبحثون عن الخبز وعليهم العمل أكثر لتسديد ديونهم وضرائبهم، فهذا ما ينتظركم من هذا الرجل فإذا أردتم ألا تواجهوا نفس المصير، فخذوه، ثم اذهبوا به إلى السلطان وعندها ستعرف هل هو ولي حقيقة أم لا؟

وفعلا هذا ما حدث.

وقد كان قد ذهب القائد الشافعي المسكيني والحاج منو مع جنودهم من المعسكر إلى هوارة، لكنهم صادفوا في طريقهم موكب هوارة رفقة أسيرهم فرجعنا إلى المحلة، وكان السلطان في «سيوانه»[15] مع وزيره الأول وقائد المشور عندما أدخل عليه بوعزة الهبري.

فخر هذا الأخير ساجدا واضعا جبهته أرضا مستمعا للسلطان وهو يقول :

ــ أنت هو بوعزة الذي كلموني عنه، فماذا تقوم به ضدي فأجاب الرجل وهو في نفس الوضعية دائما :

ــ الله وحده يعلم ! هذا ما قدر الله !والآن أنا في حمايتك، فلا تقتلني.

ــ لا تخف، أجاب السلطان، فقد أقسمت أن لا أقتل أحدا أبدا.

وبعد تقييده والطواف به فوق جمل على المعسكر، اقتيد أسيرا إلى فاس، وكانت هذه نهايته.

ز- *(وباء 1874-1875)*

وبعد استراحة في طريق وجدة، حيث عين مولاي الحسن قوادا مختلفين الحاج البشير بن مسعود على بني يزناسن، وحموا لبوزكاوي على بني بوزكو و السهالي على مهاية، اتجهنا نحو قصبة سلوان لقضاء شهر رمضان، وبعد ذلك اتجهنا نحو فاس، لكن كان برد

هذا الشتاء (1874-1875) قاسيا جدا، حيث كانت الأمطار والرياح والأوحال تعرقل مسيرة المحلة، مما تسبب في وفاة الكثير. وكان قد انتشر المرض في صفوف الجنود على طول الطريق، فانتاب السلطان مولاي الحسن قلق كبير حيث كان يحمل ويتفقد المرضى، ويأمر جنوده بإمداد المرضى المتعبين خيولهم لكن الرياح كانت قوية حتى إنه لم نعد نعرف أي أحد في الأرياف ويبدو أن الناس كلهم ماتوا. وبعد هذه الأضرار كلها دخلت المحلة أخيرا فاس بعد أن فقدت الكثير من الرجال.

وقد كان علينا أن نمكث هناك حتى شهر أكتوبر 1875 ، وقد كان في فصل الربيع بعض الحملات الاستطلاعية لكنني لا أحتفظ بأي ذكرى شخصية عنها لأني لم أكن هناك. وكانت قد أرسلت تجريدة من المحلة بقيادة مولاي علي، أخ السلطان، إلى ضواحي بني يزناسن حيث كان يحاولون مع قائدهم الجديد البشير بن مسعود الإنفصال وعدم الإعتراف بالمخزن الذي تربي في أحضانه. وقد دعمت هذه التجريدة بجنود تازة بقيادة بوزيد الزراري الذي انهزم وتراجع دون نتيجة تذكر. أما السلطان فقد كان يتابع تقدم جنوده مؤخرا البث في هذه المشكلة الى وقت لاحق.

ح - تحركات المحلة بمنطقة تانسيفت والمدن الساحلية.

كما شكل القائد أحمد بن مالك بمراكش، فرقتان صغيرتان ضد قصبة تنمل - حيث كان يعيش سي عبد الله بن محمد الكندا في الذي لم يكن سوى شخصية عادية - وصغيرة- هزمتا أيضا من لدن أهالي الجبال. وقد أجل السلطان النظر في هذا المشكل إلى وقت إقامته المقبل بالجنوب.

غادرت المحلة فاس إذن مرورا بالرباط وصولا إلى مراكش دون مشاكل تذكر ودون عمليات حربية، كبيرة باستثناء إخضاع بعض الفرق الفوضوية من الرحامنة وأولاد ابن أبي السباع. وعند استقبال السلطان للكندافي اقتنع بأن تلك الاضطرابات ليست سوى منافسة وصراع بين هذا الأخير والقائد أحمد بن مالك أكثر منها تمردا على المخزن. وأمام إعجابه وتقديره لهدايا أهل الجبال قرر أن يكون الكندافي حاكما للسلطان على كل كندافة.

وأثناء إقامته في مراكش، تابع السلطان بجدية وحيوية أكثر إصلاحاته العسكرية حيث عزز مدفعيته ب 22 مدفع جبلي من مختلف الأحجام و 14 رشاشة، وملأ الفراغ في صفوف جنوده، كما طالب بوحدات جديدة للتقوية حتى وصل جنوده في الأوقات العادية إلى 20000 جندي.

وللرجوع إلى فاس (ربيع 1876) عمل السلطان على استدعاء وحدات جديدة من عبدة و دكالة و الرحامنة و الحوز. وبعد جمع أطراف هذه المحلة القوية، قرر المرور عبر المدن

الساحلية، وهكذا زار الجديدة التي تسمونها أنتم مازكان، وتفقد القصبة التي تحرس مداخل البحر، كما أطلقت المدافع بالميناء ثم بعد ذلك أزمور الموجودة على مصب وادي أم الربيع. ثم الدارالبيضاء حيث أعطى السلطان أوامر بتأسيس سرية مدفعية، ومخبئا للموانئ ثم بعد ذلك الرباط حيث أخذنا قسطا من الراحة وكان السلطان قد نزل مدة قصيرة بأكدال، وأخيرا وصلنا فاس عبر سلا و مكناس. وخلال مروره بالمدن الساحلية أكد المخزن أنه قوي فعلا، كما يتضح ذلك من خلال اتخاذ السلطان جميع الاحتياطات لتقوية وسائل الدفاع على الموانئ.

ط - *أحداث بني يزناسن 1876*

وفي هذه الأثناء اندلعت أحداث فوضى من جديد بضواحي وجدة، وهكذا غادرت فرقة حربية فاس بقيادة مولاي عرفة، أخ السلطان، لمساندة باشا وجدة عبد الرحمان بن الشليح الذي وصلت صراعاته مع قائد بني يزناسن البشير بن مسعود إلى جر القبيلة إلى التمرد والعصيان، إلا أن رجال البشير قد هزموا فرقة الشريف مولاي عرفة، حيث نهبوا معسكرا وجرحوا مولاي عرفة في خده. فوصلت أصداء هذا الحادث المفزع إلى فاس، فقلق السلطان جدا من الانهزامات المتتالية ضد البشير هذا، ورفض أن يرى جنوده المهزومين الراجعين المحتمين بضريح مولاي إدريس.

فتم استدعاء باشا وجدة المسؤول الأول عن هذه الهزيمة الذي حضر إلى الحضرة السلطانية مطأطئا، وقال لسيدنا الذي وبخه عن أخطائه القيادية المتنوعة :

ــ كل ما قلتموه، سيدي، صحيح، وأريد لو حلقتم لحيتي (عقابا لي)

ــ لماذا ؟ أجاب السلطان.

ــ لأنه لولاي لما كانت هذه المصيبة. كما أطلب منكم سيدي العفو ومراجعة السجلات لمعرفة مصاريف ونفقات هذه المحلة التعسة.

وبعد مراجعة السجلات وتقويم كل النفقات منذ الانطلاق من فاس.

قيل لعبد الرحمان (بن الشليح)

ــ لقد أنفق أكثر من 50000 دورو مثلا.

وللمحافظة على مكانته، أعطى الباشا ضعف المبلغ. فأنعم عليه بالأمان بالمقابل، وهكذا استطاع القواد والمذنبون مغادرة ضريح مولاي إدريس حيث ظلوا مختبئين خوفا من قطع رؤوسهم، إلا أنهم وضحوا موقفهم بما يلي :

ــــ ليس علينا أي ذنب، سيدنا، فقد سحقنا أمام كثرة أعداد العدو، فلم نكن سوى 8000 ضد 60000 من بني يزناسن !؟ فكيف كنا سنتعامل مع الوضعية. فلم يبق إذن سوى الفرار والإفلات بأرواحنا. وها نحن الآن أمامكم.

فعفى عنهم السلطان لأنه كان يعرف أنهم محاربون أقوياء. ولكن لم يكن من طباع مولاي الحسن أن يبقى هادئا من وقع هزيمته، فقد كان دائما متأهبا وهكذا قرر الخروج الى بني يزناسن رغم فصل الشتاء ومشاكل التموين.

ــــ لا أريد أن أبقى هكذا، في انتظار الصيف، فلتبنوا الفراگ بسرعة في معسكر واد سبو، يقول السلطان.

وكتب إلى كل القبائل بأن تتجمع حول المعسكر الشريف، فانطلقت ليصل إلى الحياينة ثم غياثة الذين لازالوا دائما يشكلون رؤوس الفتنة، حيث استمر إطلاق النار على طول الطريق، وبالوصول الى تازة ازداد إطلاق النيران خاصة من أهالي الجبال المختبئين خلف صخور قوية، مما جعل صبر السلطان ينفذ حتى أنه أراد، وبصفة شخصية، الركوب في «صوگة » الى غياثة، وهكذا انطلق مع أقوى أفواجه ليصل يوم الجمعة الى مكان موحش يسمى « الشقة » (الثقب) لكن الممرات كانت ضيقة جدا، وكنا لا نتقدم إلا بصعوبة كبيرة حول الحواجز الصخرية، تابعين أحيانا ممرات وبطون الأودية. وهكذا اتسعت وانتشرت المحلة على شكل شريط من الرجال والخيول يتقدم بصعوبة وتردد في هذه الأودية الصعبة، وفي مواجهة ضباب كثيف جدا ظل مخيما على المرتفعات منذ الصباح حيث انتشرت بسرعة وبشكل متزايد، وعوض الإنقشاع، بعد مدة قصيرة، كالعادة، فإنه ظل مخيما وكأنه مرسل من السماء، لم يعد ير الرجل أكثر من أمتار قليلة أمامه. لم يقل أحدنا شيئا، لكننا كنا نتساءل فيما بيننا هل هذا الطريق الذي أخذناه طريق جهنم أم لا؟ أما أهل الجبال الذين كانوا يعرفون الممرات والمعابر والمنبسطات فوق الجبال فكانوا يطلقون النيران في الأسفل عشوائيا تقودهم في ذلك أصوات النيران المتصاعدة من الأسفل. وبين الفينة والأخرى كان الجواد يسقط مع فارسه في هوة سحيقة غير متوقعة، ولا يسمع إلا صوت الإنزلاقات التي لا تنقطع. فانتشر بين الناس خبر أن الخيام والأمتعة المحمولة فوق البغال قد اختفت في الأرض التي انشقت تحت أرجلهم. وقد كنا نبحث عن بعضنا البعض، ونتنادى، وكان البعض يجد الآخر كل مرة لأنهم كانوا يدورون في نفس الحلقة دون قدرة على التقدم أماما، وكان البعض الآخر، ودون شجاعة، يختبئ تحت الصخور لتضميد أرجلهم الدامية. وقد قتل هنا رجال وشخصيات سامية حيث قطعت أشلاؤهم في الهوات السحيقة، فليس فقط لم نعد نعرف مصير الوزراء المهمين التائهين والمفقودين في الممرات الضيقة، بل كنا نجهل أيضا مصير مولاي الحسن، وقد ذكر بعض الناس أنهم رأوه ينزل من فوق جواده ثم

اختفى في الضباب. فانتقل هذا الخبر بين الناس، وفي اتجاه معاكس، للفرقة المعسكرة أمام تازة حيث اتجهت وحدات القبائل التي كانت قد ظلت في حراسة المحلة، امتطت جيادها واتجهت في البحث عن السلطان واقتباله خاصة أننا كنا في بلاد العدو.

ومن حسن الحظ، فإن الضباب بدأ في الإنقشاع شيئا ما خلال ساعتين، وبدأ المحاربون يجتمعون من هنا وهناك على شكل جماعات صغيرة فوصلت وحدات القبائل ورجع الأمل من جديد.

وعندما رأتنا وحدات القبائل اتجهت نحونا بعد أن التحق مولاي الحسن بالمعسكر هادئ البال تحت مظلته المنتصبة، وما حدث هو كالتالي فقد وجد القائد محمد بلقاسم الشركي السلطان تحت الصخور حافي القدمين ماسكا بندقية في استعداد للدفاع عن نفسه، فأعطاه فرسه وصاحبا له أمسك باللجام الى أن وصله الى طريق العودة.

وقد كان الرجوع الى المعسكر شاقا، لقد كانت فعلا مصيبة وفوضى، حيث كانت الأفواج تهرب دون قواد وكأن العدو يطاردهم، وفقد الكثير سلاحه وفرسه في هذا الجبل الجهنمي كما تخلف الكثير منهم ولم يرجعوا أبدا .[16]

فجمع مولاي الحسن المنهك من هذه المغامرة، كل القواد الحاضرين وقال لهم :

ــ إن هذه الحادثة المفجعة التي وقعت، وهذه المصيبة مصدرها فقط عدم التنظيم وجهل أفواجكم. أتظنون أن الحرب مهمة سهلة، باستطاعة كل واحد ممارستها منذ الصغر وأن ما عليه سوى المشي أو ركوب فرس ضد العدو ومطاردته وقصفه بالنار !؟ لقد رأيتم اليوم أن جنودكم لا يحسنون قيادة أنفسهم، ولا السير في المناطق الجبلية، ولا ماذا عليهم فعله من أجل إزاحة العدو عن المرتفعات التي يحتلها، فلو كانت المرتفعات ممشطة وتحت يدكم كان سيكون عدد قتلانا أقل، لدي جنود لكنهم لا يعرفون أي قاعدة أو خبرة في القيادة أثناء الحروب. فكل يفعل ما بدا له. لهذا أريد مدربين عسكريين لتمرينهم، وألاحظ جيدا أنكم، وباستثناء بعض الجنود القدماء ذوي الخبرة كبيرة في الحرب، غير أكفاء.

هذا ما قاله الملك، وشرع كل واحد في إجراء حساباته. وللانتقال للمخزن فإن المحلة قامت ببعض «الصوكات » لبلدان غياثة حيث تم إحراق القرى والمحاصيل، لكن لم تجد أحدا. حيث صعد الناس والبهائم الى الجبال، حيث يصعب مهاجمتهم.

هكذا تم كل شيء، ورفعنا المعسكر والمحلة، ثم اتجهنا نحو بني يزناسن للنظر في أمر القائد البشير بن مسعود، الذي هزم، كما تذكر، فرقة مولاي عرفة. وانفصل شريف وزاني يدعى سيدي محمد بن عبد الجبار -فقد كان هناك دائما في المحلة شريفان أو ثلاثة من هذه الأسرة الشريفة المنحدرة من مولاي إدريس نفسه، عبر جد الأسرة الأكبر ومولاي

عبد الله الشريف وكان «لبركتهم» المنتشرة بين الناس تأثيرا قويا على القبائل في علاقتهم مع المخزن - كان مع فرقة وحراس له، لحمل رسالة مولوية مختومة للقائد البشير تنصبه فيها قائدا على كل نواحي بني يزناسن.

وبعد مدة قليلة دخلت المحلة أرضه في ذهول كبير. فعلى طول الطريق التي كان يمر منها السلطان كانت تمتد وحدات البشير على قدر ما تسمح به الرؤية، حيث كانوا مصطفين على طول الطريق على شكل حاجزين غير منتهيين من الرجال والخيالة، مسلحين ومرتدين لباس العيد، ثم تتابعت الأفواج على مسافة تقدر بمسافة ما بين بوزنيقة و القنيطرة [17]. وكانت المحلة تمشي في الوسط كأنها تتحرك فوق زربية مفروشة : وحدات القبائل في المقدمة ثم الشراكة ثم الوداية، ثم المدافع، ثم فيلق، ثم حاملي الأعلام ثم ضباط القصر، ثم السلطان تحت مضلته، ثم البخاريين ثم الشراردة ثم كل من يوجد عادة في مثل هذه المناسبات مر كل هذا، و بنويزناسن ينحنون فوق جيادهم ويقولون :

ـــ الله يبارك في عمر سيدي،

ثم ذوت البنادق فرحا في اهتزاز مذهل.

وفي الأخير، وصلنا الى الخيام التي هيأها القواد، حيث جلسنا لشرب الشاي وبعد ذلك جيء بالأطعمة الكثيرة والمتنوعة، فقد كان هناك ما بين 600 و 700 خروف مشوي، ودجاج كثير عد حصى الوادي والشعير، والقمح في « التلاليس»[18]. ورغم كل ما قدم في هذا الحفل الكبير، فإن مولاي الحسن لازال راغبا في الإنتقام وسجن القائد المنتصر على أفواجه وجنوده، لكنه ظل لا يقول شيئا.

وأثناء الحفل نادى الوزير الأول سي موسى على البشير وقال له بعد أن عين له مكانا شاغرا قرب السلطان، وقال له :

ـــ يمكنك الدخول والبقاء هنا، ولا خوف عليك، أو لست أنت السيد هنا إن سيدنا مسرور من هذا الحفل الذي رحبت به فيه والذي لم يكن ينتظره.

فأخذ البشير مكانه المعين له، فتقدمت أفواج بني يزناسن بالهدية، وسر السلطان من الهدايا المقدمة إليه، وبعد أن غادرت القبائل الحفل وأراد البشير أن ينعم بقسط من الراحة، قيل إن المخزن يريد استقباله وتشريفه ولا يمكن أن يذهب دون إحتفاء به، ثم عين له مكان بين الأعيان في المجلس السلطاني. وعند آذان صلاة العصر ابتدأت الحفلات وقدمت الأطباق المختلفة وعزفت الفرق الموسيقية أعذب الألحان الأندلسية، فانشرحت ملامح البشير، حيث يرد على التحايا والتهاني، كان البشير يشك في أنه سيقبض عليه لكنه أمام هذه الاستقبال والاحتفاء ظن أنه قد عفي عنه وسومح. فانغمس في الالتذاذ بهذه اللحظات السعيدة،

وعندما كان يضحك من المستملحات الكثير بعد الوجبة، ضرب أحد الرجال على كتفه وقال له :

ــ القائد البشير، هناك ثلاثة رجال من بني يزناسن يريدون التحدث إليك فورا. فنهظ ثم خرج مع سي بورمضان فقيهه وأحد أقاربه. ليجد خلف الخيمة ثلاثة حدادة مهمتهم وضع القيود في رجليه، فنظر يمينا وشمالا لكن الجنود المسلحين كانوا يحيطون بهما من كل الجهات، فأيقنا بأنه قضي عليهما، فأعطيت التعليمات بأن يذهب بهما على البغال نحو فاس في حراسة مشددة من 500 فارس بقيادة الشافعي المسكيني، وكان بنو يزناسن ينظرون إليهم مارين ولا يعرفون إلا قائدهم الذي رأوه قبل قليل في خيمة الوزراء قد اعتقل في ساعته وسطهم وأمام أعينهم، وكانت قد أعطيت أوامر للقائد الشافعي أن يقطع رأسي السجينين إذا تعرض لأدنى هجوم.

وفي الغد صباحا طلب أصدقاء البشير رؤيته ظنا منهم أنه في خيمة قائد المشور، لكن لم يجدوه بتاتا. فقيل لهم أنه عند الفقيه، لكن قيل لهم بأن أمرا سلطانيا صدر بجمع وحدات كل القبائل دون الحديث عن القائد المختفي، فعين عليهم قائدا جديدا نسيت اسمه لم يكن محط رضاهم وقبولهم.

وهكذا تمت أحداث المتمرد البشير بن مسعود (أكتوبر 1876).

الهوامش

1- كان الراوي الحاج سالم العبدي : يتبع محلة السلطان صحبة قائد العياشي ووحدة عبدة هذه كانت عادته منذ أن كان طفلا ابن 12 سنة. فقد كان إذن في عين المكان الذي توفي فيه سيدي محمد بمراكش كما صحب السلطان الجديد في تحركاته شمال المملكة.

2- جمع شريف، وهو المنحدر أصلا أو افتراضا من النبي (صلعم) من ابنته فاطمة الزهراء.

3- هذا المعسكر ليس بعيدا عن سور المدينة قرب الطاحونة.

4- كان الحراس الرسميون لقصر فاس مكونين من الشراكة وأولاد جامع، وفي مراكش من الوداية وسوس، وفي مكناس من البخاريين وفي الرباط (قبل 1864 في عهد سيدي محمد) من التواركة ومزيج من سوس والوداية.

5- عبارة عن استطلاع هجومي كبير، بسرعة كبيرة مع هدم بعض القرى وقطع بعض الرؤوس.

6- عبارة عن ثور بقطع عرقوب ساق هدية يقدم رمزا للطاعة والولاء ويساق عادة أمام خيمة.

7- ممون مكلف بالشؤون الإدارية والمالية للمدينة، ورئيس تعاونية مهنية.

8- الحاج محمد بن المدني بنيس.

9- من أبنائه مولاي المهدي خليفة السلطان مولاي يوسف على تطوان توفي في دجنبر 1923.

10- في الواقع هناك اثنان يسميان مولاي إدريس الأول دفين زرهون (788و798 م). العاصمة الأولى للأدارسة وليلي، والثاني بفاس(808 م) ودفينها (808-828 م).

11- محفظة من جلد في محمل الفقهاء، يوضع فيها المصحف، وتسمى عند العامة الدليل.

12- مسكن كبير مكون من غرف فوقية، وإسطبل في الأسفل للبهائم.

13- اسم طلق على الغرف أو المكاتب التي يشتغل بها الوزراء مع كتابهم.

14- حي شمال فاس.

15- خيمة الضيافة، مبنية، خارجة بعض الشيء عن الفراك.

16- وقعت الواقعة في منخفظ واد بوكربة، ويذكر البعض أن الواقعة قد سهلت أمام الإنقطاع المفاجئ للمياه الذي احتفظ عليه غياثة بواسطة سدود.

c. Fi de Foucougl : Reconnaissance au Maroc, P : 34 (Tirage : 1934)

17- أي 70 كلم. ولعل سالم العبدي يبالغ، فيمكن أن يكون لم ير جيدا، أليس من حقنا عذره بعد أحداث الواد الجهنمية !؟

18- عبارة عن أجربة كبيرة مصنوعة من الصوف تجمع فيها الحبوب وتنقل على الحيوانات بعد أن تكون قد وزنت جانباها، لأنه غالبا ما تكون مكونة من جانبيين.

حملات مختلفة (إلى وادي سوس)

(1886-1882)

وبعد ثلاثة أيام عن أحداث بني يزناسن استأنفت المحلة طريقها نحو فاس. حيث توقفت بعض الأيام في وجدة. وكان السلطان قد التقى ببعض الضباط الفرنسيين على الحدود المجاورة، حيث وضع أمام السلطان فوج استعراضي من الجنود (الأجانب) إنبهر به وبإتقان حركات وسرعة إنجاز تداريبه تحت تعليمات رجل واحد في انضباط تام وصمت مطبق. فصاح السلطان :

ـــ هكذا أريد أن تشتغل أفواج جنودي.

فعمد مباشرة بعد الاستعراض، إلى الطلب من ممثل الحكومة الفرنسية أن يمده بمدربين عسكريين لأفواجه النظامية من أجل الإفادة من خبراتهم في فن الحرب. وقد تم هذا الاتفاق في وقت كان فيه بعض الفرنسيين مع رجال المخزن يعملون على رسم وتحديد الحدود بين الجزائر والمغرب. . حيث تمت المفاوضات في جو يسوده تراضي وارتياح الطرفين. بعدها استأنفنا الطريق نحو فاس.

وقد تدارس مستشارو السلطان كثيرا، قرار السلطان بجلب مدربين عسكريين فرنسيين مذكرينه انه سبق أن أرسل بعض المغاربة إلى جبل طارق ليدربهم الإنجليز على المناورات والرماية[1]. ثم إن برجوع هؤلاء الشبان المدربين، سيتمكنون، وبسهولة، تدريب الأفواج المغربية. وبهذا لن يتمكن الأجانب المتمركزين بجوار المغرب من معرفة الحالة العسكرية للبلاد. فندم السلطان على طلبه هذا، محتجا بأنه كان نتيجة لما تعرض له في قضية غياثة. لكنه أضاف بأن الوقت قد فات لسحب موقفه « الملكي » وبأنه سيتدبر الأمور من أجل إبعاد القادمين الجدد عن العواصم، ومركزتهم في الرباط مثلا.

وخلال إقامتنا بعض الوقت في فاس، طلب السلطان باشا فاس الجيلالي بن حمو وقال له :

ـــ أريد بعث محلة استطلاعية لناحية تطوان وطنجة، فبم تنصحني؟ فأجابه الجيلالي :

ـــ الوقت غير مناسب سيدنا. فالأمطار على وشك النزول في فصل الشتاء، والبرد قارس بالجبال مما يجعل عدد أحيائنا قليلا، واعلموا أيضا أنه ستكون هناك اضطرابات في

الوحدات التي ليست متعودة على التحرك في مثل هذه الفصول الصعبة مما سيجعل عددا كبيرا يفر من الجندية. ثم إنه إذا هاجم المخزن جبالة [2]، فإنه سيكون مضطرا للتراجع لهذا الأفضل فصل الربيع أو الصيف من أجل إنجاز هذه العملية.

ـــ حسنا، قال السلطان، أشكرك يمكنك الانصراف.

ثم سارع السلطان، فورا، إلى طلب وحدات من القبائل المخزنية. وهكذا جمع حركات دكالة وعبدة والشاوية والغرب. فلم نكن نرى سوى المحاربين حول باب السكمة. وبعد جمع كل الوحدات ثم نقل المعسكر إلى باب الكيسة الذي يصل، كما يعلم الكل، إلى طريق تطوان. وطلب السلطان من جديد بن حمو وقال له :

ـــ تعلم جيدا، أننا في مشاكل دائمة مع جبالة فهم معارضون رافضون لكل سلطة / حكم. ولا أحكم قبضتي عليهم، ولا تجهل أيضا أن هذه الجهة هي مدخل طنجة بالنسبة لنا. ثم إنه من هناك يمكن أن تأتينا المشاكل مع النصارى. فرغم الطقس المضطرب لابد أن تتحرك محلتنا. وقد طلبت نصحك أنت، لأنه ليس لدينا أي أحد في المخزن يوازيك مرتبة، ثم إنني أعتبرك أحد آبائنا الأكثر حبا عندنا. فقل لي، بصراحة، موقفك من مثل هذه البعثات؟

فأجابه الجيلالي بن حمو :

ـــ أكرر لسيدنا بأن الوقت غير مناسب، ولا أعتقد أن السلطان يمكن أن يقدم، شخصيا، على حملة مثل هذه في الوقت الراهن.

ـــ حسنا، قال السلطان، إذا كنت / تعتقد أنه لا يمكن أن أذهب، شخصيا في هذه الحملة، فإني أكلفك بأن تختار لي من ضمن قوادنا أحدا مقتدرا على إنجاز مثل هذه المهمة.

السلطان أعلم مني.

مادام الأمر كذلك، سأفكر في الأمر.

كانت هذه المحادثة صباحا، وحوالي الساعة الرابعة مساء، جاء مخزني في طلب الجيلالي بن حمو. وبوصوله إلى القصر، أدخل الباشا إلى السلطان الذي قال له :

ـــ لقد فكرت في الأمر ولم أر سوى حلين للمشكلة التي تشغل بالنا. فإما أن أذهب أنا السلطان في الحملة، لكن مادمت لم تستحسن خروجي نظرا لما قد يواجهني من مخاطر. فإني أظن، وهذا هو الحل الثاني، إنك أنت من سيأخذ مكاني.

فانحنى الجيلالي قائلا :

ــ حسنا، سوف أذهب.

وفي اليوم الموالي أخذ باشا فاس، قيادة المحلة. وصل عبر الطريق المعتادة لجبل كبكب إلى جبالة مرورا ببني ورياغل وبني زروال، مسكيلدة، وبني مستارة. . .

لقد كان عدد الجنود مهما، حوالي 15000 رجل بما في ذلك الأفواج النظامية. وكان قد جاءت وحدات القبائل بقوادها الكثيرين ن حيث كنا نرى العباسي وبن عودة من الغرب ومبارك وعبد الله بن الشليح من الشراردة، والشراكة مع ابن الزنزون وبني حسن والخلوط مع العواد والعربي لكحل والحاج عبد القادر بن خذة، وبني مطير مع رحو ولدمامة، وكروان مع رحو ولدرابح، وآيت يوسي مع محمد أطالب ن وغرب سايس مع ولد الحمرة، والحياينة مع أربعة قواد نسيت إسمهم، لايهم.

فوصل الجميع إلى أطراف ورغة وسط القبائل المتمردة. فكنا نعسكر ونتراجع بعض الشيء ونتبادل طلقات الرصاص وكان سكان الجبال الذين أدركوا أنهم لن يستطيعوا الصمود أمام هذه الجحافل التي تحتل أحواضهم قد قرروا الاستسلام والخضوع، ثم أصبحوا يعطوا النقود المطلوبة منهم، والقطعان (أبقار، أغنام)، والخيول والبغال. ولاأظنَ أنه كان هناك قتلى ولا رؤوس مقطوعة. وعندما ثم هذا الإخضاع بعثت الغنائم والضرائب تحت الحراسة إلى المخزن. مع طلب التعليمات من مولاي الحسن الذي كتب إلى الجيلالي بن حمو قائلا :

« أترك الآن الجبال في هدوء، واحمل معسكرك إلى أهالي فحص ناحية طنجة حيث أعلمت أن الطرق مقطوعة، وأنَ القوافل لم تعد تستطيع التحرك بين شمال وجنوب مملكتنا. »

فانطلقت المحلة نحو فحص، وأرجعت الأمور إلى نصابها، واستطاعت، القوافل التي كانت تنتظر أن تتحرك في كلا الاتجاهين. وعندما علم السلطان بالخبر، كتب إلى قائد المحلة مهنئا بالنجاح التام، الذي كللت به العمليات المنجزة والتي تمت دون إراقة أي نقطة من دم المسلمين، وأنه لم يكن ينتظر منه أن يكون بهذه الحصافة والتجربة. ولمكافأته عن الخدمات الجليلة التي أسداها للعرش عينه باشا على طنجة، وخليفة سلطان على كل هذه الناحية.

لم يكن إلحاح السلطان على إلحاق الجيلالي بن حمو بطنجة إلا خطة من السلطان من أجل إبعاده عن فاس، بإيعاز من سي أحمد بن موسى ابن الوزير « الأول » الذي كان يحضى باحترام كل أعيان المدينة.

وأنهى السلطان رسالة التولية (لابن حمو) بقوله :

« لا تنسى أن بطنجة وزراء القوات الأوروبية، الذين لهم مكانة قوية، ويستطيعون التقريب بين دولنا وقد فوضنا لك الأمر في التفاوض بشأن مصالحنا، بتعقل و رزانة. ومن أجل هذا منحناك منصب ثقتنا هذا! ».

واستطاع السلطان بهذه العملية الذكية، أن يبعد شخصية بدأت ملامح « خطورتها » تظهر في فاس، ويحلها بطنجة، محل الباشا الفعلي سي أحمد بركاش، أب سي عبد الرحمان بركاش (الذي كان باشا الرباط)، الذي كان يؤاخذه عن كثرة موالاته للإنجليز بإعطائهم امتيازات في إنشاء المقاولات بطنجة.

وهكذا أصبحت مهمة الجيلالي بن حمو مراقبة بركاش. ثم رجعت المحلة إلى فاس بعد أن استخلصت الضرائب من قبائل المنطقة.

استدعى السلطان إلى القصر أعيان المدينة بما فيهم خليفة الباشا المسمى أحمد الرايس الذي كان ينوب عنه في غيابه وقال لهم :

ـــ إن الباشا الجديد الذي عينته عليكم هو سي عبد الله بن أحمد إبن أخ وزيري سي موسى. وهذا هو خليفته مشيرا إلى الرايس. ثم إن وزيرنا في الحرب هو سي العربي الجامعي بدل سي عبد الله.

« علي أن أخبرك أن أم مولاي الحسن هي أخت سي محمد الجامعي. وقد كان مولاي الحسن يحترم أمه كثيرا، بل كان يمدها بالرسائل التي يعطيها إياه الوزير الأول الحاجب سي موسى ».

مراجعة نظام الجند

وبعد مرور مدة وجيزة عن هذه الأحداث (ربيع 1878)، رجعت المحلة مع السلطان وكل المخزن إلى مراكش عبر الطريق المعتادة (مكناس، الرباط) وفي نهاية هذه الرحلة توفي سي موسى فأصبح محمد بن العربي الجامعي وزيرا أولا وحل محله في منصب العلاف أو وزير الحرب أخوه سي محمد الصغير، وهكذا بدأ نفوذ الجامعيين يتسرب إلى المخزن.

وقد أقام السلطان سنة بمراكش مع حاشيته. وقد كانت هذه الفترة سيئة لانتشار المجاعة. حيث مات عدد كبير من الأفراد والقبائل من الجوع والحمى.

ولم يكف السلطان عن مراقبة تقدم جيشه. حيث كثر الحديث في هذه الفترة عن طابور أو فوج «الحرابة» بقيادة ضابط صف إنجليزي هارب من الجندية من جبل طارق يسمى : هاري ماك لان Harry Mac -Lean يشرف على تكوين محلي لمدربين كانوا يبعثون فيما مضى إلى مدارس. وإلى جبال طارق نفسه. وقد كون هذا الفيلق من رجال مختارين

من مختلف القبائل، يرتدون بذلة حمراء، وسراويل فضفاضة من نفس اللون، وعمائم بيضاء حول الشاشيات، وجوارب بيضاء وأحذية غليظة، أما سلاحهم فكان لكل جندي بندقية إنجليزية أو بلجيكية أو إسبانية ، وحربة معلقة إلى نجاد أبيض عريض مع كنانة. وقد كانت الأطر مكونة من قبل أفراد التجريدة المكونة بجبل طارق. أما الضباط السامون فكانوا يحملون مثل رتب الإنجليز. ويتمتعون بتغذية جيدة، أو يتقاضون رواتبهم بشكل منتظم، بفضل تأثير قائدهم ماكلان الذي كانت بذلته تشبه تقريبا بذلهم، لكن مزينة بخيوط ذهبية على الطريقة التركية، وقد كان مولاي الحسن معجبا بهذا الفيلق حيث يتابع نشاطه وتطوره بقيادة ماكلان بأهمية كبيرة. وسيجعله في مرحلة لاحقة حرسه الخاص.

وبعد مدة وجيزة من ذلك، رغب السلطان في خيالة مدربين بنفس الطريقة فجمع 800 من الرماة يرتدون نفس البذلة. لكن عاريي السيقان، وببلاغي (أحذية دون كعب) مسلحين ببنادق Martini Henry، وبسيف مغربي، وأحيانا بخنجر. وقد تم استقدام إنجليزي يسمى major Ogilvy لتدريبهم.

أما المدربين الفرنسيين الذين طلبهم مولاي الحسن فجاؤوا متأخرين، وأعطيتهم مهام أقل أهمية، بتدريب المدفعيين في الرباط. وطلبهم السلطان إلى جانبه، حيث أولى أهمية أكبر للمدفعية الذي يعتبر الفرنسيين ذوي خبرة فيه، (القبطان Erckman) وكان السلطان يولي أهمية كبرى لجيشه في الجنوب كان أم في الشمال من مملكته حيث يتعهده بالصيانة والتغذية والتسلح والمؤونة. وقد حير مولاي الحسن بنشاطه العارفين حتى إنهم قالوا : إن على رأس المغرب مولاي اسماعيل جديدا أحد أكبر سلاطيننا الماضيين.

حملات إلى تادلة

ورغم الحصيلة الفلاحية السيئة فإن السلطان تحرك بالمحلة في فصل الربيع (3ماي 1879) عبر السراغنة وانتيفة لإخضاع قبائل أيت عتاب الموجودين على ضفتي واد العبيد، وكذا جيرانهم بني موسى بمنطقة دار ولد زيدوح وقصبة بني ملال. وبعد إخضاع هذه القبائل اتجه الملك ووزراؤه نحو مكناس. وفي الطريق كانت المحلة تتدخل، كالمعتاد، ضد بني مطير الذين يخضعون دائما كل مرة كان فيها المخزن موجودا على أراضيهم، ويتمردون بمجرد مغادرته لهم. وقد تمت محاصرة الفوضويين في أكوراي والحاجب وأرغموا على الخضوع وتسليم الرهائن التي سيضمنون بها خضوع القبيلة، وتأدية الضرائب المتأخرة، ومبلغا كبيرا تعويضا عن مصاريف الحرب. لكن كان هؤلاء البرابر أكثر تعطشا للإستقلال. فرغم العقوبات الأكثر وقعا التي سحقتهم فإنهم كانوا يعودون دائما للتمرد. حتى إنه أصبح التردد على بني مطير، سنويا، شيئا ضروريا للمخزن.

وقد مكث السلطان في مكناس ستة أشهر تقريبا. وأثناء إقامته هذه حتى مرض السلطان مرضا شديدا إن خبر وفاته انتشر كثيرا، مما دفع بكثير من القبائل الى التحرك والتمرد (يناير 1880).

وبعد شفائه وصل مولاي الحسن إلى فاس. حيث سيقيم أكثر من سنة. عاملا بين الوقت والآخر على بعث أفواجه لمختلف القبائل التي لم تؤد ضرائبها للمخزن. فبعثت حركة لكلاعة في الريف، مع مولاي الأمين، ثم ثانية لجبالة بضواحي وزان. وفي الأخير ثم تأديب آيت يوسي. وباستثناء، هذه العمليات الصغيرة التي كانت ضرورية والتي لم تكن دائما دامية، فإنه لم تكن هناك أشياء مهمة كالحروب مثلا. حيث لم يخرج الفراگ، وكانت البلاد في هدوء وسرور. وفي ربيع السنة الموالية (1881)، اتجه السلطان نحو مراكش. حيث ستحل محلته عند زمور ثم عند زعير التي اجتاحها، منحدرا نحو الشاوية، معرجا على تادلة التي خضعت قبائلها البربرية [3]. كما استقبلت قبائل زيان أحد القواد مع قوات من أفواج المخزن، والتي ستكون نواة قوة موحا أحمو المشهور [4]. وهكذا دخلت المحلة المنتصرة مراكش حيث ستقضي أربعة أشهر الشتاء.

حملات الى سوس

وفي الربيع الموالي (1882) كان على السلطان أن يتدخل في سوس لأسباب مختلفة لا أفهمها جيدا. لكن يبدو أن الإسبانيين عقب انتصارهم على سيدي محمد (بن عبد الرحمان) كانوا قد أسسو ميناء في آيت باعمران ناحية سيدي إفني. وكان الناس يتعاملون معهم كما أنه ليس للمغرب سلطانا.

وهكذا عبرت المحلة الحوز مرورا بقصبة امينتانوت وبلاد حاحة لتصل إلى أكادير حيث يوجد قائد للمخزن ثم انطلقت بعد ذلك من أكادير عبر ضفاف وادي سوس ثم دار الحاج العربي ثم تكاديرت ثم أولاد اسعيد لتصل إلى تارودانت (يونيو 1882)، البلاد هنا هادئة وفقيرة. فقد كانت المحاصيل الفلاحية هزيلة جدا سنتين متواليتين نظرا لقلة المياه وعبرنا المنطقة دون إطلاق ولو رصاصة واحدة، ولم يعرقل عبورنا أحد، وقد عمت المجاعة الجهة كلها، حتى إن السلطان اكترى بواخر لنقل الحبوب الى أكادير لمؤونة هذه الأعداد الهائلة من الرجال والخيول. وقد كانت تأتي هذه الحبوب من الجديدة (مزكان) والدار البيضاء مما كلف مولاي الحسن أموالا كثيرة جعلته يقرر شراء سفينة للمخزن سماها : الحسني. جيدة الصنع وأكبر بعض الشيء من فرقاطة.

وقد كان الطقس حارا. حيث عانينا كثيرا من مخاطر الثعابين الطويلة والقصيرة الموجودة بالمنطقة خاصة بغابة أدميم، التي منها يأخذ مروضوا الأفاعي بعضها لساحة

جامع الفنا (مراكش). فلم يكن يمر أي يوم دون أن تصاب 10 أو 20 بغلة. ونجا العديد من الرجال من هذه السموم. كل هذا يقع كما قلت لك، والمؤونة نادرة والحرارة مفرطة.

وكانت الآفاعي السامة أكثر خطورة من الرصاص مما جعل أوضاع المحلة غير مستقرة. ورغبة منه في معرفة موقع لتشييد ميناء للمخزن، فإن السلطان غادر تارودانت (2 يوليوز) عابرا واد سوس عبر هوارة وشتوكة ليصل الى ماسة أغبالوا على واد ماسة. ثم الى أكلو حيث كان على البواخر إنزال الحبوب الضرورية للمحلة. لكن أحوال الطقس المضطربة لم تكن تسمح لنا بإنزال ما يكفي لتهييء ولو خبزة واحدة. وكان ممكنا أن ترسو هذه السفن بماسة أو أكادير، وشرعت القوافل في تزويدنا منها بالحبوب، لكن أعداد ا كثيرة من الجنود فرت من أجل الحصول على « الخبز». وفي ظل هذه الظروف أصبح السلطان يفكر مليا في الرجوع. وقد كان السلطان، في هذه المدة، يتفاوض مع شريف تازروالت محماد أهاشم، الذي كان له نفوذ كبير على كل سوس الأدنى، من أجل الحصول على موقع مناسب لتشييد ميناء بالمنطقة. وقد كان السلطان بإجرائه هذا، يفكر في تحويل الأنشطة الإقتصادية إلى هذه المنطقة، حتى لايكون مضطرا إلى استيلاف الميناء الإسباني، أو جهة من الشاطيء حيث تمركز الأنجليز دون ترخيص بذلك :

(مؤسسة Mackeusie بطرفاية، و Cap -juby) ويبدو أن مصب واد أساكا كان أفضل موقع لذلك. ثم بعث من أكلو فوجان من الجنود نزلا عبر بلاد أيت باعمران. الأول لإخبار الإنجليز بضرورة مغادرة إدارتهم. والثاني بقيادة مولاي الأمين من أجل تأسيس الميناء الجديد. وعندما رجعت هاتان البعثتان، كان السلطان مستعجلا للرجوع، خاصة أن المؤونة قد قلت والحرارة شديدة، حتى إنه لم نكن نتحرك إلا ليلا. وصلنا مراكش عبر أكادير وبلاد حاحا، منهكين جدا (10 غشت 1882). وكان السلطان قد ترك في عين المكان طابور البخاريين بقيادة العربي بن حمو معسكرا في قصبة آيت باعمران، التي شيدت في موقع غير بعيد من البحر على الطريق المارة من أكلو الى إفني. كما أعطى الأوامر لبناء، قصبة تزينت على بعد 20 كلم من الساحل، حيث توجد عيون الماء والآراضي الخصبة.

وفي طريق العودة. ولد مولاي عبد العزيز،[5] مما كان مناسبة لأفراح كبيرة عرفتها مراكش حيث كان الكل مسرورا. ورغم هذا فإن هذه الحملة لم تعط ماكان ينتظر منها مولاي الحسن.

وكان شريف تازروالت : محماد أهاشم حفيد سيدي احماد أموسى صاحب زاوية في الجبل قرب تزنيت، لم يعلن الطاعة بعد، هو وعدد كبير من أتباعه وكذا القبائل المجاورة التي يرأسها، حيث كانوا يبحثون عن التمرد ضد الإدارات العسكرية التي أسسها وركزها مولاي الحسن. وقد كان تأثير شيخ الزاوية أقوى من تأثير السلطان، ثم إن غلاء وصعوبة

وصول المؤونة إلى المحلة لم يمكن المخزن من الإقامة مدة أطول في هذه الجهات دون حصاد خسائر أكبر.

لكن تقدم الأشغال بقصبة تزنيت أظهرت للجميع أن عين مولاي الحسن ساهرة على سلامة هذه الجهات. ورغم تلك المشاكل فإننا كنا نحتفل في هذه الحملة ونعتبرها انتصارا خاصة أنها عرفت ولادة مولاي عبد العزيز. ابن لالة رقية وهي شركسية مفضلة عند السلطان. حيث عمت الأفراح وانتشرت الحفلات التي حدثتك عنها. وعندما انتهت الأمور كلها كما يجب، أخذت الأفواج العسكرية عطلة كاملة. وبحلول فصل الشتاء استمرت عملية ترميم الصفوف. وبحلول فصل الربيع (20 ماي1883) غادر السلطان والمخزن مراكش.

وهكذا مررنا بالطريق التي تعجب مولاي الحسن الآن، عبر تادلة حيث جاء آلاف الفرسان الزيانيين للسلام على السلطان، لكن كان على المحلة وهي تعبر بلاد « السماعلة » أن تخوض معارك ضد هؤلاء البرابر المحتمين في قصباتهم. فحسمت المدفعية الموقف لكن تركنا في الساحة أكثر من 500 جثة بالمقابل. وقد كان هؤلاء البرابر الذين يحمون نساءهم وأطفالهم وقطعانهم يستغلون مجيء الليل للخروج من القصبة في اتجاه الجبال.

وقمنا بعد ذلك بغارة لبلاد زعير وفي شهر ثم وصلنا إلى مكناس (أكتوبر 1883) حيث قضينا فصل الشتاء.

وفي فصل الربيع، انطلقنا نحو فاس عبر بني مطير، واستغللنا فرصة المرور بهذه الطريق لنحاربهم كما جرت العادة بذلك، وقد كان السلطان يرغب هذه المرة في محاصرتهم بمحلته كسمكة في شبكة، لأنه منذ أن تظهر أفواج جيوش المخزن على أراضيهم إلا ويتفرقوا بسرعة كفراخ الحجل. لقد كان مولاي الحسن يريد القضاء عليهم تدريجيا، خاصة أنه لم تكن هناك فعلا حفلات هذه السنة تجعلهم يقدمون إلى المخزن ليأسر منهم 100 إلى 200 سجين.

وكان السلطان قد عين عليهم هذه المرة قوادا أقوياء لإخضاعهم والحد من تمرداتهم المستمرة. فعين ولد مامة على أيت بوعثمان، وشابون على آيت غزالة، وولد تاراغت على آيت نامان. وكان السلطان عازما على سجن هاؤلاء الحمقى حين مجيئهم الضروري لتقديم إحدى الهدايا.

وكان السلطان قد أقام، بعد ذلك، قرابة أكثر من سنة في فاس. ثم رجع إلى مراكش في غضون سنة 1885) وقرر إرسال حملة ثانية إلى سوس. لأن العرب المعقليين قد تمردوا، ثم إن الأنجليز شيدوا بنايات تجارية على ساحل طرفاية وأركسيس، مما قد يزاحم

نشاط ميناته بأساكا. وقد كان هؤلاء الأنجليز (ماكنزي بطرفاية، وكورطيس بأركسيس) يتعاملون في التجارة والمبادلات مع شيوخ المنطقة بمباركة وموافقة شريف تازروالت. وقد كانت هذه المحلة أكثر نجاحا من الأولى. حيث بعث « أمناء » وممونين يعرفون المنطقة جيدا، ولا حظوا أنه يمكن أن تصل المؤن بسهولة أكثر وأضمن. وكانت جميع مخازن سوس مملوءة بالحبوب ثم إن تزنيت ذات الأبواب الستة محروسة أكثر فأكثر من قبل سبعة طوابير(المشاة)).

وهكذا إذن غادرت المحلة مع السلطان مراكش لتصل إلى تزنيت (1886) وانطلاقا منها نظمت فرقتان للاغارة على آيت باعمران. الأولى سوف تمر عبر الخط الساحلي لحراسة الخيام والنساء والموكب. والثانية من الداخل بقيادة مولاي الحسن ليلتقيا معا في أركسيس. كما قامت تجريدة من الجنود على الجمال، بقيادة سي علال المسفيوي والقائد مبارك بن الشليح بهدم كل بنايات ومحطات الأوربين التجارية. ولم يكن هناك أي رد فعل من الأجانب الذين فروا في اتجاه بواخرهم التي كانت تنتظرهم في البحر. ثم نزلنا بعد ذلك بوادي نون حيث فعلنا الشيء نفسه بالنسبة للمراكز السابقة لطرفاية. فلم نجد أمامنا أي أوروبي، ولم تكن هناك أي مواجهات أو قتلى أو على الأقل فيما أعلم، وقد كان لميناء أساكا اهمية خاصة حيث تمركز به المخزن لتمر المبادلات التجارية في أحسن الأحوال دون وساطة الإسبان المجاورين. أما بالنسبة للانجليز الذين طردناهم فقد وضعوا في الميناء لتعويض خسائرهم التي لحقت بهم أثناء الهجوم، كما أخضعت أيضا تلك القبائل المتمردة بعد تراجع شريف تازروالت وإجلاء المخزن للأنجليز، وتدمير منشآتهم وقوة ميناثنا الجديد اساكا. كل هذه الأحداث جعلت المخزن يتقدم نحو وادي نون ليدخل گلميم في استقبال كبير. ثم رجع بعد ذلك إلى تزنيت، وليزور مسجد ماسة ثم بلاد شتوكة الخاضعة لقبائل هوارة (تارودانت) ثم واد سوس، ثم ليحارب إدا أوتنان خاصة. ليدخل في الأخير إلى متوكة.

استقبال المتوكي للسلطان

لقد كان مولاي الحسن يفكر في سجن قائد المنطقة الحاج مسعود الذي بدأت أهمية تتنامى بشكل بارز. وبوصولنا إلى دار القائد المتوكي فوجئنا، باستقبال كبير مدهش كثيرا. لقد كان مقامنا في هذه القصبة كله أفراح وحفلات لاتنسى. وعندما جاءت القبيلة بالهدية في اليوم الموالي، لاحظنا، ضمن أشياء أخرى، صفا من الرجال مرتدين ثيابا بيضاء، مصطفين على قرب 800 متر يحملون على ظهورهم أكياسا ثقيلة من « الدوروات، بالإضافة إلى تقديمهم 10 أو 15 بغلة جيدة، وقوية صلبة مثل الجدران. و 25 إلى 30 فرس جميل وقوي. مزينين كلهم بالذهب والفضة، حتى إن كل واحد منها يساوي مئات الدوروات بالإضافة إلى الأثواب والزرابي. . . ثم تقدمت بعد ذلك عائلة المتوكي بهدية خاصة، حيث كنا نرى خيولا أكثر رشاقة، وأكياسا مليئة بالقطع الذهبية.

وكان الحاجب، الداهية، باحماد ابن سي موسى الذي ورث عن أبيه هذه المهمة، يجامل الحاج مسعود، والذي قال له في تواضع واتزان :

ـــ كل ما رأيت ليس شيئا ذال بال، فأنا مسرور وفخور فقط، بهذا التشريف الذي تفضل به علي السلطان والذي شرفني بقدومه إلى منزلي، وهذا بالنسبة لي ولأهلي حدث تاريخي لاينسى. فالآن يمكن لي أن أموت أو أسجن لايهم، إنها قمة السعادة عندما متعني الله بفرحة استقبال سيدنا بداري.

ـــ إن كلامك حلو كالعسل، فالسلطان يشكر لك تصرفك وكلامك الجميل قل لي الآن ما طلباتك؟

ـــ معروف صغير أوده منك، أن تطلب من السلطان موافقته بإمكان زيارة أهل بيتي لنساء السلطان وتقديم الهدايا.

فأعطيه مأأراد بسرعة. وعند مغيب الشمس شرعت نساء المتوكي في الذهاب عند نساء السلطان اللواتي تنتضرهن مزينات بالحلي داخل الخيام في الفراك. فجاءت الزائرات راجلات دون حراسة، ودون ثياب جميلة كما نجد عند « الشلوح« لكن كانت تحمل كل واحدة منهن على ظهرها، جلد جدي مذبوغ محشو بالذهب وهكذا دخلت عند المرأة المفضلة عند السلطان للا رقية أم مولاي عبد العزيز، التي استقبلتهم بحفاوة، ثم وضعن هداياهن المقبولة. لقد كان عدد نساء المتوكي يتراوح ما بين 25و30 . وكان مع مولاي الحسن 40 امرأة حركة.

وكان السلطان الذي رأى وسمع كل هذه الأشياء، قد وصل به الاندهاش أقصاه. وقال لحاجبه باحماد :

ـــ إن هذا المتوكي لا يستحق أن يسجن. لقد كنت أريد القبض عليه لأنه متمرد دائما، حتى إنني وأنا في مراكش، فإنه كان يهجم على أولاد إبن أبي السباع ومزوضة والشياظمة، وحاحة. ويدمر منازل قوادي وينهب الذهب والعبيد ويذبح الأغنام. لكن رغم كل هذا، انظر كيف يستقبلنا، وانظر إلى أملاكه الكثيرة وممتلكاته الثمينة، وأراضيه ذات القيمةالكبيرة. وفي الحقيقة لايجب اعتباره عدوا للمخزن بل دعامة له. فعلينا تركه في أمان، ونستقبل قبيلتة دائما بارتياح أكبر. وعلينا نحن الآن أن نقوم بدورنا بحفلات كبيرة يحس بها المتوكي أنه صديق لنا. فأقيمت الحفلات ورقصت الرقصات وسمعت الموسيقى، وقدمت الأطعمة الكثيرة. ثم رجعنا بعد ذلك إلى مراكش حيث سنقيم بعض الوقت.

ونظم السلطان، انطلاقا من هنا (مراكش) صوكة إلى السماعلة بتادلة، ليصل إلى مكناس، ويحارب بني مطير حيث سجن قوادهم و400 محاربيهم ، وبعد تعيين قواد جددعليهم، وصل المخزن إلى مكناس، ومنها إلى فاس.

ووجدنا في ساحة المشور « المكينة» تشتغل تحت إدارة الإيطالي Campini كامبيني حيث تصنع هنا، كما قلت لك سابقا، البنادق والمدافع من العيار الصغير والقطع النقدية. لكن رغم اشتغال الآلة طول النهار فإنها لم تكن تعطي أسلحة أكثر للمحاربين. وكان مولاي الحسين يولي اهتماما كبيرا لهذه الصناعة.

وفي السنة الموالية (ربيع 1888) أقام مولاي الحسن من جديد بمراكش. حيث كانت هنا عمليات ضد نتيفة، وبني مكليد وأهالي جبل فزاز.

وفي هذه السنة تزوج مولاي امحمد الإبن البكر للسلطان بمراكش، وعين خليفة على المنطقة، محل مولاي عثمان الذي بعث مع المحلة لمحاربة تادلة.

لقد كان لمولاي الحسن عدة إخوة أعطاهم مراكز مهمة. فبالإضافة إلى مولاي عثمان هذا الذي كان. ولمدة طويلة، خليفة على مراكش، كان هناك مولاي الأمين ومولاي عرفة الذي كان مختصا في العمليات الحربية والذي كان يذهب أحيانا مع المحلات ومولاي رشيد الذي كان عاملا على تافيلالت، ومولاي إسماعيل الذي كان عالما مثقفا محترما جدا.

وبعد هذه الأحداث رجع السلطان إلى فاس، حيث قرر زيارة شمال مملكته، وهكذا عبر جبال غمارة وزار الشاون وجبل العلم وتطوان وطنجة واصيلا، وفحص الريحان وواد المخازن والعرائش (حيث عمل على تقوية أسوارها) والقصر الكبير، و حد كورت وواد سبو، وبني احسن، وواد الردم، ومكناس وواد النجا ثم فاس.

أحداث آيت سخمان

وبعد إقامة بعض الأيام في هذه العاصمة قرر الرجوع إلى مراكش (وهكذا ترى أنه دائما على صهوة جواده) مرورا من جديد ببني مكليدة حيث وصلنا دون مشاكل إلى خنيفرة، عند موحى أحموا الزياني الذي شيد قصبات قوية بالطين الأحمر، ويمكن أن يصفف في السهل 18000 فارس مسلح ومستعد للحرب. لقد كان دائما في مطاردة آيت سخمان المتمردين والمعتصمين بالجبال، وكان السلطان قد ناقش مع موحى إمكانية بعث حركة من أجل مباغتتهم وإخضاعهم، وهكذا كلف مولاي سرور بن مولاي سليمان بهذه المهمة، حيث وصل مع وحدته إلى الجبل، ولم يرجع أي واحد منهم سوى مولاي سرور المكلف والحاج أحمد الخمار الذي يظن أن له يدا مع آيت شخمان، ليحكي في المعسكر كيف مرت العملية :

عندما وصلت حركة المخزن إلى الجبل وعسكرت بالقرب من المتمردين ن جاءت بعثة من أشراف القبيلة « بشيران التركيبة» قائلين بأنهم مستعدون للخضوع والطاعة وأنهم لايرفضون لامؤونة المخزن ولا ضرائبه، وأنهم مستعدون لأن يستضيف كل واحد منهم 10 إلى 20

جنديا من الوحدة. وهكذا احتفلوا برجال الوحدة، الذين لم يسبق لهم أن كانوا في الجبل في جو عائلي. وذكر الخمار المستشار بدور الضيافة من الجانب الديني وبأنها شيء محبوب في سائر بلاد الاسلام. وبعد ذلك جاء الناس لمرافقة ضيوفهم الى المنازل، ولم يبق في المعسكر سوى حرس رمزي مع مولاي سرور وأحمد الخمار. وعند غروب الشمس سمعنا طلقات نارية، ثم خرج أحمد في هذه الأثناء من خيمة الشريف للوضوء. ولم تكن تلك الطلقات في الواقع الى مؤشرا على بداية المذبحة، حيث كانت تقطع أعناق الضيوف المجردين من الأسلحة التي تركوها عن حسن نية، خارج المنازل. وبعد مرور دقائق عن سماع هذه الطلقات لم يبق أي شيئ من الأفواج المخزنية فرجع أحمد الخمار إلى الخيمة بعد أن سمع ضجيج مواجهة الجنود لآيت سخمان الذين قتلوا الحراس، وتفاوضوا فيما بينهم في الحصول على رأس الشريف. الذي فر به بسرعة مرعوبا ليلا ليوصل خبر المصيبة الكبرى إلى معسكر خنيفرة.

وبعث على الفور عدة « مخازنية » لإعلام السلطان الذي كان موجودا في حركة ببلاد بني مكليد. وكان موحى أحمو قد جهز 3000 فارس، وتحرك دون أن ينتظر السلطان، في اتجاه تلك المناطق لكن بمجرد وصوله إلى عين المكان، أدرك أنه لم يعد هناك أي شيء يمكن القيام به، فلم يبق هناك أي أحد على قيد الحياة، ثم إن قبائل آيت سخمان كانت قد تفرقت كما تتفرق الغربان بعد نهشها جثة ما. وكتب الزياني الذي كان رجل الأمور بهذه الطريقة ومسؤولية هذه المأساة يتحملها السلطان نفسه الذي أرسل هذه الفرقة، رغم معارضة الزياني، عند هاؤلاء، الثعالب المتوحشين والذين يعرفهم جيدا. وبالتالي لم يكن عليه مسهم. وبالفعل، انطلق موحى أحمو الى أيت يعقوب أعيسى إحدى فخدات آيت سخمان، فنهبهم وأخذ منهم الأسرى. وكان السلطان الذي طالما عانى من نذالة وجبن آيت سخمان قد بعث قسما من المحلة لتقوية الزياني أيام، لينطلق إلى فاس حيث سيعدم الأسرى ويعلق رؤوسهم المقطوعة على باب محروق.

آخر المحلات

(وفاة مولاي الحسن 6 يونيو 1894)

كان السلطان قد أقام مدة طويلة بفاس. حيث ظل منشغلا بترميم جيشه، وضم الوحدات وتهيء أسلحته ومؤنه. وطلب البنادق من أوروبا لأن المكينة لم تعد تستطيع صنع سوى خمس بنادق في اليوم.

وكان قد بعثت حركة إلى تادلة ضد أيت أربيع، و إلى الحوز. لكن السلطان لازال لم ينس آيت شخمان، وقرر القيام بعملية كبيرة ضدهم. فكلف وزير الحرب سي محمد الصغير، وكبير مدربي المدفعية مولاي أحمد الصويري مع أفواج الگيش ووحدات قبائل تادلة. وتردد في البداية على آيت مراح، جيران آيت سخمان، الذين كانوا يحاربون ضمن الصفوف المخزنية، ثم جروا معهم قسما من وحدات تادلة. بينما كان آيت سخمان الذين هيئوا هذه المسرحية يهاجمون، فانهزمت المحلة وعنفت من جديد وتركت عدة قتلى وجرحى لتتراجع وتدخل فاس دون أن تستطيع إخضاع هاؤلاء الجن أهالي الجبال (1892).

وصرح مولاي الحسن الغاضب عنهم أنه سيسحقهم فورا. لكن عليه الآن الذهاب إلى تافيلالت موطن أجداده وسلالته. فأعاد تنظيم محلته حيث وصل عدد أفرادها 15000 رجل، مسلحين ومجهزين بكل شيء. وعندما اجتمع الكل على قنطرة سبو اتجه السلطان والمخزن نحو الجنوب عبر صفرو ثم تاغزوت كيكو ثم انجيل آيت يوسي، ثم قصبة المخزن على واد ملوية ثم تيزي نتالغمت ثم زاوية وكيلة ثم واد زيز ثم قصر السوق ثم بوعام ثم قصبة مولاي رشيد خليفة تافيلالت، لقد جاء السلطان لزيارة قبر جده الأكبر علي الشريف[6]. وبعد مرور عدة ايام التحق به إبنه الأكبر مولاي امحمد خليفة مراكش مع وحدات الجنوب التي انطلقت معه كلاوة ودادس وإيمطر وتودغة.

وقد كان هذا السفر ناجحا، حيث أظهر مدى ولاء الناس للسلطان في هذه المناطق النائية، التي لم نر منها أي تمرد. وهكذا خصصت كل قبائل الجهة استقبالا كبيرا للسلطان. كما عززت المحلة بمحاربيهم آيت إيغلمان وآيت عطا وآيت موغراد وآيت قباش، وآيت إزدك. لقد كانت هذه الزيارة فعلا سلسلة من الأفراح.

وخلال الرجوع، اجتمعت المحلتان لترجع عبر الطريق التي جاء منها مولاي امحمد، لكن كان الفصل شتاء (نونبر 1893) وكان البرد قارسا، حتى إن بعض المشاة قد انغرست أقدامهم في أوحال بلاد كلاوة.

ومباشرة بعد الوصول إلى مراكش نزع مولاي الحسن من مولاي امحمد منصبه، ومهام الخليفة وموظفيه، وخيوله وعبيده مؤاخذا إياه عن أخطاء جسيمة في تسيير العمليات الحربية وفتور في القيام بالشعائر الدينية. وأعطاه دار مولاي الزين إقامة له، وعين له فقيها يعنى بشؤونه. وقد كان الابن الأصغر مولاي عبد العزيز محط اهتمام وعناية كبيرين، لكنه لازال طفلا لا يستطيع ممارسة مهام الخليفة. وتم تعيين أخيه مولاي عثمان خليفة على مراكش من جديد.

وخلال هذه الفترة (دجنبر 1895) كان قد وصل سفير إسباني إلى مراكش[7] : فقد كانت هناك مواجهات في مليلية بين الإسبان وأهل الريف عندما كان السلطان في تافيلالت إذ كان أهل الريف منزعجين من بنايات النصارى قرب أضرحة أوليائهم حيث كانوا يهدمونها ويعيدون بناء ها مدعين السلطان أعطاهم الحق في التصرف في هذه الأراضي.

وكان السلطان قد وافق على دفع أربعة ملايين دورو من أجل الحصول على سلام مع الإسبان لكنهم طلبوا بالمقابل ستة. وقد كان يحس أنه ليس من القوة ما يستطيع بها مواجهة الإسبان. وهكذا مر فصل الشتاء بمراكش عانى فيه السلطان من المرض عدة مرات.

وبمجيء الربيع كنا نهيء للرجوع المعتاد نحو فاس. لكن السلطان الذي لم ينسَ آيت سخمان كان قد عزم على مواجهتهم. فنظم حركتان الأولى سارت عبر الطريق المعتادة بقيادة ابنه مولاي عبد العزيز. ووصلت الثانية إلى تادلة بقيادته.

ها هو الأمير الصغير يتحرك مع حركته (17 ماي 1894)، إنه شاب وسيم (13سنة) فوق جواد هادىء، وتحت مضلة كسلطان. وبالقرب منه كان يوجد سي محمد الأمراني النابغة المكلف بتربيته، وزوج أخت مولاي الحسن، وقائد المشور بلقاسم احليلي، وأيضا وزيره الأكبر سي العربي المنيعي (الذي كان مثقفا، وعالما متشرعا مات بعد مدة بطنجة مختنقا بغازات الفحم الخشبي). إنه بالفعل قصر صغير يتحرك مع هذا الطفل. وقد كان الناس يتزاحمون خلف أبواب المدن لرؤية الموكب، حتى إنه كان يقال إن هذا الأمير الصغير يشبه مولاي الحسن في كل شيء، وأنه سيكون دوره لامعا (كما يعوض الربيع فصل الشتاء) حاملا في يديه الصغيرتين الأزهار والرفاهية للعرش.

وقبل الانطلاق كان أباه قد ألبسه بدلة عسكرية لا يستطيع خلعها. ورافقه المخزن طويلا في البادية ولم يغادره إلا كرها. وقد كان على مولاي عبد العزيز أن يصل الى الرباط دون توقفات حيث سيقيم بعض الأيام في انتظار أبيه.

وبعد انصرام مدة عن هذه الإنطلاقة التي أحزنت الجميع ترأس مولاي الحسن رغم مرضه وبعد مغادرته مراكش (22 ماي 1894). حركة أخرى صحبة كل خدم قصره. فقد كان يريد أن ينكل في طريقه بآيت سخمان، قتلة مولاي سرور. وهكذا انطلقنا عبر زاوية بن ساسي، وتاملالت الجديد حيث زار السلطان ضريح سيدي رحال، ولگناتر (بالسراغنة) وواد تاساوت وجمعة نتيفة وطابيا على واد العبيد، ودار ولد زيدوح على ضفاف أم ربيع. واشتد المرض على مولاي الحسن [8] بالوصول إلى هذه المنطقة. فبعد صلاة الصبح كان السلطان يجد صعوبة بالغة في الدخول إلى خيمته. وهكذا فرشت الزرابي والأفرشة بسرعة حتى يتمكن من الإستراحة أكثر. وقد كان على المحلة أن تبقى تسعة أيام بدار ولد زيدوح دون تحرك.

وسارع الحاجب سي احمد بن موسى المعروف أكثر باسم باحماد ليقول له :

ـــ ماذا هناك سيدي؟ آه إنك متعب فعلا ولن تستطيع إتمام الحركة، فمن الأفضل أن نرجع إلى مراكش، وأن يكلف محمد الصغير بإتمام العمليات التي خططت لها، فقال السلطان :

ـــ مزيان « كنت أظنك رجلا خدوما، لكن تبين لي أنني كنت مخطئا، كيف؟ فإذا كان جدي سيدي محمد بن عبد الله دفين الرباط رحمه الله قد توفي بتادلة، تريد أن يرجع حفيده الأصغر إلى مراكش. فلا بد أن أذهب إلى الرباط ولن أرجع إلى مراكش ولو كلفني ذلك حياتي. فلن نغير شيئا من قدر الله.

وبعد أن استرجع نفسه بصعوبة، قبض صدره لأن جانبه كان يتمزق ألما وقال بصوت منخفض :

ـــ آه ! مولاي عبد العزيز !

فصرخ باحماد مذعورا :

ـــ مابك سيدي.

ـــ إني أحس بألم شديد، وأحب أن يكون مولاي عبد العزيز بجانبي في هذه اللحظة بدل أن ينتظرني في الرباط.

فقال له باحماد :

ـــ فما يخيفك سيدنا؟

ـــ لا أخاف شيئا، لكن قد أموت بين الفينة والأخرى، ولاأعلم هل سأصبح غدا أم لا؟

وعند سماعه هذه الكلمات، بكى باحماد، وانحنى على رجلي مولاي الحسن فقبل قدميه وقال له :

ـــ الله يحفظ سيدنا !وأذهب الله عنك الألم الذي تعاني منه. ودعواتي لك بالصحة وطول العمر.

ثم ساد الصمت مدة طويلة كان فيها السلطان يعاني من آلامه، ثم قال :

ـــ ماذا تريد أبا حماد المسكين؟ فلا أستطيع فعل أي شيء لاأنا ولا أنت.

فقال الحاجب :

ـــ إذا كانت الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى فإننا نتمنى من الله عز وجل أن يؤخرها بعض الشيء وإذا كان مولانا السلطان يرغب في أن يصبح مولاي عبد العزيز سلطانا مكانه فهذا أمر سهل. فكل شيء جاهز.

ـــ ماذا؟ كل شيء جاهز؟ هل تمزح؟ فإذا وليت وجهي من يضمن لي بأن العمل سينجز ويطبق، خاصة أنه لن تعود لي عينان أراه بهما مَن يمارس الحكم؟

ـــ فلا يقلق سيدنا، سيمر كل شيء بخير.

ما عليه سوى أخذ ورق، ليكتب ما يريد أن يحصل. وستكون أوامره وتعليماته محط طاعتنا وستطبق كما هو الشأن في حياته. ومادام السطان يريد ذلك (تولية مولاي عبد العزيز) من قبله فالله ينصر مولاي عبد العزيز لديننا ودنيانا.

وبعد كتابة هذه الكلمات، أعطى أوامره بتطبيق ماجاء في الوثيقة، وأقر صحتها. وأضاف أنه يجب أن تؤخذ بعين الإحترام والتطبيق بعد وفاته.

ثم أخذ الحاجب الوثيقة وقال :

ـــ حفظ الله صحتكم !إ سمحوا لي بالخروج سيدنا.

وخرج من الفراك، وأرسل في طلب كل الوزراء الذين التحقوا بخيمته. فتحلقوا حوله. فكان هناك : الوزير الأول الحاج المعطي الجامعي، وأخوه سيدي محمد الصغير وزير الحرب، ووزير المالية موحى التازي الرباطي، ووزير الشؤون الخارجية (وزير البحر) سي فضول غرنيط ووزير الشكايات سي علال المسفيوي، وأمين الحسابات أو كاتب الحسابات العربي الزبدي، وقائد الجيش الكبير للمحلة باحماد الشركي.

ثم توجه إلى المسفيوي بعد أن أظهر له الوثيقة -الوصية وقال له :

ـــ هذه أوامر سيدنا ويجب أن تطبق حرفيا. عندما يحين الوقت : فكن على علم بهذا، ووقع بعد ذلك.

فاندهش الوزير عندما قرأ هذه التدابير الوصائية، ورفع رأسه ناظرا لباقي المترقبين وقال :

ـــ يجب التوقيع. إنه بالفعل خط السلطان.

ثم أعطى الوثيقة إلى الحاج المعطي بعد أن أطلع عليها ووقعها، ثم إلى محمد الصغير. لكن في الوقت الذي كانت تتجه فيه الوثيقة نحو العربي الزبدي، انتزعها باحماد، حتى لا يستطيع الزبدي ومن معه ممن كانوا معارضين له قراءتها. والتفت نحو سي علال المسفيوي وقال له :

ـــ ماذا ترون في كلام سيدنا؟

ـــ ليس لدينا مانقول. إنها أوامر السلطان، واضحة وبخط يده. وليس علينا سوى العمل على تطبيقها في الوقت الذي يختاره الله سبحانه وتعالى.

فوقع باقي من لم يوقع، باستثناء العربي الزبدي والآخرين الذين أدركوا أن الأمر يتعلق بخلافة في الملك. لكنهم سكتوا خوفا من باحماد القوي.

ثم نهض هذا الأخير تاركا الوزراء. ورجع إلى السلطان الذي كان يتلوى ألما فوق إحدى الزرابي.

ودون أن يقول أي شيء، بسط باحماد أمام السلطان الوثيقة التي قلت لك بعد أن وقعها الوزراء. فقال له مولاي الحسن :

ـــ الله يرضي عليك اباحماد !

ثم رجع هذا الأخير إلى الوزراء وقال لهم :

ـــ هذه أوامر وتعليمات سيدنا، فأنا أرتضيها وأدافع عليها بكل حماس وغيرة وسأحتفظ عليها دائما.

ثم تفرق الوزراء.

كانت الساعة الرابعة مساء تقريبا، حينما حاول السلطان الخروج لصلاة العصر - خيمة المسجد توجد في الخارج قرب الفراك - لكن بعد خطوات قليلة، لأنه كان يتحرك بصعوبة للوصول إلى الخيمة، سقط السلطان مغمى عليه، نصفه فوق الزربية والنصف الآخر على الأفرشة، فأقيم وصب على وجهه الماء البارد. وطلب الفقيه الحاج الهاشمي

الركراكي الذي كان عالما كبيرا وشيخا مسنا يبلغ من العمر 100 سنة. فتقدم منحني الظهر والشيب يغطي وجهه. ثم جلس بالقرب من السلطان يحدثه بهدوء ليتجلد ويصبر. ناصحا إياه باستقدام القائد ماكلاين الموجود في الحركة مع طابور الحرابة. لأنه كان يحمل معه دائما حقيبة فيها أدوية أنجليزية. لكن عندما استشير ماك لاين رفض إعطاء أي دواء إلا بعد فحص السلطان. فقال له باحماد :

ـــ لا يمكنك رؤيته لأنه متعب جدا. فأعطه فقط دواء من أجل إعطائه قوة أكثر. فأجابه ماكلا ين :

ـــ يجب رؤية المريض أولا قبل إعطائه أي علاج، فلا نستطيع إعطاء دواء للكبد إذا كانت الكلي هي المريضة، أو مسحوقا للمعدة إذا كانت الرئتين هما المصابتان. فقاطعه الحاجب بسرعة ونبرة أكثر حدة.

فقال الأنجليزي :

ـــ إذهب اقل ماشئت لن أعطي أي شيء. فالأمر يتعلق بسلطان. فلو أني أعطيت أي دواء وتوفي في بعد ذلك، وهذا أمر قد يحدث في أي لحظة. سأتهم بأني كنت السبب في موته ثم ولى ذاهبا.

مر الوقت، حل الليل.

كانت الساعة التاسعة مساء. حينما لاحظت أمة سوداء كانت ساهرة بالخيمة، أن تنفس مولاي الحسن قد توقف. فشرعت في الصراخ. لكن باحماد الذي لم يكن بعيدا منها، سارع إليها وأسكتها، ثم دخل إلى حريم السلطان حيث وجدهن قد استفقن وشرعن يبكين، لأن منهن من سمع صراخ تلك الأمة التي يعرفن أنها كانت في الخيمة.

-اصمتن جميعكن. كفى، فإني أمنعكن من الصراخ، واعلمن جيدا أننا في بلاد عدو. فإذا سمعت القبائل صراخكن وأن السلطان قد مات. فإننا سنؤكل. وستصبحن إما مسبيات مغتصبات أو مقتولات أو إماء. فاهدئن إذن وكففن دموعكن. ثم إني إذا سمعت صارخة منكن، فسأقطع لسانها بالمقص. . . ولا تنسين شيئا : فإذا توفي السلطان فقد مات قبله كثيرون في انتظارنا ساعة لقاء الله جميعا، واعلمن أيضا أن للسلطان أبناء كثيرين مستعدون للحلول محله. والآن الصمت. والسلام.

ثم خرج وطلب قائد (مولين الفراش) المكلفين ببذل وألبسة السلطان وقال له :

ـــ أحضر الآن، وبسرعة بدلة صوفية كاملة سيدنا فقد تصبب منه عرق كثير.

فأحضرت البدلة وأدخلها القائد وسأل باحماد :

ـــ هل تليق بسيدنا؟

فأجابه :

ـــ نعم. إنها مناسبة للعرق.

وقد كان مولاي الحسن يكرر مرات عدة، في حياته، أنه يرغب، إذا مات، أن يغسله سي ابراهيم الضرير، الذي كان فقيها أعمى موظفا في مدرسة الشرفاء. فأحضر هذا وغسل الجسم بصب الماء الساخن في الخيمة - الحمام، دون أن يفصح له عن اسم هذا الميت الذي بين يديه. ثم ألبس السلطان - بعد ذلك، ثيابه التي جاء بها قائد موالين الفراش.

وعند الانتهاء، من كل هذه التدابير، استدعى باحماد كل الوزراء حدثتك عنهم قبل قليل وقائد المشور إدريس بن العالم[9] واستغربوا من هذا الإجتماع الطارئ، والإستفاقة في مثل هذا الوقت من الليل. وقالوا :

كيف حال السلطان؟

فقال باحماد :

ـــ إنه بخير، لقد استرجع قواه البارحة وفتح عيناه. وقد جمعتكم لأخبركم بأمر صادر عنه. فاجلسوا الآن. لدي بعض ما أقول لقائد المشور.

فخرج مع ادريس بن العالم واتفق معه. ثم رجعا إلى الإجتماع. وقال لهم باحماد بعد أن ناداهم كل باسمه :

ـــ أنتم جميعا من ناديت عليكم. حفظكم الله ورضي عنكم أتوجه بالخطاب وبصفة خاصة الى سي علال المسفيوي، أكبرنا سنا وأكثرنا نصحا لأقول لكم إذا نحن كلنا متضامنين والمخزن معكم أيضا. فإني سأقول لكم لا أريد أن أكتمه عليكم مدة أطول : لقد وافت منية الله سبحانه وتعالى سيدنا مولاي الحسن حشره الله مع الصالحين وطيب تراه.

فاندهش كل الوزراء. وقالوا :

ـــ آه. إن لله وإنا إليه راجعون. كل شيء هالك إلا وجهه. لقد كان سيدنا مريضا جدا للقيام بهذه الحملة إلى غير ذلك مما يقال في مثل هذه المناسبات.

لكن باحماد قاطعهم وقال :

ـــ الآن لما علمتم، اسكتوا. واستمعوا لي جيدا. فكلنا إخوة، على حد قولكم قبل قليل وكلنا أصابع يد واحدة. خاصة في الظروف غير المنتظرة مثل هذه التي نمر بها الآن.

فنحن جميعا في بلاد عدو. واعتقد أنه عليكم التزام الصمت بخصوص ما قلته لكم قبل قليل. فهدفنا الأكبر هو عدم انتشار الخبر. ولا ننسى أيضا أن أرواح رجال المحلة أمانة في أعناقنا. وإذا أفشيتم نبأ وفاة مولاي الحسن، ووصل الى القبائل المتمردة فإنها ستهجم علينا وتسحقنا وتنهبنا بعد أن تحاصرنا من كل الجهات. وحتما، ستؤكل المحلة. لهذا يجب التزام السكوت الحذر إلى حين وصولنا إلى بلد صديق.

فقال سي علال المسفيوي :

ـــ هذا هو عين العقل.

وقال باحماد :

ـــ إذن، ماذا تودون فعله؟ وأي طريق يمكن تسلكها المحلة.

فقال سي محمد الصغير والعربي الزبدي والآخرين من معارضي الحاجب :

ـــ علينا أن نرجع إلى مراكش، التي ليست سوى على بعد مراحل. فنجمع الأعيان ونعلن مولاي احمد سلطان جديدا.

ولم يعودوا يفكرون في وثيقة باحماد التي وقعها كثير منهم. وظنوا أن الأمر لا يتعلق سوى بإجراء شكلي بسيط لم يكن الغرض منه سوى إرضاء رغبات إنسان في آخر لحظات حياته.

فتغيرت ملامح وجه الحاجب وقال :

ـــ هذه ليست وجهة نظري، فلا شيء يستعجلنا على إعلان سلطان جديد. وللسلطان والحمد لله عدة أبناء، يمكننا أن نختار منهم. أما إذا رجعنا إلى مراكش، فإننا متيقنون أننا سنهاجم وننهب، لأننا لم نر قط المحلة ترجع إلى مكان ما من نصف الطريق ثم إن الطريق الذي جئنا منه حتى وصلنا إلى هنا ليس آمنا كثيرا . فما علينا فعله هو مايلي :

ـــ سنرفع المعسكر صباحا، حيث سنعبر أم الربيع عبر خميس بني عمير، ثم نمر إلى بني مسكين، ومن هنا نستطيع عبور الواد من جديد إلى مشرع بن خلو والوصول إلى مراكش عبر الرحامنة. وبهذه الطريقة نكون قد أخذنا طريقا جديدة، ولن يهاجمنا أي أحد لكن لنحتفظ بالسر حتى نصل إلى قبيلة صديقة، فما قلته لكم سر لايعلمه أحد سواكم.

فقال الباقي :

ـــ جيد ! ما قلته معقول. وسنلتزم بموافقتنا.

فأعطيت الأوامر إلى مختلف القواد من أجل رفع المعسكر منذ الفجر.

وقد كان عبور الواد بطيئا. وعملت وحدات تادلة على تأمين الطريق حتى لا تهاجم المحلة من الخلف. فهدمت كل الخيام تلو الأخرى. وعندما أنزل الفراك كنا نرى محل السلطان بين بغلتين، ورغم الستار المسدول أماما، فإن مولاي الحسن يظهر جالسا بالداخل.

فانحنت القبائل كالعادة :

ـــ الله يبارك في عمر سيدي.

ثم سارع باحماد وبعض العبيد للانحناء أمام المحمل. وكان يدخل إلى الداخل بإحترام ثم يرجع لينادي على هذا أو ذاك. منحنيا أمام السلطان باحترام وقال :

ـــ نعام أسيدي !

ثم أعطى الأوامر إلى من بالخارج.

ـــ الحاج مسعود إن سيدنا يأمرك بأن تتحرك في الجانب الأيمن للمحلة، وبكذا. . . وكذا وطيلة حياة مولاي الحسن فإنه لم يعط قط أوامر ! إنها فعلا مخزنية حقيقية هاته التي يمارسها باحماد أمام نعش ا لسلطان [10]

ـــ أما أنت الحاج محمد ولد بن داود فقد عينك سيدنا في الحراسة الأمامية. حيث ستنزل المعسكر بالبروج، لأن السلطان يود تنظيم صوكة ضد الفوضويين بقراقرة بني مسكين. ويأمرك بأن تكون مستعدا لكل طارئ، وانتظار الأوامر بالبروج.

ثم حضر كل الناس المدعويين وبقوا على بعد مسافة متبعين أوامر القيادة. وانحنوا أمام المحمل ثم رجعوا إلى مراكزهم. وكانت كل القبائل التي تمر منها المحلة تأتي لتنحني أمام السلطان وتبارك قدومه. ولم يبق على هذه. الضفة من الواد سوى البخاريين وقبائل المخزن، في وقت كان فيها عبدان بالمحمل على البغلتين. وكان السلطان يرى من بعيد جالسا من الجهة التي ليس فيها ستار.

وعبرنا الواد ببطء كما هي العادة إذا كان هناك مريضا، لكن كادت البغلة الأمامية أن تسقط وسط الماء لولا أن استرجعت توازنها بسرعة. وفي هذه اللحظة بالذات، علم العبيد الذين كانوا جوار المحمل، وهم يرون جسم السلطان ينزلق أماما، أن السلطان قد مات. لكنهم تابعوا الطريق في هدوء.

وكان باحماد الذي يوجد في الجهة الأخرى ويتبع المحمل قد سارع إلى إعادة التوازن الى جسم مولاي الحسن. لأننا كنا نراه يفتح البوابة وينحني من جديد ويقول :

ـــ نعام أسيدي !

ثم التفت إلى باقي من يمر أمامه وصاح :

ـــ إن السلطان يطلب مول الماء. إنه يريد أن يشرب.

فسارع «مول الماء» ليصب الماء من البرادة في الكاس ليعطيها للحاجب الذي مدها بدوره إلى السلطان بالداخل. وبعد مدة أرجعها فارغة، وعلى طول الطريق الى البروج كان القواد العسكريون وقواد القبائل يترددون، بعد الإستدعاء، على محمل السلطان لسماع الأوامر والتعليمات وإيصال المستجدات إلى السلطان. وقد كان باحماد «المضحك» هومن يقوم بهذه المحادثات حتى الوصول إلى البروج.

وأخيرا، وصلنا. فدخل السلطان الى الفراك راكبا دائما كما علمت قبل وصوله. لكن ماكاد ليستقر في مكانه حتى نودي على كل القواد، ورؤوساء العسكر للإجتماع في خيمة المسجد المبنية، كالمعتاد قريبا من باب لفراك.

وكان باحماد موجودا مع الوزراء حيث قال متوجها بالخطاب إلى إدريس بن العالم والقواد :

ـــ اسمعوني جيدا. وأنتم كلكم قواد.

ـــ ماهو المخزن؟ إنها خيمة كبيرة شبيهة بهاته، فمن أجل بنائها وتدعيمها ضد العواصف والرياح فلا بد لها من دعامات. وإن العمود المحوري وصارية الخيمة التي ترفعها هو السلطان. ومختلف الأوتاد التي تحيط بها وتشد جوانبها حتى لا تقلعها الرياح هم القواد. أي أنتم، وبهذا تلاحظون مدى أهميتكم في الحفاظ على هذا الصرح. وقد استقدمتكم لأذكركم بهذا الدور، قبل أن أخبركم أن سيدنا مولاي الحسن قد مات. وأن سيدنا ومولانا الآن والذي يجب أن يعلن سلطانا هو مولاي عبد العزيز تبعا للإرادة الأبوية والتي وقعها هنا كل الوزراء.

الله ينصر سيدنا ومولانا عبد العزيز بن سيدنا مولاي الحسن ».

ثم أظهر الوثيقة التي حدثتك عنها أعلاه.

وعقب هذه الكلمات، اختلفت وجهات نظر المجتمعين. حيث رأى بعضهم أن الخليفة لازال صغيرا بعض الشيء. لكن خضعوا لرغبة المرحوم المكتوبة. فنودي على البراح الذي طاف في أنحاء المحلة معلنا وفاة مولاي الحسن وتولية مولاي عبد العزيز. هذا في وقت كانت فيه المدفعية تطلق خمسين طلقة تكريما للسلطان المرحوم. واحتفالا بالسلطان الجديد.

ثم حملت جثة السلطان إلى الخيمة. الحمام من جديد، وغيرت ثيابها كما لو كانت ستوارى التراب، ثم إن هذا المكان الذي غسل فيه السلطان للمرة الثانية أصبح مكانا مقدسا قرب البروج.

وعندما انتهت كل تدابير الدفن هذه. جيء إلى الخيمة - المسجد بكتاب صحيح البخاري للقسم بالوفاء للسلطان الجديد، وعلى طول الطريق كان يحمل هذا الكتاب « الشريف » على حصان خاص قرب الشريف. وكان يحمل في محطات الإستراحة الى خيمة السلطان الخاصة لتربية أبنائه.

ولم تمر هذه المراسيم دون مشاكل سببها بعض الوزراء من معارضي باحماد. وبصفة خاصة سي العربي الزبدي وسي محمد الصغير اللذان قالا بأن مولاي عبد العزيز لا يزال صغيرا جدا، وأن السلطان الفعلي سيكون هو باحماد. وأنه يجب استشارة « العلماء » في الأمر وأنهم مستعدون للإمتثال إلى أحكامهم. لكن أخبرهم إدريس بن العالم أنهم لا يلوموا إلا أنفسهم إذا رفضوا الوضع الجديد. ولن يحصلوا على أي شيئ خاصة أن باحماد له نفوذ قوي، وماكر وعلى علم بكل أسرار السياسة. وأنه يملك وثيقة كتبها مولاي الحسن قبل وفاته ووقعها كل الوزراء تقريبا. أو ليس كل هذا كافيا لترك الأمور تسير بشكل عادي، وأنه ألا يمكن تأخير هذا التدخل حتى نصل إلى مراكش، في حين أقسم الكل جماعات وأفرادا وزراء وكتابهم وقواد الرحى والخلفاء وقواد المائة وكل مكلف بالقيادة على المصحف الشريف. ووعدوا بعد أن علموا بتولية سيدنا مولاي عبد العزيز، باحترام الوصية المقررة. وبأن يبقى كل واحد منهم في مركزه وأن لايتجاوز مهامه ويحترموا حق جيرانهم.

وتم بعد ذلك تحرير رسالة (حملها عدة مخازنية) إلى مولاي عبد العزيز يخبر بأن أباه المحبوب قد لبى نداء ربه، وبأن كل أعيان المخزن وقواد الجيش قد أعلنوا ابنه المحبوب مولاي عبد العزيز سلطانا للبلاد، وفقا لرغبة المرحوم مولاي الحسن. وبأنهم يتقدمون جميعا التحايا والتبريكات.

ثم غادرت المحلة البروج. لكن بدل الرجوع إلى مراكش كما كان مقررا فإنها اتجهت نحو الشاوية، وأصبح الآن من الضروري، كما قال باحماد الذكي، حمل نعش مولاي الحسن، في أقرب وقت إلى القصر الملكي بالرباط. لأنه كان يرغب أن يدفن إلى جوار جده سيدي محمد بن عبد الله. وكان مولاي امحمد ولي العهد الأصلي الذي كان شخصية مثقفة قد بقي مع أصدقائه الكثيرين بمراكش. ووصلت المحلة إلى قصبة ابن أحمد رغم بعض اضطرابات أفراد من قصبة مولاي الطاهر. ثم وصلت بعد ذلك إلى دار القائد المعطي وأخيرا إلى بوزنيقة. لقد كان الفصل صيفا (أواسط يونيو)، وأصبح نعش مولاي الحسن مهددا بالتعفن من جراء مراحل الرحلة المتعبة وهكذا وصلنا بسرعة إلى أكدال في أواسط دار المخزن حيث فتح باب خاص لإدخال النعش. وكما تعلم فقد جرت العادة أن لاتدخل جنازة الميت من نفس الباب الذي يدخل منه الأحياء فجرت مراسيم التعازي العادية ودفن مولاي الحسن في قبة القصر بجوار سيدي محمد بن عبد اله.

وكان السلطان الجديد قد وصل عبر طريق بوزنيقة، محروسا بمن رافقوه من مراكش. فاستقبله جميع الوزراء بآيات الولاء والإحترام الكبير والتقبيل على الكتف. وكان بعض الحضور قد قفز ليتقرب من السلطان الجديد، لكن باحماد الحسود كان يعمل أساسا على فرض تأثيره في الأحداث، والبحث عن الحفاظ على الطفل الصغير الذي لولاه لما أصبح سلطانا ثم تنحية الجماعات المتملقة فأخذ مولاي عبد العزيز إلى جواره وأعطى الإشارة بالإنطلاق نحو الرباط.

وقد كان الجنود معسكرين في أكدال الكبير، في حين كانت وحدات القبائل تتجمع خارج المدينة من شالة إلى باب القبيبات.

وبعد أن حضي السلطان الجديد بآخر التشريفات ن كتب إلى أهم مدن المملكة لإخبارهم بالوضعية الجديدة. معلنا إلى كل الخدام المرضيين والموظفين والقواد والشرفاء وفاة مولاي الحسن. وتولية العرش طالبا من مدينة. . . أن تبعث ببيعتها إلى شخصيته الشريفة.

وقرئت هذه الرسائل في المساجد فجاءت الأصداء، حيث اعترفت كل المدن مكناس وفاس ومراكش وطنجة بمولاي عبد العزيز الذي عينه مولاي الحسن وسلم له البركة، سلطانا.

فسارع باحماد الذي كان يعمل منذ البداية الى أن يصبح شخصية رئيسية، إلى تنصيب نفسه وزيرا أولا. وكان أول ماقام به هو سجنه لكل معارضيه في مكناس. أما هؤلاء الذين يزاحمون في المكانة آي الحاج المعطي، وسي محمد الصغير والعربي الزبدي، فقد أرسل بعضهم إلى تطوان المعطي والصغير (والإثنان من عائلة الجامعي) أما العربي الزبدي فأرسله الى أسفي.

وكان سجن هذا الأخير محط احتجاجات القنصل الألماني فالزبدي كان محميا من الألمان لأنه يحافظ على مصالح هذه القوة. لكن الوزير الأول كان قد رد على طلبات القنصل بما يلي :

ــــ إذا تماديت في احتجاجاتك، فسأكون مجبرا على شواء العربي الزبدي في السفود.

لهذا أرجوك أن تترك هذا الموضوع جانبا، لأنك تتعلق بموضوع لن تجني منه كبير ربح لاأنت أو غيرك. ومن الأحسن أن يبقى حيث هو الآن.

وهكذا تمت الأحداث وركز باحماد إخوته جواره في المخزن، حيث أصبح سي سعيد وزير للحرب، وسي ادريس حاجبا للقصر. وهكذا عوضت عائلة باحماد عائلة الجامعي في المخزن.

الهوامش

1- باقتراح من السيد John Hay الوزير الأنجليز بطنجة.

2- جبالة : الذين يسكنون الجبل، وتعني الكلمة هنا القبائل الريفية وزان (شرق) والشاون وتطوان.

3- بني موسى وبني عمير

4- لم تكن هناك أي مواجهات مع زيان. فقد جاء موحى أحموا (من أهل آيت حركات) فقط إلى أبي الجعد حيث يوجد مولاي الحسن. ليطلب تولية بعد تدخل الشريف سيدي ابن داود الشرقاوي. وكانت الأفواج المخزنية لزيان تحت قيادة قائد الرحى الزوكاطي.

5- نشير هنا أن التاريخ الرسمي لإزدياد مولاي عبد العزيز هو 1880. مما يتعارض مع رواية الحاج سالم العبدي عن أول حملة لسوس 1882، وكذلك مع معطيات الدكتور Weisgerber الذي يحدد في 24 فبراير 1878. كما أثبته في كتابه :

Trois mois de Campagne au Maroc Le roux. Editeur Au Seuil du Maroc Moderne. p.bo. Ed : La porte. Rabat:

ومن المؤكد أن مولاي عبد العزيز قد ازداد بمكناس سنة 1298هـ/ 1881م. أربعين يوما قبل مولاي يوسف.

6- لقد كانت رحلة السلطان إلى تافيلالت في الواقع استجابة للحد من تلك التخوفات التي أحدثها زحف الفرنسيين نحو الواحات الصحراوية. وقد كان الإنطلاق يوم 25 يونيو1893. وقد رافق السلطان في هذه الرحلة الدكتور : Linares طبيب البعثة الفرنسية، وللمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة أنظر : le Bultin de L'institut d'hygiènne du Maroc.N° 3et 4 de l'annèe 1932.

7- يتعلق الأمر المارشال Martinez Lampus الذي وصل إلى مراكش في 29 يناير 1894. صحبة بعثة من 30 شخصية (ضباط، دبلوماسيون، رجال الدين) وغادرها في 11 مارس 1894.

8- كان مولاي الحسن يعاني من التهاب الكبد، سيودي بحياته في 6 يونيو 1894.

9- لقد أصبح فجأة ادريس من العالم قائدا للمشور بعد الشيخ الحاج محمد بن يعيش، بمكناس حوالي 1890. وكان خليفته الأول سي ادريس بن يعيش إبن الأول وأب سي محمد ابن يعيش الذي كان قائد مشور السلطان مولاي يوسف. والحاجب « الحالي» لسيدي محمد بن يوسف. وعندما بعث سي ادريس بن يعيش باشا على وجدة سنة 1895، أصبح ابنه خليفة له.

10- لم يكن هذا الترتيب الطريف المخزني في الوقت نفسه الذي قام به الحاجب، جديدا على تاريخ المغرب. ففي 4و5 غشت 1578 خلال معركة الملوك الثلاث (واد المخازن) كان السلطان عبد الملك ميتا في محمله أثناء الحرب. ومنهم من قال بأنه مات مسموما ومنهم من قال إنه مات مقتولا، وكان حاجبه قد استمر في إعطاء الأوامر والدفاع عن السلطان، دون أن يظهر أن السلطان قد مات. ليحس المحاربين أكثر، وكان يطلب الماء للسلطان كما لو أنه لازال حيا.

(Extraits inedit sur le Maghreb p 411 Traduits par E.Fagnan, Alger : 1924 J. Carbonet , édit)

ملاحظـــة

لقد توفي الحاج المعطي الجامعي في سجنه بتطوان سنة 1904. أما أخوه سي محمد الصغير فقد أطلق صراحه سنة 1908 بعد 14 سنة من السجن، شبه أعمى مشوه الرجلين من جراء الأغلال.

(Wagter HARRIS. Le Maroc Disparu. 1929 . Plon. Edit)

أما بخصوص مراسيم تسليم الإمارة إلى مولاي عبد العزيز، فقد كانت هناك عدة روايات. حاولت إحداها أن تبرز الدور الكبير الذي لعبه الوزير الحاج المعطي وأخيه، اللذان كانا يرغبان في البقاء بالقرب من السلطان وأنهما لم يقبلا توليته إلا بعد ضغوطات باحماد. ورواية الحاج سالم العبدي هي الأصح لأنها تطابق فعلا التأثير المعروف والملموس الذي كان للحاجب على السلطان (لأنه حسب التقاليد المخزنية، يمكن للسلطان أن يوصي بالملك لأحد أبنائه الذي يختاره في وصية سياسية ثم أيضا لإنسجام الرواية مع الأحداث التاريخية.

ولاية مولاي عبد العزيز

من 8 يونيه إلى 19 غشت 24 نونبر 1908[1]

وبعد إقامة أسبوعين بالرباط توجه السلطان الشاب مع محلته نحو مكناس، التي سجن فيها الوزراء الذين حدثتك عنهم اعلاه حيث اقتيدوا منها تحت الحراسة نحو تطوان وآسفي وكان قد عزل في هذه الفترة سي فضول غرنيط الذي كان شيخا قصيرا به شلل نصفي «وثعلبا » عالما [2]. ثم بقينا في مكناس عشرة أيام، التحقنا بعدها بفاس حيث سيقيم السلطان ووزراؤه حتى حدود الشتاء الموالي (شتنبر 1895)

وكان من الطبيعي وحسب العادة، أن يزور الشرفاء وأعيان المدينة ضريح مولاي إدريس، ثم عسكرت المحلة في أماكنها المعتادة. وأتحدث هنا عن الجنود النظاميين لأن جنود وحدات القبائل كانوا قد التحقوا بأهاليهم منذ الوصول إلى فاس. وسأفسر لك لماذا.

كما كانت هناك اضطرابات قبلية أكثر قوة، منذ علمهم بوفاة مولاي الحسن ومعلوم أن هذه الأحداث كانت شيئا طبيعيا عند تولية كل سلطان جديد. حيث يستغلون انشغال المخزن بتنظيم دستوره الجديد ليصفوا حساباتهم مع الجيران، أو ينحوا القواد السفاكين، أو يغيروا على المدينة المجاورة وينهبوها. وقد كانت هذه اضطرابات تتوقف أحيانا بسرعة مخافة أن يقبض عليهم لأنه كانت تبعث محلات لإرجاع الأمر إلى نصابها.

وهكذا دخلت الشاوية في حرب صغيرة بضواحي الدارالبيضاء. حيث عوض الباشا سيدي عبد الرحمان بركاش الذي لم يعد قادرا على ضبط الأوضاع : سي احمد بن العربي الذي بعث إليه باحماد بمحلة لتعزيز قواته بقيادة مولاي الأمين عم السلطان والمكلف بالحامية العسكرية.

كما أن قبائل بني حسن قد سحقت بعض قوادها وهاجم جبالة وبني مسارة وبني مسكيلدة وزان. وقد عمل شريف المدينة الأكبر سيدي محمد الوزاني الذي حمل في محمل إلى المعركة على إجلاء هذه القوات عن المدينة. كما بعثت محلة أخرى إلى ضواحي فاس لإخضاع قبائل هذه الجهة.

لكن الأوضاع بالجنوب كانت أكثر تدهورا، حيث تمردت قبائل دكالة والسراغنة والرحامنة. خاصة هؤلاء الاخيرين الذي لا يعترفون بشرعية السلطان مولاي عبد العزيز

فحملوا لواء لتمرد، وأدخلوا الحوز كله في تمرد وعصيان. وهكذا عم الإضطراب والخوف الطرق المؤدية إلى مراكش. وكان مختلف قواد القبائل المتمردة الذين غادروا المنطقة مع وحداتهم، سواء في محلة مولاي الحسن أو محلة مولاي عبد العزيز قد علموا بمجرد وصولهم إلى فاس أن منازلهم قد نهبت، وأملاكهم قد أتلفت ونساءهم وبناتهم قد أغتصبت.

وقد كان السلطان، أي باحماد، غير مستعد للذهاب إلى مراكش عبر طريق القبائل المتمرة، لهذا قرر البقاء بعض الأشهر إلى أن تهدأ هذه الإضطرابات، وكان قد علم بسبب تمرد الرحامنة : حيث قالوا :

ـــ لقد ولي علينا مولاي عبد العزيز، لكن في الواقع باحماد هو من يحكم علينا باسمه : إننا نريد سلطانا حقيقيا رجلا قادرا على التفكير وفعلا. إننا نطالب بتولية مولاي امحمد.

ولما سمع القواد كل هذا الكلام طلبوا من المخزن أن يرجعوا إلى أهاليهم مع وحداتهم، لكن أجابهم بما يلي :

ـــ لايجب أن تجهلوا حال قبائل الجنوب في هذه الأثناء، فلن تستطيعوا دخول أراضيهم دون مقاومة. هذا كل ما يمكن أن نقول لكم. فمن يحس منكم أنه قوي ويستطيع أن يتحرك في بلدانهم المتمردة وتسوية الأوضاع فإننا نأذن له وبكل طواعية، بالذهاب أما هؤلاء الذين يعرفون أنهم لا يستطيعون ذلك فإننا نحثهم على البقاء، والإنتظار حتى تجتمع محلة السلطان الكبرى. وهذا أمر لن يتأخر كثيرا. ولكن لاأستطيع أن نقول لكم متى ستنطلق. ومن المعلوم أن كل العكسر سيبقون مع السلطان، وأنه لن نسرح أحدا من أجل لا شيء.

فدخل القواد إلى خيامهم ليفكر وافي الأمر، فاجتمعوا وقرروا، أمام تقاعس المخزن، أن يجتمعوا ويذهبوا إلى الحوز، وتكوين محلة دون أفواج نظامية، وتولية قائد واحد هو : سي محمد الأمراني.

وهكذا انطلقت كل الوحدات لتنزل نحو مكناس ثم الرباط لتتوقف وترتاح بمولاي بوشعيب قرب أزمور. وقد ساد في طريق المحلة، تفاهم كبيرين القواد. حيث اتفقوا في نقاشاتهم الطويلة في المعسكر على أن يقتلوا كل واحد تعرض بسوء لأحدهم. لكن بالوصول إلى مولاي بوشعيب الشبيه بقاعدة عسكرية لعملياتهم المستقبلية. برزت عدة اختلافات بينهم، وتناقضت وجهات نظرهم الشخصية حيث كان أحدهم يرغب في الذهاب أولا لإخضاع السراغنة، وقال الاخر ! بأننا نوجد قريبا من عبدة فلنبدأ بهم. وكان يعتقد الثالث أن هذا الظرف ملائم جدا للقيام بحملة قوية إلى سوس، في حين قال سالم العربي الذي كان فعلا رجل حرب، مغضبا من تصارع وجهات النظر هذه :

ـــ كفى ! لقد اتضح لي أنه ليست لكم مواقف ثابتة. افعلوا مابدا لكم. أما أنا فسأنطلق دون كثرة كلام.

وهكذا اتجه هذا المحارب نحو قبيلته العونات قرب دار القائد التونسي، ثم إلى الرحامنة، كما عبر مشرع بوالعوان حيث اعترض طريقه أهاليه بطلقات نارية لكن لقنهم دروسا قاسية ثم عاد إلى منزله.

أما الأخرون الذين بقوا في مولاي بوشعيب، فقد أحسوا ببعض الهوان من تقاعسهم وعدم سداد رأيهم. وقرروا عبور الواد واتباع نفس طريق العوني الذي استغلوه حارسا أماميا. [3]

لكن كل القبائل المتمردة كانت في الجهة الأخرى. حيث وصلت متحدة ومتأمرةبرجالها وخيولها الكثيرة. فقد كان هناك عبدة ودكالة بل وحتى الشياظمة واتفقوا على مواجهة هذه الحملة بكل الوسائل عبورها الواد خاصة أنه لافضل لهم في قدوم هؤلاء الجنود. لكن كانت هذه المحلة قد امتدت ببهائمها وبغالها وجمالها المحملة بالخيام ثم رجالها وفرسانها على مسافة أكثر من ثمانية كيلو مترات. وبالتالي كان عليها أن تمر عبر قنطرة أكثر اتساعا. وكان على المتمردين الرئيسيين للمنطقة وأعنى بهم دكالة حراسة واد أم الربيع. فجهزت كل قواتها الموجودة على الضفاف المقابلة وقالت لحركات القواد :

ـــ ماذا جئتم تفعلوه عندنا؟ إنا لانريد منكم شيئا. فلكم قوادكم معكم، فاتركونا في أمان. إنكم تقولون أنكم تريدون فقط المرور من بلادنا أو ليس معكم بعض دكالة؟

(فللمرور من بلادنا إذن، علينا أن نتيقن جيدا أنه لايوجد بين صفوفكم أي دكالي. فقد يمكن أن يمر هؤلاء الرجال متحجبين أو متنكرين في زي نساء. فلنا الحق إذن في خلع الخمار من على وجه كل نساء المحلة، لنتيقن أنه لايوجد بين صفوفها أي دكالي)

وعندما سمعت المحلة هذه الشروط الغريبة كان أول من استفزته هذه الشروط وأغضبته، القائد المهدي الصبيري البربوشي (من الرحامنة) :

ـــ ماهذا الكلام؟ هل جننتم؟ أتعتقدون أننا كلنا نساء؟

فتوجه إلى أتباعه :

ـــ أعطوني بندقيتي.

فوضع البارود في البندقية وصرخ.

ـــ لعنة الله على والديكم.

ثم قصف في اتجاه العدو. فبدأ صوت الرصاص يدوي على ضفتي الواد. وقد كانت الطلقات النارية للمحلة أكثر قوة وفعالية حتى إن دكالة بدأوا يتراخون أكثر وأصبح من الممكن المرور بكل سهولة.

وعندما وصلت الحركة كلها إلى الضفة الأخرى، كانت الشمس على وشك الغروب. فقرروا أن يعسكروا على مسافة قريبة للتشاور والإتفاق حول الخطة المستقبلية لكن كان القائد المتوكي قد حمل خيامه وتسلل مع رجاله مغادرا المعسكر. وإسم هذا القائد سيدي عبد المالك الذي لازال قائدا حاليا على متوكة [4]. وقدعينه مولاي عبد العزيز مكان عمه سي حمو. حيث كان المتوكي قد تشاور مع أتباعه وتناصحوا فيما بينهم، وكان قد قال لهم فيما قال :

ـــ إن لدينا هنا بالمحلة أكثر من 500 فارس و800 رجل من المشاة. ثم إن عدم الإتفاق وتشتت الأراء يسودان المحلة، فكل واحد يفعل ما يمليه عليه فكره، ثم إننا نحن شلوح، ولن نتفاهم إطلاقا مع هؤلاء العرب، فأنا أفضل أن نرجع إلى بلادنا وباستطاعتنا ذلك لأننا أقوياء. وإذا اعترض طريقنا أحد ما واجهناه بالبارود. ومن لم يعترضنا تركناه في أمان. وتفاديا لمزيد من التفاصيل وكثرة الكلام فإني آمر برفع الخيام والإنطلاق مباشرة نحو مراكش.

وقد كان للمتوكي، ولمزيد من الإحتياطات، قد بعث قبل هذا الإجراء عدة رسائل إلى أهله، بأن تأتي مجموعة من الفرسان إليه لتعزيز صفوفه أثناء زحفه، وهكذا وصل إلى بلده.

أما بالنسبة للآخرين الذين علموا بما قام به المتوكي فقد فكروا في اتباع خطته، حتى إنه لم ينقض النهار حتى لم يبق أي أحد مع قائد المحلة سي محمد الأمراني.

وكان قائد عبدة سي عيسى بن عمر الذي بقي مع أتباعه قد قال له :

ـــ إذا كنت تريد المجيء عندنا إلى دار سي عيسى (قرب آسفي) فمرحبا بك.

لكن الاخر أجابه بما يلي :

ـــ لا. فلم تعد لي ثقة بأي واحد من هؤلاء الرجال. إني أفضل أن أرجع إلى مولاي بوشعيب.

وهذا بالفعل ماقام به، ثم التحق بعد ذلك بعض القواد حينما علموا أثناء الطريق أن منازلهم قد نهبت وأحرقت وأن أتباعهم قد قتلوا أو اختفوا، وأن نساءهم وفتياتهم قد سبيت، وأن قطعانهم قد أكلت أو سرقت فكل شيء قد أتلف وضاع تماما. وأعني هنا : الحاج العربي بن تومة والشافعي العبدي، وسي احمد بن عبدي بن الدوح (أحمر) وسي عبد الحميد (الرحامنة) وسي العربي ولد زروال.

وكان آخر قائد التحق بهم هو سي السعيد الشيظمي الذي وجد هو أيضا منزله قد هدم ورجاله قد تفرقوا، وقيل له في البلاد إن رجال المتوكي قد مروا من هنا ونهبوها وعلموا أيضا أن المتوكي أثناء الطريق من فاس إلى مولاي بوشعيب كان يبعث برقاصة يحملون أوامره إلى رجاله ببلده ليهيئوا أربع حملات : الأولى إلى بوريقي في حاحة في نفس المكان الذي عين منه مولاي الحسن سلطانا، والثانية إلى أركانة إدا أوزيكي، والثالثة إلى تامراغت قرب أكادير، والرابعة إلى مزوضة بقيادة أخيه القائد العربي. وهذه الأخيرة هي التي نهبت دار القائد الشيظمي :

كما اجتاحت أيضا دار قائد مجاط ودار القائد أحمد الحاحي ودار ولد گورمة.

وبهذا يكون المتوكي قد قام بعملية شبيهة بما ستقوم به فرنسا في مرحلة لاحقة في حملاتها المختلفة عندما هاجمت القبائل بعد أحداث الدارالبيضاء.

وخلاصة الكلام فإن الجنوب كله في تمرد وعصيان. حيث عمت الفوضى كل مكان خاصة على الطرق التي قطعت ولم تعد هناك أي أسواق تجارية. وكان صوت الرصاص مسموعا في كل الجهات، وقد امتدت المواجهات إلى حدود تامصلوحت على أبواب مراكش (19 كلم)، وكان القائد والمسؤول عن هذه التمردات الكبرى هو : سي عبد المالك المتوگي.

وكان الرحامنة الذين دشنوا حركة العصيان، قد نصبوا قائدا للسيبا يسمى، مبارك ولد الطاهر بن سليمان، الذي كان يحارب في السفوح، ويستعد للانقضاض على أقرب مدينة مجاورة : مراكش. وكان السراغنة أيضا المشجعين من جيرانهم قد نهبوا منازل قائديهم : الجيلالي بن المودن ومحمد بن الطيب. كما حاصر بنو مسكين دار القائد الشافعي المسكيني : ولم يرجع قائد دمنات الحاج الجيلالي الدمناتي إلا ليرى منزله محطما. كما نهبت دار المخزن وخاصة بيت المال بدمنات، حيث سرق شلوح المنطقة بقيادة قائدهم ولد الروحات أموال الخزينة لدرجة أنهم لم يعودوا يستطيعون حمل المزيد من النقود الذهبية، بل يضعونها في أضرفة ورقية ويبيعون خمس لويزات ذهبية بقرش واحد (0.25fr) وأمام هذه الوضعية رجع الحاج الجيلالي إلى مولاي بوشعيب عند سي محمد الأمراني المستغرب من عودة هؤلاء المنهوبين المجرمين من متاعهم.

ويمكن القول إن ضفتي أم الربيع قد كستها الدماء واشتعلت بها النيران من السفوح إلى الجبال وأصبحت الوضعية أكثر خطورة بالنسبة للمخزن.

لكن باحماد الذي كان يتابع كل شيء لم يكن يوصل إلى السلطان أخبار تقدم هذه التمردات إلى أن علم مولاي عبد العزيز أنه ليس محط رضى وقبول الجميع. وأنه موصوف

بطفل حلوى. وكان يقال باستمرار : « إن السلطان الفعلي هو باحماد، لأنه هو الذي يسعى في تولية هذا الطفل. وهاهو الآن يعطيه الحلوى، ويحثه على قراءة الكتب وأن يكون مهذبا هذا في وقت يحكم فيه كيف يريد».

فقد كانت الإضطرابات عامة، وكنا نسمع في جميع الأنحاء أن الرحامنة يرغبون في تولية مولاي أمحمد الوريث الشرعي للعرش، وتحريره بواسطة هجوم مقبل على مراكش حيث كان الأمير سجينا بدار مولاي الزين. وإذا لم ينجح هذا الهجوم فإنهم، وأمام تقاعس فاس فإنهم سيحاصرون المدينة (مراكش)

ماذا يحدث في مراكش؟ فالسلطة المخزنية في القصبة تحت إدارة القائد الحاج محمد ويدا الذي كان يسكن بدرب شتوكة. أما المدينة التي لا تقوى على الدفاع. فتحت قيادة سي عباس بن داود. وعندما وصلت هذه الأخبار وتشتت قواد مولاي بوشعيب، وتفكير الرحامنة في تنصيب مولاي أحمد، إلى علم محمد ويدا، استقدم الإبن البكر لمولاي الحسن وقال له :

ـــ إنك على علم سيدي بعصيان الرحامنة، إنهم يريدون توليتكم سلطانا مكان مولاي الحسن فما هو رأيكم؟

ـــ نعم أنا على علم بذلك ! لكن لست أفهم ما يريدون. فأنا لم أطلب منهم شيئا. خاصة أن السلطان المعين هو أخي مولاي عبد العزيز فعليهم طاعته، فأنا وأخي شيء واحد.

ثم قال قائد القصبة للرحامنة :

ـــ إنكم تتمردون دون سبب، فلهذا أطلب منكم الخضوع والطاعة، وإلا أحرقتكم، فلقد سألت مولاي أمحمد، وأجاب بأنه لا يرغب في الملك وأنه سعيد جدا بتقاعده.[3]

فأجاب الرحامنة :

ـــ إن ويدا رجل طيب يصدق كل ما يقال له. وإنه معنا مولاي أمحمد ويمكن أن نعطيه رسائل من الأمير يعبر فيها عن استيائه من سلب حقوقه. وأنه لا يحلم إلا بالملك الذي سوف نعيده له.

لقد سبق أن قلت لك إن الثورات قد انتشرت في كل الجهات كدخان البارود. حيث قام «ضراوة» سكان منطقة واد درعة إحتداء بسابقيهم بطرد قائدهم الطاهر بن سليمان وطاردوه إلى حدود الأطلس. فاحتمى هذا الأخير بمراكش حيث استقبل بالأدرع المفتوحة. وقد كان أخواله من الرحامنة. والقواد والأعيان ورجال البارود ومستشارو السيبا أتباع مولاي امحمد أهله. فاحتفل به القائد ويدا وقال له.

ـــ لقد جئت في الوقت المناسب. لأن المخزن وكل الناس هنا محتاجون إليك لإصلاح الأوضاع. وأريد أن أكلفك بمهمة بسيطة بين الطرفين. حيث ستذهب عند أهلك الرحامنة. وهناك نقودا ستوزعها بطريقة ذكية على شخصياتهم المؤثرة في أخذ القرار. وبالتالي شراؤهم لصالحنا. فنحن نعتمد عليك في اخماد هذه التمرد الناشيء في أقرب وقت.

فانطلق الطاهر بن سليمان ليصل إلى حركة الرحامنة المعسكرة ببئر الضراوي. حيث استقبل بحفاوة كبيرة. ثم قال سي الطاهر :

ـــ ما الذي تفعلوه أيها العقلاء؟ أو ليس فعلا شيء مشين أن المخزن قد مات أو كاد من أجل فرض سلطته أليس كذلك؟ فالعنوا الشيطان وانهوا هذا العصيان واختاروا قوادكم بانفسكم إن شئتم. وادخلوا حفظكم الله في صفوف الطائعين. وتذكروا جيدا عواقب ومواجهة المخزن – وتذكروا رجال قبيلتكم الذين ظلوا أسرى في الجزيرة (سجن موكادور الصويرة). وتذكروا جيدا تمردكم ضد مولاي الحسن الذي عاقبكم أشد عقاب، وأحثكم على أن تكونوا جنودا للمخزن. وأعتقد أنكم نسيتم كل شيء، وأنتم تتمردون دون سبب.

فاقتبل كلامه بالاحتجاج والغضب والصفير والسب والشتم وقالوا :

ـــ كفى ! إن هذا أحمق. لكن كم أخذ من النقود ليربينا كالأطفال؟ ثم كم أخذ شيخنا؟ تقولون إن من يكلمنا بهذه الطريقة منحذر من الرحامنة !؟ فإننا لا نعتقد ذلك. إنه عميل ويدا. – لعنة الله عليه. . . إلى غير ذلك من الشتائم المماثلة.

فاحمر وجه الطاهر ثم انفعل كثيرا، لكن تمالك نفسه ثم قال :

ـــ رجاء هدوءا وصمتا حتى نتفاهم وأشرح أكثر ما أريد قوله :

وجلس بعد أن ظل واقفا، وكذلك فعل الآخرون :

ـــ الرحامنة، اسمعوني جيدا. فأنا لاأريد إلا هناءكم وسعادتكم، وهل هذا هو الجزاء الذي أنتظره منكم !؟ فقد سبني الرعاة ككلب، هل هذا كل ما أستحقه منكم !؟ فرغم كل ما قلته لكم فأنكم تريدون أن تظلوا كالعميان أمام أشعة الشمس. ومادمتم أنكم اخترتم السير في هذا الطريق فإني أقول لكم بأنني عميل لويدا وأنه قد اشتراني لأشتغل لحسابه. والآن أرجوكم أن تجعلوني فردا منكم. وسنصمد أمام كل المواجهات. وإذا شككتكم فيما أقول، فأنا مستعد أن أشهد بذلك أمام عدلين.

وهذا ما تم بالفعل وكان من شتمه قبل هم من قالوا بأنهم لا يريدون قائدا آخر سوى الطاهر بن سليمان.

وأثناء الخطاب الثاني للطاهر بن سليمان، أخرج أحد الحاضرين الدهاة منديلا من حرير لامرأة ما ولوح به ثم قال :

ـــ إنها « سبنية » لالة زينب أم مولاي امحمد، التي انضمت إلى الرحامنة وترغب جدا في أن يصبح إبنها سلطانا.

لكن ويدا الذي كان له جواسيس في صفوف حركة الرحامنة قد أخبر في مساء ذلك اليوم بكل ما وقع بما في ذلك من انضمام الطاهر بن سليمان للرحامنة، وكل ما قلته لك سابقا، ولم يعد هناك من حل سوى المواجهة المقاومة.

وكان أول ماقام به ويدا هو ما يلي :

توجه رفقة حراسه من المخازنية إلى دار مولاي الزين وطلب مقابلة مولاي امحمد فأدخل عليه. وبعد التحية وبعض الكلام الذي أظهر فيه الإهتمام والرعاية التي تعطى لإبن السلطان أقفل راجعا بهدوء. وكان هذا التصرف مؤشرا للمخازنية الذين كانوا قد دخلوا إلى القصر للقيام بالعملية التي جاءوا من أجلها بسرعة. فدخلوا غرفة مولاي امحمد واعتقلوه محذرينه من القيام بأي رد فعل مهددين جنود قائد المائة بقتل مولاي امحمد إذا قاموا بأي رد فعل.

ولما انتهت هذه العملية، رجع ويدا إلى القصبة، واستدعى الأعيان ليخبرهم بالوضعية الجديدة، كما أعطى الأوامر باغلاق كل أبواب القصبة، وشرع في توزيع الأسلحة والمؤونة من مستودعات المدينة الإحتياطية، حيث أعطيت 40000 بندقية لحراس القصبة والمخزن. كما بعثت 16000 بندقية إلى المدينة.

ثم التحق بن داود بالقصبة لأخذ التعليمات من ويدا. واتفقا فيما بينهما على الصمود في جميع الحالات سواء في الهجوم أو الحصار.

لكن اتضح بعد ذلك أن ابن داود كان يميل إلى الرحامنة وترك ويدا وحيدا على موقفه النبيل واتفقا في إطار استراتيجيتهما بأن تكون أبواب القصبة وحدها هي المغلقة.

وعندما جاء الرحامنة إلى أبواب المدينة، لم يحضوا بأي تجاوب مع سكان مراكش وقال لهم إبن داود :

ـــ مرحبا بكم ادخلوا المدينة وتاجروا كما يبدو لكم. فالمدينة مدينتكم، خاصة أن منكم من له فيها منازل ودكاكين. فتجولوا إذن بكل حرية فأزقتها وشوارعها رهن إشارتكم.

فدخل الرحامنة إلى المدينة، كالمعتاد، للتسوق، وبيع الحبوب والفحم وجميع منتوجاتهم. لكن عندما وصلوا إلى أبواب الحراسة أجبرهم الحراس على وضع أسلحتهم. فاحتج الرحامنة عند الباشا. لكن قيل لهم :

ـــ لستم بحاجة إطلاقا، لأسلحتكم للتجول في المدينة. فاتركوها عند جنودنا، وستأخذونها عند رجوعكم، أليست هذه هي العادة.

فاستجابوا، ودخلوا إلى مراكش دون أسلحة.

وقد امتدت هذه الحيلة / اللعبة شهرين. امتلأت فيها المدينة حبوبا من كل الأنواع، والفحم الخشبي الآتي من الرحامنة. وخلال هذه المدة ذهب بن داود إلى ويدا ليقول له :

ـــ إن أولاد الكلاب هؤلاء الذين يزعجوننا، لاأحب أن أراهم بعد الآن. فلقد حصل مانحتاجه منهم، فمراكش مملوءة حبوبا إلى حدود الإنفجار.

فقال له ويدا :

ـــ جيد، حتى إذا ما حاصرونا يوما فإننا سنصمد أكثر، وهذا أمر إليك، لكن فلننتظر إلى أن يأتوا عندنا، فلا شك أن البارود سيتكلم بين يوم وآخر.

وبالفعل، وبعد مدة من هذا الحوار : وصل حفيذ للطاهر بن سليمان سي محمد بن الجيلالي إلى مراكش ليتشاجر شجارا عنيفا مع حراس باب إيلان، لأنه لم يقبل بأن يضع سلاحه في باب المدينة وعند خروجه عنف الحارس المسؤول، لكن عندما قاومه هذا الحارس أطلق عليه النار، فنفد صبر الحراس وقتلوا محمد بن الجيلالي وأسروا رفاقه.

وعندما علم بن داود بالحادثة سرع إلى ويدا ليخبره بما وقع، فقال له ويدا غاضبا :

ـــ إن ما وقع تتحمل فيه المسؤولية. لأنك أعطيت، وبدعوى التجارة، امتيازات كبيرة لأولئك الكلاب الملاعين، فيجب أن يوضع حد حاسم لمنع انتشار البنادق بهذا الشكل.

فأجابه ابن داود :

ـــ أعرف هذا ! ويدا. لكن ماذا تريدني أن أفعل؟ فلا يمكنني أن أكون مثلك، ولا امتلاك خصالك بصفتك رجل حرب ومخزن، وتعلم أني مفاوض جيد، كانت سياستي تهدف دائما إلى تجميع خيرات الرحامنة في المدينة، وتعلم أن أكثرهم لهم منازل هنا، وقد نجحت سياستي بالفعل حيث يمكن لنا الصمود أكثر أمام حصار أطول، ويمكن أن تغلق منذ الآن أبواب المدينة إن شئت.

فقال ويدا :

ـــ إذن لم يبق متسع من الوقت لذلك !

وبالفعل، وبعد صدام باب إيلان، انطلقت حركة الرحامنة بقيادة الطاهر بن سليمان المعسكرة بنزالة العظم قرب بن كرير، وبدأت ملامح مواجهة تظهر بسرعة. حيث قال الطاهر من ضمن ما قال :

ـــ انظروا أيها الملاعين درجة ضعفكم وتخاذلكم، حتى تجرأ هؤلاء اليهود على قتل أبنائنا، فماذا تنتظرون إذن لتكونوا رجالا !؟

فرفع المعسكر وتوجهت الحركة نحو مراكش.

وعندما أعلم ويدا بالخبر إستقدم قبائل المخزن للدفاع عن المدينة، وقد كانت هذه القبائل هي : أولاد ادليم (الشراردة)، وتكنة، والوداية، وإذا أوبلال، وأيت إيمور، وحربيل، وكل القبائل الموجودة في حوز مراكش.

وقال لهم ويدا :

ـــ تعالوا إلى هنا، فستكونون أنتم وأسركم محميين بأسواركم، ولاتمكثوا في بواديكم إذا أردتم أن لا يهجم عليكم الرحامنة. فستعطيكم هنا خيولا وأسلحة وكل معدات الحرب.

وعندما وصلوا إلى مراكش وزعت عليهم الأسلحة والمؤونة بمسؤولية قوادهم كما أعطينهم أجرة 2. ph 50 للفارس. و2. 50fr، و 1. 25fr لكل رجل.

وقد علمنا أن الرحامنة عندما اقتربوا من المدينة، كتبوا إلى جيرانهم أولاد ادليم :

ـــ ما الذي تصنعون !انظموا إلينا إلى إخوانكم.

فأجابوهم :

ـــ نحن لسنا لا معكم ولا معهم. نحن محايدون. ولايمكن أن ننظم إليكم، أولاتعلمون أن نساءنا وأطفالنا وأمتعتنا في أمان داخل قصبة مراكش، وأننا أصبحنا نتقاظى رواتب المخزن؟ فاتركونا إذن مكتفين بدور المتفرج.

فقال الآخرون.

ـــ ماذا؟ أتريدون أن تبقوا محايدين، وفي الوقت نفسه تحرسون أسوار القصبة؟ هذا غير ممكن، فاجتاحوا أراضي أولاد دليم، ثم التحقت كل القبائل المتمردة بالمخزن واحتمت بمراكش وعسكرت على طول تانسيفت بين جبل جليز و سوق الخميس [1]. حيث مضت رضى ويدى الذي أعطاها الخيول والأسلحة والمؤونة.

وعندما علم الطاهر بن سليمان بالخبر ثارت حفيظته وأرسل على التو تعليماته إلى مسفيوة الداخلة في سيبا بين سيدي رحال ودمنات، باجتياح أراضي آيت إيمور أراضيهم. فتدخل الرحامنة ليسحقوا، آيت ايمور الذين لم يتركوا في الساحة سوى الجرحى والقتلى.

أما الوداية الذين كانوا في نفس وضعية آيت إيمور، مترددين في أي الجهات يتبعون. فقد جاءوا إلى الرحامنة بثور « التركيبة » وانضموا اليهم. وقد كان الوداية رجالا مكرة، لاتستطيع الوقوف عن صدق طويتهم. وكان يقال عنهم « أن لهم عينان واحدة من الدم

والأخرى من الحليب » لكن يتضح أن بعد هزيمة آيت ايمور أصبح الوداية موالين تماما للرحامنة.

وكان الرحامنة قد بعثوا قوة أمامية إلى قنطرة تانسيفت حيث بدأت المواجهة مع المدافعين عن المدينة. وبدأ القتال، وكانت بقية الرحامنة مستعدة للهجوم.

وعندما علم السلطان بخطورة هذه المواجهات أرسل من فاس القائد العربي بن حمو الذي كان رحمانيا، ليحاول اصلاح الوضع وجلب الصلح والسلام، لكن أهاليه كان من الصعب اقناعهم فغادرهم لينظم إلى ويدا.

وفي الوقت الذي اندلعت فيه أولى المواجهات على قنطرة تانسيفت شرعت مدينة مراكش في الدفاع وإغلاق جميع الأبواب. حيث كانت جميع الحصون محروسة، وكان المراقبون يظهرون من شرفات الصوامع. كما كانت كل الفنادق الموجودة بساحات القصبة غاصة في انتظارهم جماعي، وكان قائد الرحامنة الطاهر بن سليمان قد كتب إلى مسفيوة :

__ أخبركم يامسفيوة، الأوفياء وأصحاب البارود ودو النار، أنه غدا، وبعون الله سندخل مراكش، حيث سنفعل فيها ماهو واجب علينا فعله، أما بالنسبة لكم فإني آمركم، وبمجرد ابتداء المواجهة، أن تدخلوا المدينة عبر القصبة وأنصحكم أن لا تهجموا على أكدال ولا على دار المخزن. فليس من المعقول إزعاج شريفات القصر، وليس عندكم ما تفعلوه ثمة. وبعد استحواذكم على القصبة. انتظروا مجيئي. (9)

لكن في الليل، ودون انتظار بداية المواجهة تسرب مسفيوة إلى جدران أكدال، وأحدثوا بها ثقبا تسربوا منها الى الحدائق، لكن جهلهم بالممرات والطرق جعلهم يتيهون ويقعون في الشراك التي نصبها لهم حراس القصر. فقبض عليهم ووضعوا في الأكياس. وقد دامت مواجهة الحدائق العنيفة هذه ثلاث ساعات. كانت محلة الرحامنة المعسكرة قريبا من بوقريحا بين ساسي تنتظر الإشارة في حماس. وعند وصول الفجر كانوا في كامل الاستعداد للمواجهة.

وكانوا يقولون :

__ وأماه ! هاهم مسفيوة قد اقتحموا أكدال واستولوا عليه. فلم يبق علينا سوى دفع الأبواب برؤوس جيادنا ودخول المدينة.

لكن عندما اقتربوا من المدينة رأوا بعض مسفيوة فارين بعد فشل مهمتهم بالليل. فاستهزؤوا منهم واحتقروهم خاصة أنهم رأوا من ضمن الفارين أحد أعيانهم الذي كان مولاي امحمد يرغب في تنصيبه قائدا وقد فقد دراعه بعد انفجار وقع بالقرب منه على ما أعتقد.

فقالوا له :

مما يشتكي هذا الرجل؟ أو ليس بيده طابع القائد الذي أعطاه مولاي امحمد السلطان المقبل؟ [10]

وقال آخرون :

ــ هل أنتم متيقنون أن كل مسفيوة رجال !

وقد غضبوا كثيرا من تصرف مسفيوة.

أما هم فقد هاجموا في اليوم الموالي، لكن السكان أبانوا عن مقاومة قوية حيث كانوا كلهم مسلحين بالبنادق : 74 بندقية من Martini,Rauington,Mauser، وبنادق عصرية سريعة الطلقات، وبرصاصات جاهزة، في حين كان الرحامنة مسلحين ببوشفرة، وكنا نعد عندهم حوالي 70 بندقية منها 50 قديمة من الحجارة. وأخيرا، وبينما كان المتمردون يطلقون النار دون أوامر، كان السكان منضبطين للأوامر في إطلاق الرصاص. وكانوا يطلقون أحيانا الرصاص في الفراغ لكن لم تكن بعيدة عن المهاجمين، ورغم ذلك أصابوا بعض الجرحى. وهكذا فقد الرحامنة كثيرا من الرجال، وبسرعة، فتراجعوا مهزومين، ففرح المراكشيون وهنأ بعضهم بعضا قائلين أن المخزن نصرته عناية إلاهية. ثم رجعوا بحذر دون مطاردة المهاجمين. ولو كان السكان يحسنون الرمي لدمرت هذه القبيلة المتمردة عن آخرها بعد هذه المواجهة، وكانت هزيمة الرحامنة فرصة سانحة لبعض القبائل المخزنية المتعودة على البارود تقوم ببعض الإحتفالات وقطع الرؤوس، خاصة بعدما علموا أن المخزن يعطي 10 فنرك لكل رأس مقطوع و50 فرنك لكل أسير.

وكانوا يقولون : « إذا كان المخزن يشتري الرأس بـ 10 فرنك، فإننا سنواجههم إلى أن نسحقهم جميعا.

وخلال هدنة أربعة أيام، اجتمع فيها الأعداء ورمموا صفوفهم من جديد وقرروا الهجوم من الشمال الشرقي، انطلاقا من باب الخميس إلى باب أغمات. وعند علمهم بهذه الخطة خرج جنود المخزن ليختبئوا في خنادق عميقة بوادي اسيل، حيث شغلوا كل الحفر والصخور الموجودة في سرير الوادي. في حين كانت وحدات القبائل من الفرسان قد عبرت قنطرة الوادي وتوزعت يمينا ويسارا في غابات النخيل من أجل الهجوم على جناحي أو جهتي المتمردين. فجاء الرحامنة وبدأت المواجهة لكنها لم تكن في صالحهم خاصة أنهم قد ضبطوا من كل الجهات : من أهم نقاط المدينة ومن الخنادق الطبيعية للوادي لدرجة صعب عليهم معها رصد مكان أعدائهم المختبئين أوالمندسين في كل مكان. وعندما أحسوا بضعف جهتهم اليسرى مالوا بقوة على كل الفرسان الذين رصدوهم، وأجبروهم على التراجع إلى المدينة في فوضى عارمة وقد دامت المعركة لحد الآن أربع ساعات.

وكان ويدا الذي لاحظ تراجع الخيالة قد طلب من القائد العسولي من أولاد رحال أن يمده برجاله. وكان هذا الأخير قائدا ل 50 فارس و50 رحال تقريبا، محاربين أكفاء. فقام بهجوم مضاد تراجع على إثره المتمردون كما قام العربي بن حمو بنفس العملية حيث هاجم وبقوة الجهة الجنوبية للأعداء. وانتهى كل شيء، وفتح أهل مراكش الأبواب واحتفلوا بالإنتصار وطاردوا الفارين.

وكان عدد الأسرى والرؤوس المقطوعة هذه المرة كبيرا. حيث علقت هذه الغنائم الدموية على جدران فنادق جامع الفنا بعد أن قام يهود الملاح بتمليحها.

وهكذا فقد الرحامنة شجعانهم، وهنأ المراكشيون بعضهم بعضا ولم يعودوا يشكون اطلاقا في الإنتصار النهائي. في حين رجع المهاجمون إلى معسكراتهم لتضميد جراحهم والإستعداد لهجومات جديدة وعندما رأت بعض القبائل الحليفة للرحامنة ماصارت عليه الأوضاع تراجعت وذهبت إلى مراكش بالهدايا (الثيران) طالبة الأمان والتمتع بنفس حماية السكان. وكان من هذه القبائل آيت ايمور الذين بعثوا برجالهم إلى مراكش بعد هزيمتهم العنيفة ضد الرحامنة، ولم تكن مساهمتهم بهؤلاء الرجال أمرا هينا خاصة أنه كان منهم رماة مهرة، حيث إن أربع رماة من آيت إيمور يعادلون في رمايتهم 25 جندي عادي.

وخلال خمسة عشر يوم. كان الرحامنة يستعدون للهجوم من جديد بعد المفاوضات الفاشلة خاصة أنَ الرحامنة قد تركوا عدة جرحى وقتلى لابد من الثأر لهم.

وهكذا قرر الرحامنة هذه المرة، عدم الهجوم من وادي اسيل، بل اتباع خطة شبيهة بخطة المخزن، حيث عملوا على استغلال منعرجات وملتويات الميدان والقناطر والأسوار والنخيل والحدائق الموجودة بين باب دكالة وكليز. فتجمعوا في هذه الجهة. وكان القائدان الحاج علي والمطاعي قد جاءا مع وحداتهما ليعسكرا أمام باب دكالة إيذانا ببداية المعركة.

فنشبت المعركة ليلا ورغم جهل القصبة بما يحدث في باب دكالة، فإن ويدا قد أرسل آيت إيمور لتقوية الحاج علي. لكن هذا الأخير المتيقن بقدرته وحده على ضبط الأوضاع، وطلب منهم الرجوع إلى قصبة لأنها في حاجة إليهم أكثر. واستمرت المواجهة إلى مساء اليوم الموالي حيث كان الرصاص يسمع في جهات المدينة. لقد كان بالفعل يوما محزنا فلم تكن تخطو عشرة أمتار حتى تجد بعض القتلى. وعندما انهزم الرحامنة للمرة الثانية طاردهم السكان من جديد. لكن السكان وقعوا في شراك جناحي الرحامنة الأيمن والأيسر فرجعوا متشتين مذعورين إلى كليز المقتطع من المدينة، مما جعل ويدا يتدخل مع وحدات التقوية ليجلي الرحامنة عن كليز ويطاردهم. فايقن الرحامنة أنهم قد هزموا هذه المرة، وفروا تاركين وراءه القتلى والأسرى بأيدي المراكشيين.

ثم رجع الجنود إلى معسكراتهم ليدفنوا محاربيهم ويرتاحوا من متاعب هذا اليوم العصيب. وفي الوقت الذي كان فيه القواد يبحثون في إمكانية تدشين مفاوضات السلام. بعث ويدا وبصفة استثنائية إلى السراغنة إخوة أولاد ادليم وأعداء الرحامنة أن يأتوا إلى مراكش للبحث في صيغة توافقية. وكان يسمع في كل الجهات أن المستفيد الأكبر من هذا الإنتصار هي المدينة لأنها سوف ترتاح من قيادة سي عباس بن داود الباشا الذي لم يتردد في حلق لحي كل من كان يحارب وهو فارس متراجع، خاصة أن الرحامنة قد تركوا عدة قتلى. وأنهم كادوا يغادرون المعركة بعد أن تراجعوا ثلاث مرات. وتكاثرت البلاغات حتى إن السلم أصبح شيئا بعيدا.

لقد دام هذا العصيان وعدم الإستقرار بالجنوب أكثر من سنة. حتى القواد المعسكرين بمولاي بوشعيب قد تعبوا من الإنتظار هنالك. وقرروا الرجوع إلى السلطان بفاس. باستثناء سي عيسى بن عمر الذي رجع إلى قصبته، حيث استطاع بواسطة مرتزقة مأجورين الإستيلاء على عبدة واحمر والشياظمة بطريقة متتابعة.

لقد ظل السلطان، كما قلت لك، دائما في فاس بدون رد فعل، وهذا أمر غريب بعض الشيء، واكتفى الوزير الأول سي احماد بالكتابة إلى ويدا :

إن لدينا ذخيرة كبيرة من الرصاص والبنادق والمدافع والرجال. فلا يمكن أن نهزم. وإذا كنت ترى أن أجرة الجندي اليومية المحددة في h2 .P غير كافية. فإني آذن لك أن ترفعها إلى 2 دورو(10 فرنك). واعلم أن المخزن لا يذخر هذه الأشياء إلا لمثل هذه الظروف التي تمرون بها في مراكش وبعد مرور شهر، بعث سي عيسى بن عمر، الذي كان يحضى باحترام المخزن، إلى السلطان بأنه في غاية القوة حتى إن تغدية أتباعه أصبحت شيئا صعبا، فهم يستهلكون أكثر من 100 ثور يوميا. وأنه سيكون محتاجا إلى نقود أكثر، وأنه، إذا أراد أن يتيقن. من أقواله فما على مولاي عبد العزيز سوى طلب توضيحات في هذا الموضوع من تجار آسفي الفرنسيين. وأضاف بأن البلاد منهكة تريد السلام. وأن سيدنا ما عليه سوى إخراج رأسه من مخزنه، وأن قدومه وحده كافي لإحلال السلام.

وكان مولاي عبد العزيز قد سمع نصيحة باحماد وأمه بالتوجه نحو مراكش. لقد كان الوزير الأول رجلا هادئا ودبلوماسيا جيدا، حتى إنه لقب بخيط الحديد « لدهائه ومرونته، لكنه في الوقت نفسه كان قويا إذا وضع أحدا بين يديه.

وهكذا غادرت محلة السلطان فاس (شتنبر 1895) لتمر في بطئ من زمور تحت القيادة الفعلية لحمو بن الجيلالي. وقد بقي عم السلطان مولاي عرفة في فاس ممثلا للسلطان. وقد كان تحرك السلطان بطيئا فيه تفكير وتأمل ثم وصلنا إلى الرباط. فداع في كل القبائل خبر توجه السلطان الشاب رفقة قواته إلى مراكش لإجلاء المتمردين عنها. لكن الإقامة في

الرباط دامت عدة أشهر فيها امدادات القبائل الآتية من كل الجهات، وخلع وتعيين قواد جدد. وهكذا حل المتوكي ضيفا على السلطان بالرباط مجهزا بحركة قوية وأسلحة مؤن وأعتدة. فسر المخزن بمجيء هؤلاء الشلوح المحاربين الجيدين لتعزيز صفوفه.

وكان قد جمع في هذه الأثناء بالرباط حوالي 15000 رجل بما في ذلك النظاميين ووحدات المتوكي وقبائل المخزن الشمالية والغربية وبني مطير وگروان والخلوط وبني حسن والحياينة وآيت يوسي والشراردة وأولاد جامع.

وفي أواسط فصل الشتاء (فبراير 1896)، انطلقنا من الرباط بدون فوضى، وفي هدوء كتحرك رجل مسكين. حيث وصلنا الشاوية، وعبرنا أم الربيع عبر مشرع الشعير، حيث تقدمنا باحتراس شديد نحو الرحامنة، بالقرب من بني مسكين حتى الخوام؟ لكن منذ مغادرتنا قصبة تمارة كان شيء ما يصحبنا يقتل الكثير من أفرادنا في هدوء وصمت، إنه المرض المسمى « بوكليب»[11] الذي انتشر وبسرعة كبيرة من طنجة إلى الجنوب، إنه يخرق صفوفنا برصاصاته الخفية، وقد كانت رؤية الرجال الأقوياء يسقطون من على فرسانهم مصعوقين أمرا يدعو إلى الشفقة والرحمة. فقد كان هناك عدة جثث في كل الحقول.

ولم يسلم الأعيان بدورهم من هذا الداء خاصة الوزير سي التازي الرباطي، وسي مولاي عبد الله « متحسب [13] مراكش. وكذلك Minnie أخت القائد هاري ماك لان. وكان في هذه المحلة أيضا مدربون فرنسيون وأنجليز. وكان ماك لان الذي يحضى باحترام المخزن الكبير، يقود طابوره من المشاة المجهز منذ مدة قصيرة برشاشات أنجليزية. وكانت عائلته زوجته الاسبانية وبناته في رفقة أطباء أجانب وكان طبيب السلطان هو الإنجليزي Verdon وطبيب العسكر Linarés، لكن رغم العناية التي كان يحضى بها هاؤلاء جميعا فإنهم كانوا ضعافا أمام بوكليب. صحيح أنه لم يمت كل المصابين. لكن كنا نرى يوميا رجالا يسقطون من المرض قرب الجثث التي يدفنونها. فدب القلق والتدمر إلى النفوس من هذا التحرك البطيء ومن هذا الشلل الذي انتاب المعكسر و من شراسة « بوكليب» هذا.

فقال لهم باحماد :

ـــ أنا لا أعرف لماذا أنتم متدمرون بسرعة فبوگليب موجود في كل مكان، فلماذا تشتكون، إنه وراءنا وأمامنا، وقد علمت أنه وصل إلى مراكش، واعتقد أنه يعمل في هذه الأحيان لحسابنا فسواء هنا أو هناك لن يفلت أحد من مصيره إذا جاء أجله.

ورغم هذه الظروف طلب من الرحامنة المجيء إلى المحلة وسماع الشروط التي يفرضها السلطان . وقد كان القائد عبد الحميد هو الذي يفاوض بإسم الرحامنة. فقال له باحماد :

ـــ ستقدمون للمخزن 4000 أسير، يأتي كل واحد منهم بفرسه وسلاحه ومؤونته ويعطي ذلك كله للمخزن، ثم يغل ويذهب به إلى السجن. والآن فإننا نريد المتمرد والمسؤول الأكبر الطاهر بن سليمان، وباحاح. أين هو الآن؟

فأجاب عبد الحميد :

ـــ إنه محتمي بزاوية سيدي علي بن إبراهيم.

فقال الويز الأول :

ـــ جيد ! إذن يجب عليكم إحضار كل هؤلاء المتمردين على وجه السرعة وأخص بالذكر منهم، ذلك الذي تمرد في جهة دمنات المسمى ولد الروحات.

وعندما علمت القبائل المترددة والمتمردة بخضوع الرحامنة، أرسلت وحداتها إلى المحلة التي بدأت أعدادها تزداد وتصبح ذات أهمية أكبر يوما بعد الآخر. وعلم نهائيا وتقرر أن المخزن هو الذي انتصر دون إطلاق رصاصة واحدة. بفضل مقاومة ويدا، والخطة الدفاعية المحكمة عن المدينة. وخاصة بفضل الأموال الكثيرة التي صرفتها الخزينة المخزنية.

وكان الرحامنة مضطرين لقبول الشروط القاسية المفروضة. فوصل أسراهم جماعات تحت حراسة الشيوخ[14] على الجمال أو الحمير حيث طيف بهم في كل أنحاء المحلة تحت وابل من الشتائم والسخرية، فكانوا يشدون من لحيهم حتى إنه لم تبق على وجوههم الدامية سوى بعض الشعيرات. ثم جعل الحدادة الأغلال والقيود القوية في أرجلهم واقتيدوا في مجموعات من 15 إلى 20 أسير (في كل مجموعة) ثم إلى ربط خيولهم في ركن من أركان المعسكر. كما جمعت بنادقهم والخناجر في الوسط. وظهر قائد التمرد الطاهر بن سليمان بدوره. ملتفا بغطاء ضريح سيدي علي بن إبراهيم رفقة شرفاء ومقدمي « الزاوية »[15] الذين جاءوا به بأمر من السلطان، وقالوا لباحماد :

ـــ أسيدي، دون إطالة كلام. إنه مذنب بالفعل، لكنه كان مدفوعا من أهل السوء من قبيلة. وقد استأجر بحمانا وبجدنا الذي تحترمه أنت أيضا، فلا يحق لك الآن أن تنتقم منه، إنه في حمانا.

فأجاب الوزير :

ـــ بالتأكيد، فأنا مثلكم أحترم سيدي علي بن إبراهيم. لكن ماذا تعتقدون أنه كان سيفعل سيدي علي بن ابراهيم، لو واجه في حياته متمردا مثل الطاهر؟ إنه كان سيقوده حتما بيده إلى المخزن لينال عقابه ولهذا أقول لكم لا تسامح مع هذا. . . !

فقال الشرفاء :

إنك فعلا على صواب ولو أننا لا نعرف ما الذي كان سيفعله سيدي علي بن ابراهيم، في حياته. ولكن الأمر يتعلق بحرمته وحماه الشريف المقدس. فانظر إلى هذا الشقي وغطاء ضريح ولينا فوق ظهره ! إن دينك يمنعك أن تمسه بسوء. لقد جئنا إليك، واستقدمنا هذا الرجل من منفاه لأننا كنا متيقنين من عفوك.

فقال باحماد :

ـــ هل تمرد الطاهر بن سليمان ضد سيدنا أم لا؟ أجيبوني !

ـــ نعم لقد تمرد الطاهر.

ـــ أو لم يرد في حديث سيدنا محمد (صلعم) : فالذئب لا يأكل إلا الشاردة من الشياه، فالطاهر إذن نعجة ضالة لم يعد من حقها الإلتحاق بقطيع الأوفياء فأزيلوا عنه هذا الغطاء الشريف الذي يلطخه بعرقه والذي لن يحميه من أي شيء.

وهذا ما تم بالفعل، حيث جلد هذا الشقي بعنف حتى كادت روحه تزهق.

وجعل في اليوم الموالي في قفص من خشب وجعلت قضبانه من بنادق الرحامنة. ثم حمل فوق جمل وطيف به في جميع أنحاء المعسكر، وقذف بالقاذورات كالكلب. هذا إذن جزاؤه.

وبعد ذلك، أدى الرحامنة كل مستحقاتهم من الضرائب المتأخرة منذ سنتين، ومبلغا ماليا ضخما تعويضيا عن خسائر الحرب وصل إلى حدود 200000 دورو، مليون فرنك فيما أعتقد، لقد كان المخزن يريد إثقال كاهلهم جدا حتى لا يفكروا في التمرد من جديد. كما أعطوا خيولهم وأسلحتهم. وجاء الدور أيضا على كل القبائل الأخرى التي ساندت الرحامنة في تمردها حيث قدمت الأسرى وأعطت النقود.

وهكذا بسط المخزن سلطته على الأوضاع وأصبح أكثر إرعابا وإيخافا. وكان قد تطلب إرجاع الأمور إلى نصابها أربعين يوما. وعندما هدأت الأوضاع انطلقت المحلة نحو مراكش التي دخلتها دخولا احتفاليا (7 مارس 1896) وسط تهانيء ومبايعة السكان وزغاريد النساء.

وكانت تظهر في الموكب كومة الأسلحة التي تجرها، وراءنا سلاسل من الخيول مشدود بعضها إلى بعض، وطابور أمن الأسرى المعذبين بطريقة عنيفة جدا ـ وكان يظهر السلطان الشاب جوار باحماد الداهية المشهور.

وبعد مرور أيام قسم الأسرى المغلولين دائما مجموعات ووزعوا على المراسي :الرباط وآسفي والصويرة والجديدة وطنجة وتطوان، كما شرع في جميع القضايا التي يمكن البث فيها.

وقد تم نهج الطريقة نفسها مع القبائل الأخرى المتمردة، حيث سومحت شكليا وعين عليها قواد جدد. واحتيل عليها عندما أتت بعد مرور بعض الأشهر إلى القصر للسلام على السلطان يوم الهدية. وقد كان من عادة باحماد وضع الأغلال في الأرجل في الزنازن ونسيانهم هناك. وبهذا الإجراء قل يوما بعد يوم أعداء المخزن.

وقد استطاع القائد سي عيسى بن عمر الذي حضي بمساعدة المخزن، أن يخضع جهته وعين بالتالي قائدا عاما على عبدة ودكالة والشياظمة. وعين تحت إمرته قوادا آخرين لتسيير منطقته المتسعة. وقد كان الجزاء اعترافا للمخزن له بالجميل على اقتراحه الصائب بوجوب نزول المخزن إلى الجنوب وجنى ثمار انتصار هيأه آخرون.

وهكذا عاد الهدوء والحياة إلى الجنوب كله.

الهوامش

1- 19 غشت 1908 هو تاريخ هزيمة مولاي عبد العزيز أمام الوحدات الحفيظية. و 25 نونبر هو تاريخ وصوله إلى الدار البيضاء.

2- رغم هذه النكبة التي تعرض لها سي فضول غرنيط فإنه لم يمت بفاس إلا في 28 ماي 1928.

3- لقد عبر قسم محاربي وخيول هذه المحلة أم الربيع بالمركب. ليتوقفوا بمولاي بوشعيب على الضفة اليسرى جنوب شرق أزمور، أما الأكبر فبقي في ناحية سيدي علي في انتظار الأمر بالإنطلاق وكان عليه عبور الواد عبر مشرع محيولة أو مشرع الكرمة قرب بولعوان حسب العمليات المرتقبة. وقد كان عرض المياه في تلك الأثناء 50 إلى 70 متر.

4- توفي القائد الكبير سي عبد المالك المتوكي في 21 أبريل 1928.

5- أي رسل ومبعوثين.

6- يبدو أن مولاي محمد، وبمساعدة بعض الوزراء وعمه مولاي عمر، ودعم الرحامنة كان يرغب أن يبايع سلطانا في مراكش.

7- لقد كان الرؤساء والقواد بما في ذلك الأفواج النظامية والإحتياطية مكلفين وبصفة فعلية على توزيع البنادق على رجالهم.

8- قرب الباب الذي لازال يحمل نفس الإسم (باب الخميس) إلى اليوم.

9- كان يوجد بقصر السلطان عدد من الشريفات أو الأميرات (مع خدمهن البيض أو السود) المسنات أو المطلقات أو المغضوب عنهن. وكن يقمن بالقصر بصفة قارة رغم غياب السلطان.

10- لقد كان كل قائد معين يتوفر على طابع يستطيع به أن يختم به على الوثائق. ويعتبر هذا الطابع مؤشرا قويا على مكانة القائد، وبمثابة قرار تعيين رسمي.

11-المراد ببوكليب هو داء الكوليرا. الذي تسرب عبر الحجاج الذين وصلوا في سفينة من جدة إلى طنجة (11 غشت 1895). وكان الناس يعتقدون انه من أمراض الجن.

12- لقد أصيب الوزير موحى التازي بالكوليرا لكنه لم يمت من جرائه.

13- موظف سامي في المدن يحدد الأثمنة في الأسواق. يراقب جودتها ويشرف على جميع المبادلات التجارية ويعمل على التنسيق بين الحرف. فهو بمثابة وزير تجارة محلي.

14- جمع شيخ. رئيس فرقة أو فخدة من قبيلة أو قرية صغيرة أو زاوية دينية. ولكي يحكم قائدا ما قبيلة ما لابدله من عدة شيوخ.

15- الزاوية مجموعة من البنايات حول ضريح ولي معين تحمي المنفيين السياسيين الفارين من المخزن. وتعيش من هدايا وتبرعات الأتباع والأهالي. التي توزع حسب أهمية أهل الزاوية لأن هنالك الشرفاء أو الأمراء المنحدرين من صلب الولي، ثم المقدمين ثم الفقهاء المكلفين بتلقين القرآن.

وقد لعبت الزاوية دورا مهما في تاريخ البلاد. حيث كان لها أحيانا، اشعاعا على المستوى الوطني واتباعها ما يصبحون محاربين في المستقبل وقد انطلق المرابطون من زاوية ابن ياسين، والموحدون من زاوية ابن تومرت، كما كان للزاوية الدلائية الشهيرة.

دورا هاما في الاطاحة بآخر السعديين، والتي سوف يقضي عليها الشرفاء العلويون من زاوية سجلماسة بتافيلالت أحفاد مولاي علي. وتحكم المغرب بعد ذلك.

16- سلم الطاهر بن سليمان للمخزن في 27 يناير 1896. وكان دخول السلطان إلى مراكش في 7 مارس من نفس السنة.

آخر محلات الوصي على الملك

-اختفاء عائلة باحماد- مظاهر كفاح المخزن.

وهكذا عاد الهدوء والأمن إلى جنوب المغرب كله. ولم تكن أي ثورة أو تمرد يثير قلق أو إهتمام المخزن في الشمال.

ففاس آمنة وهادئة تحت قيادة مولاي عرفة، وكذلك مكناس التي بعث إليها بالأسرى تحت حراسة قوية. حيث غادر مولاي أمحمد دار مولاي الزين مع أصدقائه وأقاربه الرحامنة إلى دار المخزن بمكناس. ولم تصطدم حامية تازة المكونة من 500 رجل بقيادة سي علال الودي مع غياثة الذين سبق أن نهبوها، أما وجدة ففي هدوء وراحة تامة مع باشاها الجديد إدريس بن يعيش الخليفة القديم لقائد المشور إدريس بن العالم، حيث بسط سلطته ونفوذه بقوة في المنطقة لأن الكل قد علم ما حدث للرحامنة من جراء تمردهم. فكان الناس يتحركون في انتظام وهدوء ودون رفع رأس كما يقال.

وحل المخزن بمراكش، حيث سيمكث به عدة سنوات[1]، ثم عمل على خلع قواد وتعيين جدد. وكان قد ظهر في هذه الفترة على مسرح الأحداث، مخزني كان يحضى بتقدير باحماد يسمى المهدي المنبهي وعين لقيادة قبيلة المنابهة. وأحدثك عن هذا الرجل الذي لم يكن من عائلة كبيرة معروفة لأنه سيأخذ فيما بعد المخزن كله بيده.

وماكاد السلطان الشاب يستقر بمراكش حتى استقبل (باشا دورا) سفيرا[2]، يحصلون في هذه الفترة على عدة امتيازات، فأصبح ماك لان قائد الحراس أكثر حضوة حيث يقضي أغلب الأوقات تقريبا في القصر، ويلبس على الطريقة العربية ولم يعد ينتظر كالسابق ساعات أمام باب القصر بين جماعة الزوار الذين يرغبون في لقاء أحد أفراد المخزن فكان بمجرد أن يأتي إلا ويدخله مخزني خاص إلى السلطان. وقد كان يحيط بموتمي عبدالعزيز بعض الحساد الذين لا يرتاحون إلى ماك لان، لكنهم كانوا، مع ذلك يسارعون إلى السلام عليه لأنه كان يحضى باحترام وتقدير باحماد وكل الوزراء. لقد كان رجل حرب قوي، ويشغل طابوره بنظام. وفيما كان الإنجليزي يعمل جاهدا على إمتاع السلطان بالمحادثات والطرف، وإبراز آخر مستجدات أوروبا الميكانيكية والتقنية، كان الوزير الأول يحكم وفده دون مراقبة، اللهم من عائلته وأصدقائه الذين يحيطون به في المخزن.

وقد جهز في خريف هذه السنة التي وصلنا فيها إلى مراكش عدة حركات للذهاب إلى ناحية سوس وراس الواد، والاستطلاع حول ما يمكن أن يقع في هذه المنطقة [4] لقد كان أهالي هذه الجهات في تمرد دائم منذ وفاة مولاي الحسن. أنا لم أكن من أفراد هذه الوحدات، ولا أعلم ماذا فعلت هذه الوحدات في تلك البلاد : انطلقت الأولى إلى هوارة « بقيادة الباشا حمو بن الجيلالي ومولاي عثمان عم السلطان، والثانية إلى شتوكة الموجودة في الجانب من هوارة بقيادة القائد اسعيد الكلولي، والثالثة إلى واد ماسة بقيادة الحاج محمد ويدا الذي دافع بقوة عن مراكش، ومولاي عبد الحفيظ أخ السلطان. وكان أن عززت هذه الحملة بحمية قصبة تزنيت القارة بقيادة القايد عبد السلام ايطو. وقد عرف المخزن في هذه المناطق أياما نحسات، انتصارات وهزائم. وقد نهب مرة، المعسكر الشريف لمولاي عبد الحفيظ. وبعد أيام أخذنا بعض الأسرى وحصلنا الضرائب.

ثم عادت، في الأخير، كل هذه الأفواج التي أنهكت البلاد عدة أشهر إلى تارودانت وأكادير حيث بعث إليهم باحماد عدة طوابير لتقوية صفوفهم، لأن أهالي تلك المناطق قد طاردتهم بقيادة محمد أهاشم شريف زاوية سيدي احماد أموسى، ولم ترجع وحدات في تزنيت إلى قصبتها إلا بصعوبة كبيرة. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الوحدات النظامية المحاربة ومدربيها قد بقت مع السلطان بمراكش ولعل هذا ما يفسر فشل تلك الحركات الصغيرة التي كانت ترسل إلى هنا أو هناك، والتي لم تكن تستطيع مواجهة حتى بعض الجبناء.

وظلت جهة مراكش بعد هذا الصيف (1897) هادئة، كما كانت الإستعدادات جارية لمغادرة مراكش برغبة من السلطان والمخزن والنظاميين والمدربين الأنجليز والفرنسيين.

هكذا غادرنا مراكش (16 شتنبر 1897)، حيث مررنا ببني مسكين والكعدة لنعسكر بصخرة الدجاجة بوادي زم على الحدود بين تادلة، بسبب ما يلي. لقد ثارت القبائل المجاورة لقصبة بن احمد : عشاش والخساسرة واولاد امحمد ببني ايمان والأولاد / الولاد ضد قائدها وحاصرته. فمكثنا في هذه الجهة أكثر من ثلاثة أشهر معسكرين تحت الخيام والبرد القارس. وقد كان برفقة السلطان، فضلا عن الوزير الأول / الصدر الأعظم وكل الوزراء المرافقين، قائد المحلة مولاي الأمين عم السلطان وسيدي محمد الأمراني.

فكونا إثنا عشر طابور متشابهة، أحاطت بكل جهات صخرة الدجاجة لمحاصرة القبائل المتمردة، واجتياحها ونهبها وإرغامها على آداء الضرائب للمخزن. وكان مختلف قواد الطوابير يقولون للإنفصاليين المنشقين :

ـــ استسلموا وأدوا مستحقاتكم من الضرائب، وحينئذ سنغادركم إما إن رفضتم فإننا سنظل بأراضيكم وستكونون مرغمين على مؤونتنا وتغديتنا إلى أن تفقروا وتصبحون أعرى من كأس كما يقال.

فسارعت القبائل المعنيه بآداء الضرائب بصخرة الدجاجة، لكن يبدو أن هذا الإجراء لم يشف غليل المخزن، فكتب السلطان، بإيعازمن باحماد، إلى قواد الطوابير الإثْناعشر :

« إنني مسرور منكم، لكنني لاحظت أن عملياتكم الصغيرة قد دامت مدة أطول. لهذا يجب أن تقضوا على هؤلاء المتمردين إطلاقا، ولكي تكون عملياتكم أسرع وأنجح فإنني سأحدد لكم يوما وساعة واحدة لانطلاقها وتكونون متفقين على زمنها جميعا. وحينها سوف تجتاح كل وحدة المنطقة التي توجد أمامها. وتنحي كل الجهات التي تقاومها. وتجلب إلى صخرة الدجاجة الأسرى والقطعان والمؤونات وكل ما يمكن أن يؤخذ وينقل .

وبوصول هذا الأمر إلى كل جهات الطوابير انطلقت بسرعة لأداء المهمة واجتياح كل هذه الجهات حيث أسرنا 800 أسير، وجلبنا عددا كبيرا من رؤوس الأغنام والأبقار والخيول دام توزيعها مدة طويلة، وعندما قسم كل شيء « وشبع» المخزن. أمر السلطان بجمع الأسرى في عشر مجموعات وأرسلهم إلى الرباط وسلا وتطوان والعرائش ومكناس وفاس ومراكش وآسفي والصويرة، ثم أعطى إشارة الإنطلاق.

وقد كان هؤلاء الأسرى في صف من 15 إلى 20 فرد في قيد واحد متبوعين بنسائهم وأطفالهم وكان منظر رؤيتهم وهم يقطعون، وبصعوبة، المسافات الطوال وبسرعة وتحت التعذيب أمرا يدعو على الشفقة، فملأوا سجون القصبات والمدن وأماكن متعددة حيث كانوا يجدون في أماكن عديدة منها رفاقهم الرحامنة.

كما كان هناك أيضا عشرات الرؤوس المقطوعة بعث بها لتعلق على جدران قصبة الوداية بالرباط. لقد كان انتقام المخزن عنيفا جدا. لكن السلطان الشاب أو من يأخذ بيده كان يريد أن يظهر للجميع أنه قوي خاصة بعد هذا الإجلاء والتوزيع العنيف لهؤلاء الأسرى على كل جهات البلاد، وأراد أن يظهر لأهالي البلد والمدن العقوبة التي تنتظر المتمردين.

وللرجوع، عبرنا الشاوية من المزامزة وأولاد اسعيد ثم لنصل إلى أزمور وبعدها توجهنا نحو مراكش.

وبوصولنا إلى واد تانسيفت، عسكرت المحلة اثنا عشر يوما قريبا من القنطرة، حيث جاءت كل فخدات الرحامنة للسلام على السلطان وتقديم المؤونة، وكذا بعض الهدايا كما جرت العادة بذلك حين عبور السلطان بلدا ما. لكن السلطان اعتقل كل هؤلاء ومرافقيهم، وعين على كل الرحامنة القائد سي عبد الحميد الذي كان بمولاي بوشعيب والذي كان أيضا طرفا في المفاوضات مع هذه القبيلة حين خضوعها.[4]

وبعد تسوية جميع الأوضاع والأمور دخل السلطان إلى مراكش وسط الإحتفالات المعتادة، حيث أقام في هدوء وأمان.

وكان القائد اسعيد الكلولي العامل على كل بلاد حاحة تقريبا، قد قام «بصوكة» إلى سوس الذي بدات الأوضاع تهدأ فيه تدريجيا.

وفي الوقت الذي كان فيه مولاي عبد العزيز يستقبل السفراء [5] الذين كانوا يأتون بالهدايا – حيث لم تكن تمر سنة دون مجيء سفراء أوروبيين : فرنسيين وألمان وأنجليز وإيطاليين وإسبان إلى القصر محملين بالهدايا، طالبين بالمقابل بعض الإمتيازات التجارية لبلدانهم وأراضيهم أو تصفية بعض العصابات – أرسلت حركة سي محمد الأمراني لتسوية الأوضاع بمنطقة جبالة المتمردة، كما بعث الباشا ادريس بن يعيش من وجدة إلى تطوان ليرجع الأمور إلى نصابها بقوته وصرامته المعهودة كما جهزت أيضا محلة ضد مسفيوة الذين حاولوا قديما الإستيلاء على أكدال، حيث التقت في طريقها حركة من كلاوة بقيادتها سي المدني من تلوات.

وقد كان مسفيوة الذين استسلموا وخضعوا بعد انهزام الطاهر بن سليمان، قد تمردوا من جديد، لكن ووجهوا وأدبوا بقوة وعنف، حيث اعتقل منهم الحديد من الأسرى، واجتيحت منازلهم وأخضعوا قسرا.

وبعد مرور بعض الوقت توجهت الأنظار والأسماع نحو المخزن. حيث كانت هناك أحداث على جميع محادثات الناس في الشارع : فقد توفي وزير الحرب سي اسعيد أخ باحماد، بعد أن عانى من المرض عدة أيام، ومات أيضا الحاجب الملكي سي ادريس أخ باحماد الثاني. ثم جاء دور الوزير الأول / الصدر الأعظم باحماد ليعاني بدوره من وعكة صحية حادة. وقد كان باحماد الذي رأى –وأمام عينيه– اختفاء أخويه يحاول التجلد والصبر. فرغم كل الأدوية المستعملة، ورغم اجتماعات الأطباء بما فيهم الأوربيون الثلاث ليناريس، وطبيب سفارة جاء إلى مراكش، والأطباء التقليديين والفقهاء المسلمين مثل سي محمد غرنيط المحتسب الحالي لفاس الجديد، ورغم فحوصات آلة كهربائية كانت ضمن أمتعة ماكلان، فإن الوزير الأول / الصدر الأعظم مات بعد أسبوعين من مرضه (13 ماي 1900)

وقبل ذلك بأيام، مات أيضا سي ادريس بن العالم قائد المشور الذي كان أطباؤه أقل لكن مات على كل حال. وكان الآخرون الذين بقوا ينتظرون الموت بدورهم يعيشون في هلع وخوف.

وقد أزعجت هذه الوفيات المتلاحقة المخزن كثيرا، لكن عمل بسرعة على ملأ المناصب الشاغرة فعين : سي لحسن أخ باحماد في منصب الحاجب الملكي، والحاج بن عبد الله بن أحمد قريب الوزير الأول / الصدر الأعظم المرحوم في منصب الوزير الأول. وسي محمد بن ادريس بن العالم القائد السابق في منصب قائد المشور، لكن لم يبق في هذا المنصب سوى خمسة أشهر أو ستة لأنه كانت له عدة عيوب، فقد كان رجلا مدمنا، وعلى ظهر يده

اليمنى تورم متعفن ميؤوس من علاجه. ولم يكن من المستحب رؤية الضماد على يده، وسيعوض فيما بعد قدور بن الغازي، ثم فيما بعد : ادريس بن يعيش المستدعى من تطوان. أما وزير المالية فضل هو موحا التازي الرباطي، الذي احتفظ بهذا المنصب منذ مولاي الحسن. وهو من نادى عليه باحماد أثناء وفاة مولاي الحسن.

وضل منصب وزير الحرب شاغرا. وعندما تقلد الحاج ادريس مهامه، استنصحه مولاي عبد العزيز وطلب منه أن يختار علاَّفا جديدا.

فأجابه :ـ

إني أذكر أن باحماد : وقبل أن يموت قد قال، ضمن أشياء أخرى، أن الخليفة الأنسب لسي اسعيد المتوفى هو سي المهدي المنبهي قائد المنابهة الحالي.

فقال السلطان :

ـــ بالفعل، سيصبح كذلك، لأن باحماد كان رجلا ذكيا، وكثيرا مازودنا بنصائحه الجيدة.

وفي اليوم الموالي، استعرض السلطان جميع قواد الرحى وعين عليهم قائدهم الجديد.

لقد كان وزير الحرب الجديد، الذي كان محط عناية باحماد، على علم بكل مايحدث في المخزن إنه سيتقلد مهام جديدة، وسيلقي فيها كما تلقى سمكة في البحر. إنه شاب قوي ومحارب جيد، ومتعود على اتخاذ قرارات سريعة وصائبة، ولاشك أنه سيكون في المكان المناسب.

وبمجرد التحاقه ببنيقته قرب السلطان التي تركها باحماد، والتي كان من المفروض أن يكون فيها المختار، طلب منه مولاي عبد العزيز وجهة نظره في جميع القضايا المطروحة أمامه.

لقد بلغ السلطان عشرين سنة من عمره، أصبح يدرك فيها بعض الشيء كيف يحكم، لقد كان شابا قويا وصلبا وذا وجه بشوش، ووجنتين ممتلأتين، لكن دون شعر في لحيته، يعشق الرياضة والترفيه والموسيقى. وقد كان مؤنسه ومضحكه جندي قديم من كيش لعرايش، يسمى علي البلوط، يرفه عنه في غرفته كما كان يطلب أحيانا من الشيخات أن تغني له بعض الوصلات الأندلسية القديمة.

كما كان يعتني عناية خاصة بفرقة نحاسية شبيهة بالجوقة الحالية، لكن بدل حوالي 60 عازف كان هناك أكثر من 100 عازف بقائدين، تعزف كما هو الشأن اليوم كل مرة يخرج فيها السلطان ظهر يوم الجمعة للصلاة في القصر.

وكان له أيضا 10 عازفين على الكمان والرباب يدخلون إلى غرفه عندما يرغب في سماعهم، وقد كان المنبهي رفيقا حيويا ونشيطا يستشار في أمور الترفيه أو قضايا الدولة الصعبة، كان من عادته البث في جميع القضايا بما في ذلك تلك التي لاتدخل في اختصاصاته، مما جعل قواد القبائل الذين يميلون مع الريح القوية يلجأون إليه في أمورهم مباشرة دون المرور عبر البنيقات الأخرى، فأصبح المنبهي الوسيط الوحيد بين السلطان والقبائل، مما جعل أهميته تزداد يوما بعد الآخر.

ولم يكن المهدي المنبهي محط رضى جميع الوزراء الذين أصبحوا مهمشين ولايعلمون لماذا تصدر عدة قرارات دون استشارتهم، فأبدوا غضبهم من هذا الذي لم يعرفوه سوى مخزني. وكان أكثر هؤلاء غضبا الحاج المختار الوزير الأول. الذي عينه في هذا المنصب، وموحا التازي أقدم وزير في المخزن.

فاشتكوا إلى مولاي عبد العزيز من سير الأوضاع.

ـــ سيدنا إن هذه الوضعية الراهنة لايمكن أن تستمر على هذه الحال، إن وزير الحرب يعمل على الإستحواد على كل شيء، والبث في جميع القضايا وتسيير الشؤون، وبمباركتكم، لكل إدارات الدولة، إنه شاب مبتدئ، ليس له سوى خصال علاف، ومن أجل هذا استقدمه السلطان إلى المخزن، إن المنبهي لا يشعر أن بجواره وفوقه وتحته وزراء أكثر منه أقدمية في المنصب وأثبتوا جدارتهم طيلة سنوات. ونرى أنه من واجبنا إشعار سيدنا لأن سياسة وسيرا كهذا لايمكن أن يكون إلا سيئا ودون جدوى. وأنه ستحدث عنه مصائب لانريد أن نكون مسؤولين عنها.

فكر السلطان قليلا وقال للوزيرين :

ـــ أرى أنكم على صواب، حين فكرتما بهذه الطريقة وأخبرتماني بما يروج في ذهنكما وسأعمل على الحد من نفوذ هذا الذي يزعجكم.

فرغم إجابة السلطان هته، فإنه ظل مؤيدا للمنبهي. لأنه يعتقد في قرارة نفسه أن هذين العجوزين ليسا سوى حسودين. أما هو فإنه يتجاوب مع الشاب المهدي أكثر من الشيخ المختار. فأثناء وزارة باحماد ظل بعيدا عن كل شيء، وكان يحكم بإسمه أما الآن فله صديق يخبره بكل الأشياء ويستشيره ويتفهمه. فقد تقوت جناحاه وبدأ يفكر في الطيران وحده. أما مستشاروه فيتكلمون بأفكار قديمة لاتلائم سنه، ومن الأفضل تركهم وتهميشهم أكثرمن معاداتهم.

وكان السلطان يقضي أوقاتا كثيرة في التنزه رفقة وزيره الجديد : حيث نظم هذا الأخيرخرجات للصيد في ضيعة كبيرة بأكدال لقنص الأرانب والغزلان، والتمتع برؤية كلاب الصيد (السلوكي) وهي تجري بين الأشجار كالسهام. وكان كل يوم تقذف شهب /

مفرقعات اصطناعية ملونة في السماء تضيئ حدائق اكدال تعكس ألوانها على مياه الصهاريج المسابح الموجودة، وسط أعذب الألحان والأغاني، وحمل الخدم الحليب الطري المعطر وعصير الرمان والعنب. وقد كان المنظم والساهر على هذه الحفلات هو القائد ماك لان المقرب عند المنبهي الذي يزداد بدوره قربا وصداقة عند سيدنا، وكان قد جلبت عدة مفرقعات من اوروبا أغلبها من انجلترا يصل ثمن بعضها إلى أكثر من 10 كتب. لكن لا يهم فالسلطان يتمتع بالحياة، ولا يحب أن يرى حوله ما يغضبه ولاسماع المختار وهو يقول للتازي.

ـــ أنظر ! نعتقد أن سلطانا يمكن أن يحكم هكذا، إنها تفاهات صبيان.

وكان المنبهي قد علم باحتجاجات هذين الوزيرين، ويمكن أن يكون مولاي عبد العزيز هو من أخبره بذلك؟. لكنه لم يقل أي شيء بل ظل محتفظا بصمته منتظرا الفرصة المواتية للإنقضاض عليهما.

وقال يوما للسلطان :

ـــ هناك أناس في المخزن، عيبهم أنهم يجدون كل ما يقوم به غيرهم خاطئا، وهم لايقومون بأي شيء. فلو تعلق الأمر بي أنا، فإنني سأتركهم يتكلمون وأتابع إنجاز مهامي. أما أن يتعلق الأمر بالسلطان فأرى أنه تصرف غير مغتفر. فكيف يتجرؤون على مثل هذا يوميا، كما أعلم؟ فأنت سيدنا هو السلطان ! فلا يمكن أن تكون متسامحا أكثر مع مثل هذه الحريات غير المسؤولة. فامنع هؤلاء المشوشين الذين مسوا شخصكم المقدس / المحترم، فأظهر لهم حقا أنك أقوى رجل في المغرب. وأرهم فعلا أنك سلطانهم.

فأجاب مولاي عبد العزيز :

ـــ اترك ذلك؟ فلا بد أنه سيأتي يوم لذلك. . .

وكان الحاج المختار الذي كان عالما كبيرا مثل سي بوشعيب الدكالي الذي كان وزير الشكاية ينصح السلطان بالمقابل شغل وقته وباله بالكتب الجيدة، وأخذ أجود الأنواع الأدبية العربية والتاريخية التي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية بما في ذلك فتح المغرب، وأخذ العبر من جدوده في تسيير حياتهم اليومية فاستجاب السلطان النصوح واستقدم فقيها وكتبا. وبدأ يدرس يومان في الأسبوع الأدب والأبيات الشعرية الأقل صعوبة. لكن انتهى كل هذا بسرعة حيث تسرب إلى نفسه الملل لأن سن الأخذ في المدارس كان قبل سن السلطان بكثير؟ فعوض الكتب بزرع الأرانب في أكدال، وألعاب الصالونات القادمة من انجلترا، والدراجات الهوائية من عجلتين أو ثلاث عجلات. . التي تركبها نساء الحريم السلطاني. فرجع مولاي عبد العزيز إلى تمتعه وترفه.

يحدث كل هذا في وقت شرعت فيه القبائل في التحرك والتمرد، حيث اجتاحت القبائل البربرية لبني مكيلد وبني وارين وآيت يوسي كل جهاتها وهاجمت القائد عمر اليوسي في قصبته. فبعث المخزن لمواجهتهم محلة من 3000 رجل بقيادة الحاج الأمراني أهاشم. وعندما حاصر بعض المتمردين بقصبة تزنيت بعث المخزن رجالا آخرين لتحريرها.

وبقي السلطان في مراكش على نفس الحالة من الترفيه، حيث جيء بزوارق كهربائية لصهاريج أكدال. وأعتقد أن هذه الزوارق تعويض لمركب « الحسني» الذي اختفى بعد وفاة مولاي الحسن وتسريح طاقمها الإسباني وشراء فرقاطة صغيرة (البشير) Le Bachir. وكان المنبهي الذي ينتظر دائما فرصة الإنقضاض على الأوضاع، قد سمحت له الظروف المواتية لتنحية المختار وكل مناوئيه.

وقد كان الحاج مبارك بن بوشتى قائد أولاد بوعزيز (بدكالة)، الذي تقاسم السلطة على هذه القبيلة مع قدور الخلال القائد الثاني، يرغب كثيرا في أن يكون هو المولى والرئيس الوحيد. فجاءا معا إلى الوزير الأول، الذي علم أن مبارك قد أعطى قدور الخلال 80000 دورو (400000 فرنك) مقابل تنازله له. وستكون له بالتالي كامل الحرية في أخذالغنائم وقيادة فخدته. وقد كانت هذه الطريقة معمولا بها، وكانت وسيلة تدر الكثير من الأموال على خزينة المخزن الذي كان يعمل على مضاعفة مبلغ الاشتراء.

وكان مبارك يتوفر على هذا المبلغ كله ومستعد للأداء.

فقال له الوزير الأول :

ـــ جيد ! لكن من أين لك بتلك الأموال التي تريد أن تشتري بها مكان / منصب قدور؟ فإنه مبلغ لايمكن أن تكون قد أخذته من القبيلة. ولقد اقترضته من أحد البنوك الأوروبية، لأنه مستحيل أن تبقى محافظا على مبلغ مالي كبير مثل هذا، وتعلم أن تصرفا مثل هذا لايقره الدين والرسول صلى الله عليه وسلم. إن هذا عمل حرام، ولا أقر هذا الشراء. فارجع إلى بلدك واستحيي مما فعلت !

فوصل هذا الكلام حرفيا وتوا، إلى وزير الحرب الذي حكى ذلك إلى السلطان، خاصة أن القصر كانت له عدة نفقات. وأنه سينتفع بهذه الأموال النازلة من السماء. وأن هذه الأموال ستضيع ونحن في حاجة إليها.

ـــ هل تفهم، سيدنا، مثل هذا التصرف؟ ما العيب في الإبقاء على أشياء كانت معروفة منذ أجدادنا؟

أترى سيدنا؟ إن لك وزيرا أولا لا يعرف شيئا في مجال الأعمال والأموال. فعليه أن يعلم أنه يجب أن يكون من أولى اهتماماته تلبية رغباتكم، سيدي وبمختلف الأشكال.

فقال السلطان :

ــ أعرف ! لكن لتغييره لابد أن أجد أحدا. من تريد أن نضع مكانه؟ فأنا لاأعرف أحدا أكفأ منه.

ــ موجود !

ــ من هو؟

ــ سي فضول غرنيط مثلا.

ــ من؟ أين هو؟ فأنا لم أره قط.

فقال الآخر :

ــ أنا أعرفه سيدنا، لقد كان وزير الشؤون الخارجية في المخزن على عهد والدكم سيدنا مولاي الحسن رحمه الله. وقد كان محبوبا عند باحماد الذي قال له عندما جاء يحتج عليه عندها عين حولك الوزراء الجدد : « سي فضول، إذهب إلى منزلك ولاتقلق فلن تحتاج لأي شيء، فإنني سوف نأتي إليك ونعطيك ما ترغب فيه. » وقد بقي ينتظر وأعتقد أنه حان الوقت للوفاء بما وعد به الوزير المرحوم.

وهذا ما تم بالفعل.

كان سي فضول غرنيط مقيما بمنزل في مراكش. وعندما خرج المنبهي من القصر ذهب إليه وقال له :

ــ سأعينك وزيرا أولا.

فقال له الآخر مندهشا :

ــ المنبهي ! إذا قمت بهذا فسأكون لك ممنونا جدا. فبمجرد أن أصبح وزيرا أولا، سأكون خادمك، وسنسير معا اليد في اليد.

ــ إذن اعتبر الأمر كما لو حصل بالفعل. فأنا أرغب كثيرا أن تكون أنت في مكان المختارالذي يحاول دائما أن يبصق في وجهي، ويقول لمن يريد أن يسمع له أنني (عروبي) من عائلة غير متعلمة كأرض يباب متحجرة. فأنت على الأقل تعرفني، لأنني أصلح للحروب ولن تتصرف كالمختار. ولهذا منحتك مثل هذا المنصب.

ــ اجلسني على ذلك الكرسي أولا، وسترى فيما بعد !.

وفي اليوم الموالي وأثناء المخزنية (حصة استعراض المخازنية بالقصر) نادى مشاوري (أحد رجال قائد المشور) على سي فضول غرنيط إلى القصر. فقدم إلى المنبهي الذي رأى

(غرنيط) أن له مكانة رفيعة في المخزن. فنهض وقام لإستقباله في وقت كان فيه الوزير الأول سي المختار عند السلطان للتوقيعات. ثم وصل المتواطئين إلى بنيقة الوزير الأول.

فأدخل المهدي غرنيط إلى البنيقة، أمام مكتب المختار الصغير وأجلسه، والتفت إلى الكتاب الموجودين المستغربين مما يرون إلى درجة سقوط الأقلام من أيديهم وقال لهم :

ـــ اسمعوا أوامر سيدنا : هذا هو الوزير الأول سي فضول غرنيط فانحنى الكل محيين. وقد كان قائد المشور سي محمد بن العالم على علم بكل هذه التحركات والعمليات قد فوجئ ! أليس هو المسؤول على إدخال الأغراب إلى القصر وطلب سبب الزيارة؟ فلقد نصب شراكا إلى صديقه المختار، لكن ما الذي بوسعه قوله أو فعله؟ أليس المنبهي أكثر قوة كسابقه باحماد زمن مولاي الحسن؟ فانحنى بدوره للوزير الجديد كأنه لا يعلم شيئا.

وهاهو الحاج المختار يخرج من مكتب سيدنا راجعا. فانحنى على بلغته ليأخذها. فجاءه أحد كتابه الأوفياء، وأوقفه وهمس في أذنه :

ـــ إلى أين أنت ذاهب الآن سيدي ! لقد شغرت بنيقتك.

فقال غاضبا :

ـــ آه ! جيد !

ثم أعطاه الأوراق التي كانت بيده واتجه نحو الباب، حيث مر بعيدا عن بنيقته. فانحنى أمام غرنيط الذي كان جالسا في بنيقته فبارك، ثم خرج، وبمجرد وصوله إلى منزله، جاءه أمر بمغادرة مراكش نحو مكناس حالا. فقال لمن جاءه بالأمر.

نعم أنا مستعد، لاأطلب أكثر، فأنا مسرور بالذهاب توا. لكن كيف أستطيع حمل امتعتي؟ يلزمني أكثر من 30 بغلة.

وبعد ساعة أحضرت إلى بابه البغال الضرورية. فأعد رحيله ليلا، وفي الفجر غادر مراكش عبر باب الخميس. ووصلت القافلة إلى سيدي بوعثمان حيث قضت الليل. لكن في صبيحة اليوم الموالي أحيطت البغال التي كانت تعد للرحيل من جديد بوحدة من فرسان المخزن الذين تركوا نساء وخدم القافلة جانبا، ثم أخذوا الأمتعة وقالوا للمختار !

ـــ كل ما يوجد بين أيدينا الآن هو للمخزن ويجب أن يرجع حالا إلى مراكش. فنحن لا نطبق إلا الأوامر.

فأجاب العالم :

ـــ نعم ! لقد كنت أنتظر ذلك. لكن أرجومنكم أن تتركوا هذه « الشواريات »[7] فليس بها إلا كتبي، أصدقائي الحقيقيين. ومن بينها صحيح البخاري الذي أعزه أكثر من عيناي، فلا يمكنكم أخذها.

فتش الرجال، ولم يجدوا سوى كتبا كبيرة يعلوها غبار الطريق. فقرروا أن يتركوا له الشواريات (وكان الناس يقولون أن باطن تلك الشواريات كان كله ذهب. قد يكون ذلك صحيحا ! ومن يدرينا؟، كما تخلي له عن بعض الأغطيات، وزربيات أو ثلاث وألبسة قليلة جدا للإستبدال، ثم تابع الطريق نحو مكناس في حين عاد المخازنية محيطين بالبغال التي تحمل ثروة الحاج المختار بن عبد الله بن احمد [8] إلى مراكش.

وهذا ليس كل ماحدث، فبينما كان قائد المشور سي محمد بن العالم يمارس مهامه داخل مكتبه بالقصر، نهبت داره بأمر من المخزن، وعندما جاء لإمتطاء بغلته، قدم أحد ليقول له :

ــ ألا تعلم سيدي محمد !؟ لقد اعتقدتك متت !؟إن المخازنية الآن يعملون على تتريكك (أي تركه دون ثروة أو نهب أمواله وأمتهته).

فسارع المسكين المصدوم نحو منزله، حيث وجد الباشا العربي بن عبو المكلف بتنفيد العملية الذي أخذه من يده وقال له :

ــ آسي محمد هذا يوم نحس، إنه شيء مقدر. ما العمل !؟ لكن لا تبقى واقفا هكذا تعال واجلس على الأقل هنا قرب الباب.

فأخذت أمتعته جميعها، ودخل ليجد غرفه الكبيرة مفرغة تماما. ولم يعد بإمكانه سوى الذهاب إلى مكناس مع بعض أمتعته المحملة على البغال، والحراس المنتظرين في الشارع. وأصبح خليفته فيما بعد : القائد قدور بلغازي من البخاريين.

وفي اليوم الموالي أيضا، اعتقل الحاجب : سي لحسن بمجرد وصوله للقصر، وأبعد إلى تارودانت وحل محله سي احمد الركينة التطواني.

وهكذا لم يبق في المخزن أي أحد من عائلة باحماد، كما أبعد أصدقاؤه بالطريقة التي حدثتك عنها.

وكان مجمل هذه الإجراءات والأحداث مؤشرا بالحيطة والحذر لأعداء المنبهي خاصة أن أحدهم وهو وزير المالية موحى التازي ينتظر بين الفينة والأخرى مجيء المخازنية لاعتقاله. وقد طلب، بتوسط من سي فضول غرنيط، مقابلة سي المهدي المنبهي. وقال له بأنه سيقدم استقالته للذهاب إلى الحج، تقبل طلبه، لكن بمجرد مغادرته مراكش أعطيه رسم بعد وجود مستحقات له عند المخزن. وهذا ما كان يطلبه (حيث نجى بأمتعته) فذهب إلى مكة، وعوض بالشيخ التازي الفاسي.

وهكذا ترى أنه من خلال يومين أو ثلاثة ايام غير وزراء مولاي عبد العزيز، فلم يعد هناك سوى رجال موالين للمنبهي أغلبهم شباب. ويبدو أن المنبهي قد ورث كل شيء عن

باحماد الذي كان مهتما به كثيرا في أثناء حياته. فقد رتب كل شيء ليحكم المغرب بشكل مقنع. لكن كان يوجد من ضمن الوزراء الذين عينهم « ثعلب » ذكي له نظرة ثابتة على المدى البعيد : إنه سي فضول غرنيط الذي يجلس في بنيقة الوزير الأول الذي يعمل على ممارسة مهامه على أحسن مايرام.

وقد قال يوما للسلطان.

ـــ يجب علينا أن نبعث سفراء لأوروبا، لأنه من الأفضل أن نربط علاقات « ديبلوماسية » مع القوى الكبرى المغربية، خاصة أن لها بنوكا كبيرة [9] وامتيازات عدة.

فقال السلطان :

ـــ إنها فكرة جيدة. لكن من سنبعث؟ وإلى اين؟

ـــ أعتقد أن سفيرا واحدا غير كاف للقيام بكل المهام. حتى لا نثير تحاسد النصارى. فلهذا أرى أن تكون لنا سفارتان : الأولى إلى فرنسا برئاسة وزير الشؤون الخارجية سي عبد الكريم بن سليمان المؤهل لمثل هذه المهمة (للإشارة فإن سي عبد الكريم هذا هو الذي عوض سي فضول غرنيط عندما طلب منه باحماد مغادرة سكناه). وسنعززه بثان : سي محمد الكباص (خليفة وزير الحرب). أما الثانية فستعطي انجلترا وألمانيا، الذين أرسلوا إلينا سفراء، هذه السفارة بشؤون الحرب وسيكون على رأسها وزيرنا في الحرب : سي المهدي المنبهي بإعانة من الكاتب الحاج عمر التازي والقائد ماك لان.

وبعد مرور عدة أيام، استجيب لوجهة نظر غرنيط، وغادر السفراء المعنيون البلاد (1 يونيه 1901).

إنها عائلة / منزل المنبهي في الواقع التي ذهبت بكل أعوانها. فأصبح الوزير الأول سيد الوضعية وأصبح يتقرب شيئا فشيئا من السلطان وأصبحت مكانته تترسخ يوما بعد الآخر. وكان يقدم النصائح للسلطان بين الفينة والأخرى ويعمل قصارى جهده ليوجه الأمير نحو أمور أكثر جدية.

وقد قال للسلطان :

ـــ سيدنا، لقد اشتغلنا مع آبائك من أجل المصلحة العامة لهذا البلد. ولكي تصبح بالفعل أميرا سأدلك على الطريقة المثلى : فتدخلات المنبهي غير المتناهية، وحفلاته التي ينظمها من أجلك، يهدف منها إزالتك من على عرشك والحكم مكانك. لقد كان يريد أن يزج بك في طريق خاطئة، بل الأدهى من ذلك أنه يريك أن كل الأمور على أحسن مايرام.

أنصت السلطان بكل برودة لهذا الكلام، لأنه كان لا يحب أن يذكر صديقه بسوء. لكن مادام هذا الأخير بعيدا عنه الآن، فإنه محتار في أي الآراء والطرق يتبع. وقال في الأخير للوزير الأول :

نعم، ما قلته صحيح، فالسلطان يجب أن يحكم لا أن يمزح.

وبدءا من هذه اللحظة شرع سي فضول غرنيط في الحكم الفعلي.

وفي الوقت الذي كتب فيه إلى ادريس بن يعيش بالمجيء إلى مراكش إلى جوار السلطان اعتقل عيسى بن عمر قائد عبدة : حيث غادرت محلة كاملة : جنود نظاميون وخيالة ومدفعية بقيادة سي قدور بلغازي قائد المشور، عززت فيما بعد بوحدات دكالة واحمر وعبدة، مراكش تجاه طريق آسفي، حيث وصلت إلى دار سي عيسى وإجتاحت أملاكها واعتقلت القائد، ورجعت بعد ثلاثة أيام وقد انجزت مهمتها.

وبوصول ادريس بن يعيش إلى مراكش، أدخله غرنيط إلى القصر ونصبه قائدا للمشور بينما خلع قدور بلغازي من عبدة، وأرسل لتعويض ابن يعيش في تطوان.

وهكذا بدأ نفوذ غرنيط يزداد يوما بعد آخر، في حين أصبح أتباع المنبهي الذين اختفى رئيسهم مهمشين قلقين، وكانت آخر ضربة عنيفة تلقوها هي تعيين وزير حرب جديد : الحاج عبد السلام بن شكرة الزمراني، في وقت كان يستعد فيه الوزير القديم للرجوع.

وأقنع السلطان بأن وزيره القديم، الذي لم يكن سوى مخزني، مدين في أمواله ومنازله الفارهة للمخزن، حتى إنه أصبح يعرف كابن عائلة كبيرة ميسورة. فكل ما في ملكه هو للسلطان، الذي ليس عليه سوى إعطاء أمر لإسترجاع هذه الأشياء. الم يفعل الشيء نفسه الحاج المختار؟

لكن مولاي عبد العزيز كان مترددا بعض الشيئ في التضحية بصديقه القديم تاركا البث في الأمر إلى حين رجوع المعني بالأمر من سفارته حيث سيقف على نتائجها، وبالتالي التفاهم معه أكثر. لكن لم يكن يرى مانعا من حراسته ومراقبته بمجرد وصوله إلى طنجة. فأعطى غرنيط تعليماته بهذا الخصوص ليس فقط إلى حراس السواحل، بل حتى إلى حراس أبواب مراكش وباعتقاله أثناء مروره بها، وقيل أيضا إنه على طول الطريق الساحلية إلى مراكش كانت مراكز حراسة تترقب وصوله إليها.

وكان المنبهي الذي يسافر رفقة القائد العربي - مول الفراك حاليا، في عهد مولاي يوسف، والذي يحمل على رأسه عمامة كبيرة، قد علم بالخدعة المدبرة، ولكن لاأعلم كيف علم بذلك؟فيمكن أن يكون قد أخبر إما في برلين أو في مرسيليا. وفي الوقت الذي

كان ينتظر فيه وصوله إلى طنجة، وصل مساء ذات يوم على متن سفينة انجليزية إلى مازكان(الجديدة)[10]. وانتشر خبر وصوله، فسارع الناس إلى الميناء، بعضهم فرح مسرور من هذه العودة، والبعض الآخر مغضب قلق يدفع بيده المتزاحمين لرؤيته لم يكن هذا هو الإستقبال اللائق يأخذ المقربين عند السلطان، ولم يكن الوصول شبيها إطلاقا للناس الذين يتدافعون اماما في الطريق :

ـــ أرجوكم، فأنا متعب من السفر في البحر، اتركوني أسيرأمامكم واتبعوني وجاء باشا مازكان الذي لم يتوصل بأي أمر من مراكش باعتقاله. هل يجهل فعلا بما يحدث أم أنه ماكر محتال؟ فقال له الوزير السابق :

هيىء لي الحمام فأنا بحاجة إلى استراحة أكبر.

فقال الناس :

ـــ إذهب ياسيدي وخد حمامك بسرعة وارتح، لأنه، وبعد قليل في المساء، سوف يأتي مخازنية سي فضول لإعتقالك حين تكون في الحمام.

لكن هاهي بعض الخيام قد نصبت بالقرب من المدينة : إنه القائد سي الطيب الكندافي الذي كان مارا صدفة بالمنطقة، مع عدد مهم من أتباعه حيث سيعسكر أمام أبواب الجديدة. فذهب المنبهي لزيارة صديقه. وأرسل كاتبه ليقول إلى باشا مازكان :

ـــ إن سيدي، سيذهب مع بعض أصدقائه لزيارة زاوية مولاي عبد الله [11]، وأنه لن يأخذ حمامه إلا بعد رجوعه.

وفي حدود وقت العشاء، ركب فوج الزوار خيولهم، وقد كان منهم وزيرنا القديم الذي يحمل في عرض سرج جواده بندقية انجليزية حديثة الصنع وكيسا يحتوي على بعض أجود أنواع الرصاص، مع بعض عبيده السود. وكنا نلاحظ غياب مالك لان الذي بقي، حذرا، في أوروبا والذي لن يرجع إلا بعد ذلك. كما كان بعض القواد في هذا الموكب، مثل سي الطيب الكندافي واحمد بن العربي الذي كان يتهيأ أيضا مع خليفته، والقائد ابن الجيلالي. فاختفى الموكب في اتجاه زاوية مولاي عبد الله.

لكن بدل متابعة السير في الإتجاه الذي قالوا عنه، انعرجوا نحو مراكش، حيث انطلقوا بسرعة كبيرة وقضوا الليل كله تحركا ليصلوا في الصبح إلى مطل [12]، وهي منطقة في مرتفع بين دكالة والمنابهة حيث توجد بعض آثار قصبة برتغالية. فتوقفوا كثيرا لأن الخيول قد تعبت وكلت. ثم وصلوا بعذ دلك إلى دار القائد المنبهي التي أقاموا فيها بعض الأيام للإعتناء بالضيوف واستبدال الخيول. وطلب المنبهي من القائد الكندافي أن يصحبه

وأفراد قبيلته إلى مراكش. وفعلا اتجه الموكب نحو العاصمة، وفي الطريق أخبر الفلاحون الراجعون من السوق أفراد الموكب أن حراس الأبواب قد اعطيتهم أوامر بالقبض على المنبهي. وبالوصول إلى جبل جليز، بقي جل أفراد الموكب في الوراء، في حين إتجه الوزير مع الكندافي وحدهما أماما، وعندما بدت لهما أسوار باب دكالة، تنكر الرجلان في لباس مخزنيين، فسار بهدوء على طول الأسوار ليدخلوا من باب القصيبة، الذي هو باب من أبواب القصبة التي يمكن أن يدخل منها مخزنيين لإطلاع الباشا على انجاز مهامهما. ولما كان الحارسان يشربان الشاي، وملتفتين خلفا، انطلق أحد الفارسين ملثما يجري بفرسه فقال أحد الحراس :

ــ إني أعرف هذا الفارس، إنه المنبهي، الوزير القديم.

لكن كان الوقت متأخرا، فقد وصل هذين الرجلين بسهولة إلى دار المنبهي حيث سيقفون فترة من للراحة.

وقد شاع خبر هذا الرجوع بين الناس، حيث تناقل الخبر من دكان إلى دكان ومن سوق إلى آخر. إلى أن وصل النبأ الى القصبة حيث اعلم بذلك السلطان، الذي طلب المنبهي ليعلم نتائج سفارته فبادر المنبهي بسرعة إلى اطلاع مولاي عبد العزيز بكل ما أنجزه، ثم قال :

ــ سيدنا ! ماذا يريد أصحابي !؟ إنهم يريدون اعتقالي، فالحمد لله الذي مكنني من رؤية السلطان مرة أخرى. إنها الخيانة إذن !؟

ــ لا، يا المهدي، فأنا لم أخنك، وإنما كنت خائفا على حياتي، فقد كنت أخشى من السم إن أنا تمسكت بك، ثم إنك كنت بعيدا. فغيابك ترك في نفسي أثرا سيئا، وكنت أظن أنك لن ترجع، لكن ها أنت الآن قد عدت، فاهدأ فكل شيء سيسير على أحسن مايرام.

فخرج المنبهي من القصر مزهوا متبخترا لا كما دخل إليه.

لقد علمت كل مراكش الآن أن الوزير القديم قد رجع، وأنه قد استقبله السلطان، وأنه قد جاء بأشياء عجيبة ومهمة من بلاد الروم. ثم اجتمع كل من قال فيه سوءا في غيابه، للتشاورفيما بينهم خوفا من انتقامه. فسارع قائد المشور ادريس بن يعيش إلى سي فضول غرنيط الذي يبدو هادئا ليخبره بما وقع. فقال له غرنيط :

ــ نعم، فأنا على علم بالخبر، لقد أفلت من بين أيدينا، والآن، ماذا ترى أنه سيحدث؟ فإن الكلب لم تعد له أنياب يعض بها. فلقد أحرقت أوراقه عند السلطان، فغدا يجب أن نكون لبقين ومرنين ومحتالين لكي تدبر له مكيدة قبل أن يديرها هو لنا.

ـــ ماالذي تريد فعله؟

ـــ سأسجنه غدا صباحا عندما سيأتي إلى القصر. إنه حتما سيأتي غدا صباحا.

ـــ لكن هل ستعتقله هكذا دون اوامر.

ـــ لم لا؟ فليس على السلطان سوى الصمت. . حين اعتقاله فسترى.

وقبل أن يغادر المنبهي القصر كان قد أخذ من السلطان الإذن بإطلاق سراح صديقه القائد عيسى بن عمر، ثم ذهب إلى باشا القصبة العربي بن عبو، الذي كان بدوره من أتباعه فأعطاه التصريح باطلاق سراح السجين الذي أخذه معه إلى منزله.

وفي اليوم الموالي، كان سي فضول غرنيط قد أعطى الأوامر باعتقال هذا القائد بمجرد وصوله إلى القصر، لكن لم نكن نعرف متى سيكون الإعتقال هل حين دخوله أم خروجه من الإستقبال لقد كان الكل يترقب هذا المشهد التاريخي.

وحوالي الساعة الثامنة وصل المنبهي رفقة سي عيسى بن عمر الذي لم يكن مجيئه وظهوره منتظرا - على البغال وخلفهما المنابهة وكنداقة على الخيول مسلحين مستعدين للمواجهة. فكسى هؤلاء الفرسان كل ساحة القصر، لايعرفون ماذا ينتظر منه. وهكذا دهش الذين شتموا المنبهي في غيابه، من هذا الدخول الرائع وغير المنتظر. فأطرقوا يفكرون مطأطئين. ومر المنبهي بكل تبختر أمام بنيقة بن شكرة الذي حاول عبثا الإختباء وراء قمطر مكتبه الصغير. هؤلاء الفرسان الذين لا ينتظرون سوى الأمر بتنحية أسيادهم.

فقالوا :

ـــ لقد جئنا في الواقع لاعتقال هذا الرجل، لكن يبدو ذلك شيئا مستحيلا. فهاهو قد دخل بكل اعتزاز وفخار إلى هذه الدار ولانعلم ماالذي جرى بينه وبين سيدنا في المساء؟ ثم، انظروا إلى سي عيسى بن عمر الذي كان سجينا بالأمس، بجواره وكل جنوده مسلحين. فما العمل؟ من الأحسن الإنتظار بعض الشيء.

وعلى القرب من صهريج صغير في ساحة البنيقات جاء عبد أسود من « موالين الدحو »[13] يجري، ويصيح بصوت مرتفع.

ـــ المهدي ! السلطان يطلبك.

فبقي سي عيسى الواثق من جريان الأحداث لصالحهما، في الخارج مع أتباعه في حين دخل المنبهي في حوار مع سيدنا. ماذا تقولون؟ فلقد استرجع سي عيسى كل نفوذه القديم على عبدة بفضل هذا الذي كان من المنتظر اعتقاله. أما سي فضول غرنيط فقد انسحب إلى

منزله متثاقلا وقد ازدادت حرارة جسمه (حمى) حتما مرتعدا كله، كما اختفى ابن شكرة على بغلته، وهكذا استعاد هذا الذكي بنيقته.

وقد كان الكل غير قادر على متابعة ما يحدث.

ــ جيد ! فها هو ادريس بن يعيش يتجه نحو المنبهي، ويتبادل معه التحايا بحرارة فأمسك العلاف بيده وذهبا معا، ليصلا عند عيسى بن عمر ذي الوجه المتلألأ الفرح، لأنه أصبح من جديد قائدا على عبدة، وأصبح صديق من جديد وزيرا، ولم يكن في هذا الواقع هذا هو المشهد المنتظر، لكن علينا أن ننتظر، لأن الرياح التي كانت تأتي من الشمال أصبحت تهب الآن من الجنوب.

واستدعى المنبهي ابن يعيش إلى وجبة غداء، ثم قال له عندما كانا راكبين في اتجاه منزله :

ــ إن البغلة التي تركبها من الدرجة الرابعة لا تليق بمقامك ومهامك.

ــ فقال الآخر :

ــ لقد جئت من تطوان منذ مدة قصيرة فقط، وهي الوحيدة التي أملكها الآن.

وبمجرد وصولهما إلى المنزل، أهداه المنبهي بغلة « بسريجة « حمراء، وكيسا من 2000دورو (10000فرنك فرنسي). فقال ابن يعيش مسرورا :

ــ حفظكم الله، ورضي عنكم.

فقال المنبهي.

ــ جيد فنحن أصدقاء، وأنا سعيد بلقائك. لكن قل لي بصراحة، مارأيك في كل هذه المهزلة ألا ترى معي أن أناسا مثل هذا القرد العجوز غرنيط حقودين ولاتستطيع فهم تصرفاتهم؟ فكيف تصدق أن رجلا أنا من بحث عنه وعينه وزيرا أولا، لأنه مسن ومجرب ليكون لي عونا عند النصح، ينتقم مني بهذه الطريقة؟ لا أصدق ! إنه ناكر للجميل، جبان، خائن.

فأجاب قائد المشور.

ــ أنت على حق سيدي، ولكن لايمكن أن أخبرك بأي شيء لأنه لاعلم لي به. فأنا لم آت من تطوان إلا منذ مدة قريبة لأعين قائدا للمشور مكان قدور بلغازي، فأنا وافد جديد إلى هذا المخزن، كالطفل أجهل كل شيء. لكن أؤكد لك أني لست منحازا لأي جهة.

فقال المنبهي :

ــ أنا واثق من تصرفك، وأشكرك على ما قمت به صباحا.

لكن أنصار غرنيط لم يرموا السلاح بعد، بل كانوا يفكرون في اللجوء إلى العنف، حيث قرروا إغتيال المنبهي سرا يوم الجمعة الموالي عندما يأتي للصلاة. لكن أحدا ما أخبر مولاي عبد العزيز بالمؤامرة التي تدبر ضد صديقه المفضل. فطلب منه أن يبقى في منزله ذلك اليوم، ففشلت بالتالي العملية.

لكن السلطان الذي تعب من هذه الدسائس والصراعات التي تمزق كيان المخزن، والذي خاف أيضا من أن تؤدي هذه المشاكل إلى مواجهات دموية، قد قال بعد أن فكر في الأمر جليا.

ــ إنه انا من يجب عليه أن يرجع النظام إلى صفوف المخزن، وتذكير وزرائي المتصارعين بمهامهم. والحل الوحيد هو أن يرجع المنبهي إلى منصب وزير الحرب قبل أن يعين سفيرا، وأستغني علي ابن شكرة هذا الذي لم أر منه أي شيء.

وفي اليوم الموالي استدعى كل المخزن إلى القصر بما في ذلك قواد الرحى والأفواج النظامية وعند اجتماعهم جميعا قال :

أعين عليكم من جديد سي المهدي المنبهي، وزيركم في الحرب، المعروف عندكم بهذه الصفة.

وقد عينت أيضا سي عبد السلام بن شكرة باشا على مدينتنا تازة.

ثم جمع كل وزرائه في مكتبه وعنفهم بالكلام، القاسي، حيث لامهم عن تحامدهم فيما بينهم مما يتنافى مع سنهم وثقافتهم ووعيهم.

ــ إني أوصيكم جميعا، بأن لا يتعدى أحد مهامه المنوطة به، التي كلفناه بها. إنكم كلكم مستشارون في شؤون الدولة، ولاأميز أحدا منكم عن الآخر. إني أحبكم كثيرا، لكن أحذركم جيدا، فأول من سيزيغ منكم عن طريق سينال عقابا شديدا.

فوزيرنا الأول سي فضول غرنيط، ووزيرنا في الشؤون الخارجية هو سي فضول غرنيط، ووزيرنا في الشؤون الخارجية هو سي عبد الكريم بن سليمان ووزيرنا في الحرب هو المهدي المنبهي ووزيرنا في المالية هو الشيخ التازي، وقائد مشورنا هو سي ادريس بن يعيش، وحاجبنا هو سي احمد الركينة. فأريدكم أن تكونوا متحدين كأصابع اليد الواحدة. وهذا شرط أساس لكي يمكن لهذه اليد التي هي أيضا يدنا أن تشتغل وتعمل. فإن لاتنافر

ولاتعارض ولاعداوة فيما بينكم، أريدكم أن تكونوا أعضاء من عائلة واحدة، عائلة المخزن، وأطلب منكم الآن أن تتصالحوا جميعا أمامي.

فتصافح الوزراء فيما بينهم بحرارة كما لو أنهم عادوا من سفر طويل.

وبعد هذا اللقاء، عاد الوزراء فرحين كما لو أن كل واحد منهم أخذ في يده فأسا لتحطيم المخزن، وتكوين ثروته الشخصية.

ورغم كل مراسيم الصلح هته، فإن الوزير الأول كان ينتظر دائما الفرص لإسقاط والإنقضاض على المنبهي. لكنه لا يمكن أن يصل إلى أي شيء مادام السلطان في مراكش لأن المنبهي بها عدة أصدقاء وأتباع وقبيلته الأصلية قريبة أيضا. فكان يبحث عن طرق يرجع بها السلطان إلى فاس. فنودي على مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان، الذي كان خليفة تزنيت، جهة سوس، وجعلت مراكش مقرا لسكناه وأصبح خليفة للسلطان على الحوز وسوس.

فانطلقت المحلة بالشكل المعتاد (20 نونبر 1901) بعد إقامة ست سنوات في الجنوب. وصمنا رمضان (1319هـ)(14) بالرباط التي أقام فيها السلطان حتى يشهد احتفالات العيد الصغير (عيد الفطر). وقد كانت هذه الإحتفالات رائعة : ارتدت فيها أفواج القائد ماك لان بدلة حمراء جديدة شبيهة ببدلة الحرس الحالي، بأسلحتهم الجديدة والملمعة التي تمتع العين، وقد كان قائدهم يحضى باحترام الجميع، وكما كانت كتيبته من جنود شبان منتقين من القبائل المخزنية يصل عددهم حوالي 3500 جندي والمتبوعة بفرق الرشاشات Garner ـ Maxims ـ مكونين لجيش صغير، وقررالسلطان ترقية ماكلان إلى رتبة عسكرية مغربية كبيرة مثل الجنرال الفرنسي. ومنذها لم يعد يسمى ماك لان، إلا : كرونيل (تحريف الكلمة كولونيل). وقد كان تحت قيادته عدة مدربين انجليز من ضمنهم الملازم Verdon، الذي سيقتل فيما بعد في فاس سقوطا من احدى الشرفات، ثم أخ الطبيب Verdon الذي جاء إلى المغرب طبيبا لماك لان وعائلته؟ والذي جيء به أيضا لمعالجة باحماد المتوفى. والذي كان يتدخل أحيانا في شؤون المخزن بفضل تأثير ماك لان.

وكان في الميناء فرقا طتان (15)، حملت سفيرين فرنسي وانجليزي استقبلا في القصر وقد كانت تطلق هاتان السفينتان أضواء على البحر والمدينة. كما كانت مناورات للقصف بالمدافع على هدف جعل في البحر في أعالي القبيبات حتى يتمكن السلطان من تتبع المشهد من قصره. وقد كان الفرنسيون يقذفون بدقة كبيرة نالت إعجاب المتتبعين.

وبعد إقامة شهرين أو ثلاثة اشهر ذهب السلطان إلى مكناس. وبعد بضعة أيام دخلنا فاس وسط أجواء الإستقبالات والإحتفالات المعهودة (مارس 1902).

الهوامش

1- وبالضبط من مارس 1896 إلى نونبر 1901

2- يتعلق الأمر بالسفير Sir Arthur Nicholson الذي جاء من آسفي في مارس 1896 على متن سفينة Arethuse، فوصل إلى مراكش في أبريل، ثم غادر المغرب عبر طنجة شاهدا على هدوء الأوضاع، حسب رأي سالم العبدي.

3- انطلقت هذه الحملات نحو سوس مابين أكتوبر ونونبر 1896.

4- لقد حدد الدكتور Weisgerber - الذي تابع محلة صخرة الدجاجة، لمعالجة الوزير المريض -الطريق الحقيقي لهذه العودة التي دامت ثلاثة أشهر.

(In trois mois de Camagne au Maroc:édit:1904).

حيث كان الإنطلاق يوم 21/ 1-1898 من ابن احمد ثم سطات (حيث أهدي للوزير باحماد10خيول عبيد ذكور) ثم سوق جمعة اولاد سعيد ثم مولاي بوشعيب قرب أزمور (يوم 15/ 3/ 1898). حيث تم عبور الواد على متن 20 زورق دام أربعة أيام من 12 إلى 15 وقد كان هنالك عدة غرقى، وإتلاف عدة بهائم، ثم سوق الأربعاء بدكالة ثم ثلاثاء سيدي بنور ثم امطل ثم السوينية ثم قنطرة واد تانسفيت يوم 25/ 31898 وفي الأخير مراكش عبر باب الرب يوم 62/ 3/ 1898. مما يعني أنه لم يكن هنالك توقف بقنطرة تانسيفت كما يحكي سالم العبدي إما الإجراءات التي اتخذت ضد الرحامنة لم تكن إلا في العيد الكبير (عيد الأضحى) من هذه السنة يوم 2 ماي (1898).

5- يتعلق الأمر بسفارة فرنسية(de:Monbel M) وسفارة ألمانية :

(Baron Scheux de Schwinberg)الذين جاء إلى مراكش في أبريل.1898

6- عوضه مولاي يوسف يوم 10 مارس 1924 بسي عبد الرحمان بن القرشي.

7- كيسين من سعف النخل أو الدوم، مجموعين بوسط يوضع على ظهر حمار أو بغل.

8- لقد كان شيئا عاديا أن ترد جميع ثروات الموظفين المخزنيين إلى السلطان. وكل ما أخذ من الشعب يعود إلى الخزينة. وهذا نفس ماطبق مع باحماد باستثناء قصر الباهية بمراكش.

9- علق الأمر في الواقع بتسوية الحدود الجزائرية المغربية، وتركيز نفوذ انجلترا ضد فرنسا وهكذا انطلقت السفارة الأولى (المنبهي والتازي) يوم 2 يونيو 1901 من الجديد على متن السفينة البريطانية Diaden لتصل إلى لندن ثم برلين (عبد الكريم بن سليمان وبناصر غنام ومحمد الكباص) وصلت إلى طنجة يوم 11 يونيو على متن البارجة Pothuau، لتذهب إلى باريز وسانت بترسبورغ (حيث يقوم سي غرنيط بمهمة ثمة، جاهلة هذا البلد البعيد).

(Saint-Réné-Taillander:Les origines du Maroc Fraçais,1930 chez -Plon .G)

10- وقد توفي القائد بن العربي الذي يتحدث عنه راوينا سنة 1939 بتواركة (بقصر الرباط) حيث ظل يمارس نفس المهام.

وكان المنبهي قد قرر الذهاب، وبسرعة إلى برلين، حيث سينزل ببريم.

11- على ساحل المحيط الأطلسي بعيد عن الجديدة بسبع كيلومترات.

12- يوجد ضريح سيدي رحال مطل على بعد 91 كيلومتر من الجديدة.

13- جماعة من العبيد يكونون هيئة داخل القصر، مكلفين بالنظافة بما في ذلك غرفة السلطان، ولكل فرقة صغيرة منهم قائدها الخاص تحت الإشراف المباشر للحاجب الملكي.

14- إن سالم العبدي مثله مثل سائر المسلمين الأميين، ليست له دراية حقيقية بالتاريخين الميلادي والهجري ورغم ذلك، حفظ هذه السنة بشكل دقيق.

ومن المعلوم أنه للحصول على مقابل للسنة « الغريغورية» أو الميلادية، فإننا نعمد إلى الطريقة التالية : حيث يكون حرف «ه» دالا على السنة الهجرية وهي السنة التي هاجر فيها النبي (صلعم) إلى المدينة يوم 16 يوليوز 622 م، ونجري العملية الآتية :

؟ السنة الميلادية هـ. -3هـ622.

15- لقد كانت هاتان الفرقاطتان هما : البارجة الأنجليزية illustions، والبارجة الفرنسية :Charlemagne: اللتان حملتا الوزير الأنجليزي Sir. Arthur Nicholson والوزير الفرنسي : M:Saint René Taillaudier إلى الرباط في مهمة لدى السلطان. وقد استقبل هاذان الوزيران بقصر القبيبات (مستشفى Marie-Feuillet حاليا) الذي كان مقر إقامة جلالته.

وكان هذا المجيء مؤشرا على بداية تصارع الفرنسيين والإنجليز للحصول على امتيازات بالمغرب.

ثـــورة بـوحـمـــارة

وبعد مضي مدة قليلة انطلقت محلتان نحو فاس. حيث ستعسكر الأولى بسيدي بودومة قرب وزان، بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني. أما الثانية فانطلقت نحو أراضي آيت يوسي. وقد كانت مهمة الأولى تقتضي جلب ضرائب المنطقة وحماية مدينة وزان المهددة دائما بهجومات جبالة رغم تأثير وقوة شرفاء وزان، أما مهمة الثانية بقيادة عمر اليوسي الذي كان في صراع مع قبيلته ، فتقتضي الذهاب إلى لوطا في منطقة إنجيل لإستخلاص الضرائب المتأخرة، وتأكيد نفوذ السلطان، خاصة أن أيت يوسي قد هاجموا ونهبوا قصبة قائدهم (يونيو، يوليوز 1902).

وقد كانت تضم هذه المحله كل الجنود النظاميين، وبعض وحدات القبائل، أما مدربو الوحدات الإنجليز والفرنسيون فبقوا في فاس.

ا ٠ نشوء وتطور حركة بوحمارة

وصادف هذه التحركات وجود رجل يمتطي حمارة رمادية اللون، يجوب أطراف المحلة متسولا، وفي الوقت نفسه مستطلعا ومتحسسا على أحوال المخزن، والوزراء، والتسلح، والمدافع، وعدد أفواج مولاي عبد العزيز إنه : الجيلالي بن ادريس اليوسفي الزرهوني الذي سوف يشتهر فيما بعد بإسم بوحمارة، لأنه كان يرى دائما ممتطيا حمارته. يتنقل بين وزان، حيث تعسكر الأفواج الشريفة. وفاس متجولا في الأسواق قرب دار المخزن. حيث يسجل كل الملاحظات التي سوف يستثمرها فيما بعد حين تمرده.

وقد كان شاهد عيان في الواقعة التالية التي جرت أطوارها بفاس : حيث دخل أجنبي أمريكي يقال أنه جاء لزيارة فاس [1] إلى ضريح مولاي ادريس. مع العلم أن ذلك محرم على غير المسلمين. فتجمع الناس حوله عند خروجه من الضريح وعنفوه، بل إن أحد «المتعصبين » رماه بالرصاص وقتله ثم دخل مستأجرا بضريح الولي.

فقرر السلطان الذي مل كثيرا هذه المشاكل التي يثيرها الناس – حيث إنه لم تكن تمر سنة إلا ويقتل أجنبي بهذه الصيغة، مما كان السبب في مجيء فرقاطات من « هيئة الأموات » إلى طنجة تهدد المدينة بمدافعها، إضافة إلى احتجاجات السفراء الطالبين بمعاقبة

المجرمين مع أداء غرامة مالية / دية كبيرة - إلى استدعاء « مجلس الوزراء» حيث أدلى كل واحد بوجهة نظره مما جعل هذه المحادثات تدوم وقتا أطول دون الوصول إلى نتيجة محددة.

فصرخ مولاي عبد العزيز في الأخير في وجه الوزراء :

ـــ قولوا ما بدا لكم ! أما أنا فلا أعرف الأسباب التي من أجلها قتل هذا المسيحي. أريد أن أرى هذا المجرم ليفسر لنا تصرفه. احضروه حالا فأنا في انتظاره.

وبعد لحظات وصل ذلك الرجل إلى دار المخزن بين يديه على صدره لوحة خشبية مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية، وكلام يثبت أنه من أتباع مولاي ادريس (شجرة النسب).

فخرج السلطان من مكتبه، وجلس على الكرسي وحوله وزراؤه. ثم قال القائد المشور ابن يعيش :

ـــ أحضر ذلك الرجل ومن معه، وشرفاء ومقدمي الزاوية والمشاورية.

فقال السلطان لذلك الرجل بعد أن أخذ منه تلك اللوحة وقبلها :

ـــ ماذا فعلت إذن بهذا المسيحي؟ ولم قتلته؟

ـــ لقد دخل، ياسيدنا إلى ضريح مولاي ادريس.

ـــ لكن إن مولاي ادريس هو من ناداه وأدخله بالقرب منه ! وأنت تجهل هذا !؟ فماذا كنت تفعل أنت هناك؟

ـــ كنت أقوم بالزيارة.

ـــ فالمسيحي أيضا كان يقوم بالزيارة. ثم ان ولينا باستطاعته أن يبارك في الناس أينما كانوا. والآن، أجبني من فضلك من أمرك بقتله؟

فطأطأ الرجل رأسه ثم قال :

ـــ لاأحد ! فعلت هذا لوحدي.

ـــ لكن ! لماذا قتلته؟

ـــ لأنه مسيحي غريب ليس من حقه تدنيس الزاوية.

ـــ آه يا ابن الحمار ! الذي لايعرف شيئا؟ أو لاتعلم أن المسلمين والمسيحيين واليهود كلهم إخوة، رغم اختلاف دياناتهم !؟ ثم إنه لقتل إنسان ما لابد أن يكون هناك سبب ما، أما أنا فلحد الآن، فلا أرى أي سبب لذلك.

ـــ سيدنا ! إن مولاي إدريس هو الذي قال لي أن أقتله.

ـــ آه ! جيد، فإن مولاي ادريس هو من قال لي الآن أن أقتلك أنت !

فقدم مولاي عبد العزيز الشرفاء والمقدمين وأعطاهم كيسا من 200 دورو لصندوق الزاوية، وقال للشرفاء :

ـــ أعتقد أنكم لا تعلمون خطورة تصرف هذا الرجل، فلو كان مولاي ادريس مكاننا الآن لقتله توا. فكروا بعض الشيء في المشاكل التي سيواجهها المخزن مع الأوروبيين، وفي جميع الديات التي ستعطاهم، واعلموا أيضا أنه لا يمكن أن أترك هذا الرجل دون عقاب. فقد مللت من اغتيالات الأجانب لسبب أو لآخر ولابد أن تعطى العبرة لمثل من يقوم بهذه العمليات، فقد أخطأ فعلا ذلك المسيحي بدخوله إلى ضريحكم، لكن ليس لدينا الحق في قتل من يخطئ أو يفعل سواءا. والآن انصرفوا.

فتجمع الجنود، وأعدموا ذلك الرجل بباب المكينة، وهذه هي الأسباب التي ستكون وراء ثورة بوحمارة القوية.

لقد تدخل السلطان في هذه الواقعة شخصيا، وقام بتحقيق مطول حتى يكون عادلا فيما يفعل : وهذا شيء لم يكن معتادا، فتكلم الناس عن هذه الواقعة في فاس كلها – وأهل فاس معارضون بالفطرة – وعن تفاصيل العملية والتحقيق، والإعدام، وقالوا بأن مولاي عبد العزيز قد أخطأ بتصرفه هذا، وأن ذلك المسلم فعل خيرا عندما قتل ذلك المسيحي، وأن ماقام به السلطان يعد مخالفة عظمى لمولاي ادريس، بل كان الساخرون المستهزئون يقولون :

ـــ إن على رأسنا / عرشنا، ليس ابن مولاي الحسن، بل هو إبن ماك لان إنه فارس أنجليزي !

وقد كان مولاي عبد العزيز، الذي يحب الخيول، يفضل ويقرب منه النقيب ogilvy رئيس الخيالة المغربية، حيث كان مختلف قواد الرحى : الطيب المديوني وابن سعيد الكركور، وعلال ولد الطيب وولد بوخشعة ومحمد المطيري تحت إشرافه. لقد كان متأثرا جدا بالإنجليز المحيطين به، وأعتقد أن هذا المسيحي المقتول من جنسية انجليزية. فقد كانوا موجودين دائما بالقصر، يلعبون بالدراجات الهوائية، وكرة المضرب ولعبه البليار. حيث إن ماك لان وباقي الإنجليز هم من يأتي بهذه اللعب من بلدهم. وكان يحضر معهم أحيانا مؤنس السلطان : علي البلوط، حيث كان المدربون الأنجليز معجبين من بهلوانياته ومستملحاته وحيله، وكان عندما ينزل إلى المدينة يحكي كل هذه الأحداث، عن الأمير / السلطان، والقفز على الحواجز بالدراجات الهوائية، والحفلات الموسيقية، والصور الفوتوغرافية التي

كان السلطان يلتقطها بمختلف الألبسة، مما جعل الناس يقولون بأنها تصرفات لا تليق بأمير / سلطان، وأعتقد أنه كان لهم الحق في ذلك. يحدث كل هذا، وبوحمارة يتتبع الأحداث في صمت دون أن يقوم بأي شيء.

وقد كان تزايد نفوذ الأنجليز في القصر من نتائج التنسيق الذي وقع بين وزير الحرب سي المهدي المنبهي وماك لان. أما المدربون الفرنسيون فقد همشوا بعض الشيء، حيث كانوا مكلفين فقط ببعض الطوابير الأقل تجهيزا وعناية، وبأجرة لا مقارنة بينها وبين الطوابير التي يقودها الأنجليز.

وقد أدخل هذا الوزير (المنبهي) نفسه أحد أصدقائه من الشباب إلى القصر، إنه الحاج عمر التازي أخ وزير المالية الشيخ التازي الذي لم تكن له مهام محددة [2]. حيث كلفه بكل ما يتعلق ببناء، وصيانه بنايات القصر، فأصبحت علاقته مع السلطان أكثر حميمية من صديقه حيث كان يتجول مع السلطان كل مساء في القصر يناقشان أمورالهندسة وأشياء أخرى. وعندما إقتضت الضرورة ان يبعث إلى أوربا شخص ثقة لشراء بعض الحاجيات اختير عمر التازي، ولما كان يعلم هذا الأخير، تعلق السلطان الكبير بالترك استقدم إليه ست حسناوات شركسيات يعزفن على البيانوا والكمان والقيثارة فسر السلطان من عمر التازي، وكلفه بعد أن استراح بعض الشيء باستقدام المزيد. ولما كانت هذه الأشياء من مهام الحاجب فإن سي أحمد الركينة قد أحس بالحرج والتهميش. فها هو شخص آخر استطاع أن يدخل إلى محيط السلطان ويحضى بالرضى والتفضيل، مما جعل المنبهي «النجم» يحس بدوره بخطورة هذا الوافد الجديد حيث أصبح مختلف القواد الذين كان المنبهي قد عينهم في سلك الجندية، يأتون بشكاية أو عقوبة أو قرار من وزير الحرب، ويدخلون به عند عمر التازي الذي سمع احتجاجاتهم وشكايتهم ويدخلهم بدوره عند السلطان الذي يبث في قضاياهم دون استشارة الوزير المعني. وهكذا بدأت ملامح الغنى والحضوة تظهر في عائلة الحاج عمر التازي.

لكن هل تظن أن بوحمارة الذي يتجول دائما في فاس يرى ويسمع ويلاحظ الفوضى في صفوف المخزن، وكذلك تلك الأهمية الكبرى التي أصبح يوليها السلطان للأوروبيين وتلك الأدوار التي يقومون بها من أجل الإكثار او استنزاف أموال القصر، وعدم التفاهم والإنسجام بين أعضاء الحكومة، والأحقاد والضغائن التي تفرق بين الشخصيات الكبرى التي لا تبحث سوى عن الإغتناء، لا يكترث بهذه الأشياء أي بالسياسة الداخلية للدولة التي تسير بشكل عشوائي كجري جواد دون فارس، لا، إنه متعلم وكان قد عمل مع مولاي الحسن في فيلق الطلبة المهندسين [3]، كما كان كاتبا لمولاي عمر خليفة السلطان على فاس ثم إنه كان ذكيا، ويقال عنه أيضا أنه كان يتعاطى بعض الشيء « للسحر». وفي

صباح أحد الأيام عندما ضبط ما سيقوم به، وسطر خطته وتصميمه كمهندس يفكر في بناء منزل ما، ركب حمارته الرمادية، وغادر فاس كفلاح من البوادي ليلتحق بقريته في الجبل وفي طريقه، عرج على القبائل الشرقية، ليزرع بعض البدور (بدور التمرد) التي سوف يحصدها عندما يكون في حاجة إليها ن وهكذا، زار الحياينة وبني سادن، وبني وارين واتسول وجيرانهم البرانس، وهي كلها قبائل موالية بعض الشيء للمخزن. وقد كان يحكي لأعيان هذه البوادي والقرى التي يمر بها عن الضعف الكبير الذي أصاب الحكومة، وعن ميول القواد والرؤساء إلى الأوروبيين، حيث لم يعودوا ينظرون إلى الأشياء إلا بعيون الأنجليز، وعن مشهد القتل في زاوية مولاي ادريس، وعن ملاهي وألعاب سلطان غير مقدر لقيمة عرشه. وعن الأموال المبددة بتفاهة وتبدير، وعن عدم كفاءة وزراء يتحاسدون فيما بينهم، وعن ضرورة تدخل المؤمنين الأقوياء لتصحيح الأوضاع، ولو بالعنف اتباعا لتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن كل ما يمكن أن يقال عن أوضاع فاس، ثم يذهب ويترك لهم جميعا بركته.

لكن نفوذه القوي لم يبدأ بالفعل إلا بعد وصوله عند غياثة، عقب مقلب أو حيلة سحرية سأحكيها لك :

فبينما كان ذات يوم يتحدث بكلامه المعتاد في إحدى القرى، عن الوضعية المزرية التي يمر منها المغرب والتي تفنن في وصفها حتى أصبحت أكثر سوداوية، طلب من مضيفه أن يهيء له الشاي، لكن لم يكن هناك « نعناع » فقال أحدهم إنه موجود عند فلان. فبعث بشخص لذلك، وكانت على بعد كيلو متر من مكان الجلسة « زريبة »[4] لأحد الفلاحين فيها بعض النعناع. فلما لم يجد ذلك الشخص أي أحد اقتحم الزريبة وأخذ ما يحتاجه من نعناع، وعند رجوعه وجد الفلاح (صاحب الزريبة) الذي وصفه باللص وعنفه كثيرا. فرجع ذلك الشخص إلى النوالة التي كان فيها بوحمارة منهكا ودون نعناع. فقال له :

ـــ ماذا حدث، فلقد تأخرت ولم تأت بشيء !؟

ـــ نعم أسي الفقيه، لقد ذهبت مسرعا، لكنها المواجهة والمشاجرة هي التي أخرتني. وحكى له القصة.

ـــ ماذا !؟ لقد تجرأ على فعل هذا ! وقال بأن النعناع له. جيد. فانظر ماذا ستفعل به بركتي.

وبعد قليل من هذا الكلام، اشتعلت النار في تلك الأخشاب والأشواك المحيطة بالنعناع. ويمكن أن يكون بوحمارة قد بعث أحد مستأجريه لإضرام تلك النار، خاصة أنه رأى تلك المواجهة من النوالة التي كان يجلس فيها، وقد يكون هذا مظهرا من مظاهر بركته، لست

أدري ! لكن كل من كان حاضرا تعجب من المشهد وسارع إلى تقبيل يده، فبللهم ببعض ريقه تبركا منه.

وقد كان لهذه الواقعة الغريبة أثر كبير في نفوس جميع الناس، وأدركوا أن بين ظهرانيهم شخصية قوية، بل حتى إن ذلك الفلاح الذي أحرق نعناعه قد جاء مستعطفا بالكثير من النعناع بين يديه.

فأخذ بوحمارة كل وقته، وقال بعد أن فكر مليا :

ـــ لقد عفوت عنك وسامحتك، وستذكر طول حياتك عواقب رفض إعطاء النعناع للشريف، أما الآن بالنسبة لكم أنتم، وتوجه نحو الآخرين، فقد سررت جدا لمشاهدتكم مظاهر قوتي، وأنا قابل لسلامكم وتحاياكم واحترامكم وخضوعكم. لأنه لو تماديتم في خطئكم لأحرقتكم جميعا، ولما بقي من قريتكم سوى الأطلال. لكن الآن، فلنشرب الشاي.

فانحنى الجميع معلنين استسلامهم وخضوعهم وولاءهم، ثم شرع في تفسير ومناقشة ما ورد في القرآن مع متعلمي الجماعة، ولم يجد أي صعوبة في التحكم في هؤلاء الرعاة. وقد كانت جميع الظروف مواتية ليقول بوحمارة لشيخهم :

ـــ هل تعرفني؟ هل تعلم من أكون؟

ـــ لا، لم تقل لي بعد من تكون !

ـــ سأقول لك إذن، وهذا سر بيننا لأنني أقدرك، أنا هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن.

ـــ ماذا !؟ أنت هو !؟

ـــ شت ! أسكت أريد أن يبقى هذا سرا.

ـــ آه ياسيدي ! إلى أين متجه فوق حمارتك؟

ـــ إني متجه نحو القبائل والبلدان لأجمع المؤمنين الحقيقيين المستعدين للبارود ! ولتنظيم محلة، وإرسال وحدة، ضد أفراد المخزن، الموالين للمسيحيين الذين يبددون ثرواتنا ويسيرون بنا في نهج الفوضى والإضطرابات، فسأنالهم جميعا وسأقطع رؤوسهم بحول الله.

ـــ لكن أين هي محلاتك؟ وأين ستجمعها؟

فقال بوحمارة ضاحكا :

ـــ يبدو أنك رجل طيب. فكل القبائل من الساقية الحمراء وإلى تافيلالت وإلى جنوب وهران قد بايعتني، ولا تنتظر سوى موافقتي لتنظيم محاربيهم وإعطائهم إشارة الإنطلاق.

ثم أخذ يبحث في جانبي برنوسه، ليظهر للشيخ رسائل موجهة لعنوان مولاي امحمد بن مولاي الحسن من سوس وحاحة والرحامنة ودكالة ودرعة وكل قبائل الجنوب والشرق.

لكن الشيخ، ومن خلال ما رأى وما سمع، لم يعد يستطيع حفظ السر، فشاع الخبر بين كل أفراد الجماعة، ومنها إلى باقي الناس حيث وصل الخبر بسرعة كبيرة إلى فاس. التي علمت أنه يوجد عند غياثة متمرد يسميه الناس بوحمارة، والذي بدأ في الإعداد والتمرد ضد المخزن.

فقال بوحمارة لغياثة :

ـــ لقد سبق لكم ياغياثة الأوفياء أن حاربتم إلى جوار مولاي ادريس، ومن أجل ذلك جئت إليكم.

ـــ إني أحب فيكم ياغياثة، صراحتكم واستقامتكم وحماسكم وانضباطكم في الحروب، وأريد أن يكون مخزني ووزرائي منكم.

وهكذا التف حوله كل اللصوص، والمتعطشين للنهب، وكل من يرغب في النقود والتشريف، والمعارضين ليكونوا جيشا قويا.

ويدأ القلق يتسرب إلى نفس السلطان الذي كانت تصله أخبار تقدم هذا التمرد. فكتب إلى الحياينة بتنظيم محلة ضد غياثة، وعززهم ببعض الفرسان، والقائدين المودن وبلخياط لقيادة العملية، فانتاب الخوف غياثة. فقال لهم بوحمارة :

ـــ ماذا !؟ هل أنتم خائفون ! مرتعشون من هذا الذباب !؟ إنه فعلا شيء مؤسف. لقد كنت أظنكم أكثر شجاعة مما أرى، ثم إنه ليس هناك ما تخافونه، أو ليست لي بركة، وأقول لكم صراحة، وباسم الله الذي يحفظنا جميعا أن كل من مات فجزاؤه الجنة.

وبعد هذه الكلمات، تقدم الفرسان، وأعطى الأمر بالانطلاق لجنوده المحيطين به لمواجهة الحياينة الذين يتقدمون. وهكذا لم تفتا مظاهر بركته أن تبرز، فلم يطلق الطلقات الرصاصية الأولى حتى أرعب الحياينة وتراجعوا بسرعة إلى الوراء تحت مطاردة بوحمارة وغياثة. فأحرقت النوايل، وجمع الأسرى مع القطعان، لأن الحياينة طوردوا وعنفوا وسط أراضيهم. ولما جمع بوحمارة الأسرى قال لهم :

ـــ ها أنتم الآن بين يدي ! أفعل بكم ماأريد ! ماذا تفضلون أن تكونوا محمديين معنا، نحن الورثة لعرش مولاي الحسن أم «كرونوليين» مع أخي الشقي مولاي عبد العزيز؟

ـــ نريد أن نكون محمديين.

ـــ إذن فأنتم أحرار، يمكنكم الذهاب إلى أهاليكم، لأنني لم آت لإثارة الشغب والفوضى، لكن لأنشر النظام فيما بينكم، وإسعاد المؤمنين الحقيقيين. فعمت الفرحة والسرور بين صفوف المحاربين، واطلقت الرصاصات إعلانا للفرحة والبهجة وصاح غياثة والحياينة :

ـــ الله ينصر مولاي امحمد ولد مولاي الحسن !

وهاهو الآن الجيلالي بن ادريس أو بوحمارة قد اصبح سلطانا، في حين لازال مولاي امحمد الحقيقي دائما في السجن.

وبعد هذا الإنتصار الصغير ومبايعة هاتين القبيلتين، انطلق بوحمارة رفقة حراس أقوياء، تاركا إطلاق النار متبادلا وراءه، نحو بني وارين. وقد كانت هذه الأحداث كلها في بداية فصل الشتاء (9 أكتوبر 1902)، وهي فترة غير ملائمة للحرب، لأن العادة جرت أن تكون الحرب في فصل الربيع عندما تكون الأرض محروثة ومزروعة. وقد سر أهل فاس وساد بينهم الإنشراح عندما علموا أنْ بوحمارة قد غادر غياثة إلى بني وارين [5].

وأشار الوزراء الذين لهم رغبة ومصلحة في الرجوع إلى مراكش على السلطان بقولهم :

ـــ إن مقامك هنا، سيدي، بالشمال لم يعد نافعا وذا جدوى، فكل الأوضاع هادئة، فيمكنك التحرك قبل الشتاء نحو الحوز على عادة آبائك.

أما هؤلاء الذين كانوا يعارضون الفكرة ويودون البقاء في فاس فقد قالوا :

ـــ أتنصحون السلطان بالذهاب إلى مراكش، ويترك خلفه « ولد الحرام » بوحمارة الذي تجرأ على انتحال شخصية مولاي امحمد والمبايعة سلطانا. ألا تعلمون أن هذه عملية خطيرة خاصة أن أتباعه الحمقى والمجانين سيصلون بعد أيام فقط إلى مشارف أسوار المدينة (فاس).

فأجاب الآخرون :

ـــ إذن، فأنتم خائفون من متمرد صغير يمتطي حمارة، إنه لا شيء، إنه فراشة ليل سوف تنتهي بإحراق نفسها - بيدها. سيدنا، لاتهتم بآراء هاؤلاء البكائين.

فقرر السلطان أخيرا الذهاب إلى مراكش، بعد أن استقدم كل القبائل الموجودة حول المدينة وقيل لهم بعد اجتماعهم :

ـــ هاهو السلطان سيرحل إلى مراكش، وقد كلفكم بالقضاء على هذا الجبان الأرعن المسمى بوحمارة.

ـــ فليرحل سيدنا هادئ البال، فستكفل نحن بذلك.

ـــ جيد !، فمن جاء منكم برأس بوحمارة، فسيكون جزاء قبيلتة 50000 دورو (250000) فرنك.

فليسافر السلطان مرتاحا إذن. إننا هنا !

وأخذ بلخياط الكلمة وقال :

ـــ فليذهب سيدنا دون تفكير في هذا الأمر، فإن بلخياط يضمن لك القبض على بوحمارة هذا، بمجرد أن يرجع إلى الحياينة، وسيأخذه سيدي المخزن.

فقال « المخزن » لبلخياط :

ـــ إذا أتيتنا برأس بوحمارة فإننا نعدك بتعيينك قائدا على كل الحياينة، مع خضوع كل البلاد الموجودة بين تازة وفاس تحت نفوذك وأن محادثاتك واتصالاتك ستكون مع السلطان مباشرة.

وبعد انتهاء كل هذه الأشياء، عادت كل القبائل المجاورة لفاس إلى بلادها، فجمعت المحلة على الطريقة المعتادة لسفر السلطان من فاس إلى مراكش، حيث كان هناك كل الجنود النظاميين باستثناء طابور العبيد المكون من 600 فرد تقريبا، لأنه كان قد بعث منذ شهور بقيادة بلخير الحمري لايت يوسي لتقوية صفوف القائد عمر اليوسي الموجود في مواجهات صعبة ضد أهل قبيلته الذين ثاروا ضده واجتاحوا قصبته. وعند اجتماع كل أطراف المحلة استغرب الجميع لغياب العبيد / السود -حرس السلطان الخاص.

فقيل لمولاي عبد العزيز :

ـــ كيف تسافرون هكذا دون طابور العبيد؟

ـــ لايهم، فرجالي ليسوا سوى في مهمة ظرفية، استثنائية، لقد اعطيتهم الأمر بالإلتحاق بالمحلة في الرباط حيث سنقيم بعض الوقت، ثم إنني مسرور لعدم وجودهم معي في هذه الأثناء لأنه إذا ذهب بوحمارة عند آيت يوسي، فإنه سيفاجئ بعبيد السلطان عنده، دليلا على وجود المخزن في كل مكان.

لكن هاؤلاء الأفراد لم يلتحقوا بالمحلة، وبقوا بإنجيل مع عمر اليوسي. ورغم كل هذا، فإن السلطان، القلق دائما من سير الأوضاع، قد بعث محلة إلى الحياينة من 2500 رجل بقيادة أخيه مولاي الكبير، لإطفاء نيران التمرد حيثما اندلعت، وقد كانت تصل أخبار سارة عن هذا الطابور المعسكر بواد إناون، وقبل انطلاق السلطان بوحمارة وغياثة إلى جبال هذه القبيلة حيث يقال أنه اختفى عن الأنظار.

هكذا غادر السلطان ومخزنه فاس (10نونبر) ليدخل مكناس محاطا بكل قواد الخيالة الذين دربهم الأنجليز، وسط حشود من 20000 رجل، وإثنى عشر 12مدفع كبير.

ب – أطوار المواجهات الأولى :

ولم تدم الإقامة في مكناس سوى عشرة أيام، لأننا لم نصل صلاة الجمعة إلا مرة واحدة. فأنطلقنا جنوبا لإصلاح الأوضاع عند بني مطير وكروان وزمور الذين تمردوا «من جديد»، وقد عززت المحلة بوحدات القبائل «النوايب» : الشاوية (1500 رجل)، والسراغنة (1000 رجل) بقيادة بلمودن / بن المودن.

ثم عسكرنا بدار ام السلطان، وفي اليوم الموالي بسيدي عبد القادر بوكرناط في بلاد كروان. لكن على طول الطريق، كانت تصل رسائل ملحة إلى المخزن من الباشا سي عبد السلام بن شكرة الذي أصبح يهدده بوحمارة في منطقة نفوذه أكثر فأكثر، لكن لم يرد عليه بأي جواب بدعوى أنه ليس سوى خائف مرعوب، وكان يشير في رسائله أن هذا المتمرد قد عسكر مع أتباعه تحت أسوار تازة ثم إن عدد جنود الحمية غير كاف 300 رجل للدفاع عن المدينة. وكان رجال المخزن يقولون : إن ابن شكرة خائف جدا من بعض المتمردين، إنه يرى بوحمارة في كل مكان، أو لم يصعد إلى الجبل ليختفي في أعالي الجبل؟ لكن رغم كل هذا الكلام، فإن الإضطراب والقلق ظل سائدا في أوساط المخزن، حيث ظهر فريقان بهذا الخصوص، فريق بزعامة غرنيط بن سليمان وإبن يعيش يريد أن يرجع إلى فاس والقضاء على بوحمارة. في حين يريد الفريق الآخر بزعامة الشيخ التازي ومن معه، إتمام الرحلة إلى مراكش، وكان المنبهي قد احتفظ لنفسه في هذه الأجواء، بصمت حذر، خاصة أنه لم يكن له أصدقاء يجعلونه ينضم إلى هذا الفريق أو ذاك، لكنه كان يرغب في الذهاب إلى مراكش حيث يوجد أهله، وذلك أفضل من الرجوع إلى فاس. وفي خضم هذه الأحوال التحق ابن شكرة بالمحلة بعد أن لاحظ أن الأوضاع أصبحت خطيرة بتازة، وهاهو قد فر إلى مكناس ليحتمي بالسلطان بدعوى أنه جاء ليطلعه على الأحوال ويخبره بالمستجدات، أما الأعيان (أعيان تازة) الذين خافوا على ثرواتهم وأموالهم فقد بايعوا بوحمارة، وقال الباشا ابن شكرة للسلطان بعد أن نجى بنفسه :

ــ آه ! يا سيدي، إنكم إذا ذهبتم إلى مراكش، فستتركون وراءكم النيران مشتعلة. أتذهبون ياسيدي وهذا العدو في اعقابكم؟ كما لو أنكم فررت خوفا منه، فيجب القضاء على هذا الرجل أولا، ثم بعد ذلك تغادرون فاس بعد أن تكونوا قد سحقتم مولاي امحمد المزيف هذا فالناس يعتقدون أنه أخوهم. ثم إنهم يتهيأوون لمساندته ومؤازرته لإنه يطالب بعرشكم.

فاجتمع المجلس / الحكومة ليستمع إلى ابن شكرة وهو يشرح الأوضاع.

ــ كم عدد أفراد محلة هذا المتمرد؟ هل هو خطير إلى هذه الدرجة؟

ـــ إن له 15000 فارس يكونون فيلقه النظامي وأغلبهم من غياثة، كما أن كل وحدات القبائل الشرقية، والحياينة وبني وارين واتسول والبرانس قد بايعته ويقولون إنه رجل خطير! إنه محارب جيد، يحبه أتباعه، متعلم ماكر، وأقول لكم، وصراحة، إنه لو تابع السلطان طريقه نحو مراكش، فإن بوحمارة سيدخل فاس دون مقاومة، ودون إطلاق رصاصة واحدة.

ففكر السلطان قليلا وقال :

ـــ لماذا غادرت تازة التي أمنتك عليها؟ فإنك أنت أول من كان عليه أن يدشن بداية المقاومة، والأخذ بيد الأعيان.

ـــ سيدنا ! ليس لي هناك لا أخ ولا صديق، فأنا من الحوز، ولا أستطيع بعبيدي الثلاث الوقوف ضد غياثة وأهل تازة الذين بايعوا هم أنفسهم بوحمارة، وخطبت الجمعة باسمه على المنابر.

ـــ بإسمه ! وهو يلقب بوحمارة ! هل جن أولئك الناس؟

ـــ لا يا سيدي، إنهم يدعونه مولاي امحمد، ويقولون إنه أخوكم. . وأنا لاأعلم سوى هذا، فماذا تريدون مني أن أفعل !؟

فانفجر مولاي عبد العزيز ضاحكا ثم قال :

ـــ إن أخي سجين حاليا في إحدى المنازل بقصري في مكناس، فليس هو!

لقد كان الكل يرى أن الأوضاع خطيرة. وقررنا الرجوع استثناء من كروان وزمور إلى مكناس حيث عسكرنا بعد ذلك بسيدي بوزكري (2 دجنبر)، في انتظار وصول أخبار عن محلة مولاي الكبير من تازة.

وقد ذهب السلطان إلى مولاي امحمد في مكناس يقول له :

ـــ أتسمع برجل ذهب عند غياثة، ينتحل شخصيتك ويؤلب علينا قبائلنا؟

فأجاب مولاي امحمد :

ـــ ماذا تفعلون أسيدي، اولاد الحرام كثر. !؟

فأرجع إلى مكانه. فتيقنا أن بوحمارة مخادع ماكر، وأن ابن شكرة نفسه قد صدقه. لكن أخبار محلة مولاي الكبير كانت سيئة. فقد هزمت على مقربة من تازة، حتى اتحد الحياينة وغياثة ونهبوا المعسكر الشريف (6 دجنبر)

والآن يجب التحرك بسرعة. وهكذا غادر السلطان مكناس ليدخل إلى فاس (9دجنبر) حيث قرر، وبطلب من سي فضول غرنيط، وابن سليمان، والعلماء، والشرفاء، وأعيان فاس، أن يمدد إقامته بفاس إلى حين القبض على هذا المتمرد، فجمع كل قواته الكبرى. وأعطى الأوامر لكل المناطق بمحاربة بوحمارة، وطلب من القبائل المخزنية الإلتحاق حالا بفاس، وفتح خزينته وأعطى الأموال الكثيرة، وقام بكل مافي وسعه لتنظيم هذه المحلة التي رغب غرنيط وابن سليمان و اخرين أن يقودها سي المهدي المنبهي. ولكن أهل فاس كانوا يستهزئون ويسخرون من هذه الإستعدادات، ويستخفون بالسلطان مظهرين من جديد، ورغم كل هذه المجهودات، أن من كان معوجا في أول أمره يبقى دائما على نفس الحال.

ولابد أن أقول لك أن ماجعل الفاسيين يعارضون السلطان، ويتناقص احترامهم له شيئا فشيئا، هو إعطاؤه الأولويات والفرص للأروبيين للتدخل في شؤون منزله. وكان الناس يخافون أن يمتد هذا التدخل إلى كل جهات البلاد. إضافة إلى بعد سلوكه عن سلوك الأسر المخزنية القديمة المتعقلة والرزينة، بل إنه جمع حوله الرعاة (السراح) الذين لم يأتوا إلا للإغتناء كذبابة حول شهد نحل. وكنا لانجده في الشارع إلا محاطا بستة رجال مكلفين ببغلته إذا وطأت على حجارة ما بالطريق. ثم إنهم لم ينسوا أحداث الزاوية، كما كانوا يستهزئون أيضا من الجنود المتجولين في المدينة المكلفين بمنع الخصومات مع الأجانب.

وهكذا وصلت وحدات القبائل مع قوادها إلى فاس وأعني : وحدات الحوز والشاوية وعبدة ودكالة وحاحة وسوس والغرب، وآخر المرابطين دائما في فاس الجديد. ووصل عدد الجنود بالإضافة إلى الوحدات النظامية 40000 رجل بالمدينة. لكن بدل القيام بمحلة واحدة كبيرة، فقد قرر بالمقابل بعث أفواج صغيرة، شيئا فشيئا وبالتوالي نحو واد إناون.

فتوجهت حركة بقيادة سي محمد الأمراني لمؤازرة مولاي الكبير وجمع شتات أفواجه. ثم توجه بعد مرور أيام فيلق آخر بقيادة سي عباس المنبهي أخ وزير الحرب. ثم فيلق ثالث فيما بعد قيادة سي بوعلي الدكالي، ثم رابع بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني والخامس بقياده سي عيسى بن عمر. ووصل العدد في المجموع عشرين ألف محارب.

وقد كانت العادة تقتضي أن يقود المحلة قائد واحد كبير. لكن مادام لم تعط أوامر بهذا الخصوص. فإن وزير الحرب سي المهدي المنبهي، الذي غالبا ما كان يكون هو القائد، قد بقي دائما في فاس. فأخذت هذه الفيالق كامل حريتها في مواجهة العدو، والتدخل بقوة في كل وقت. لقد كان خطأ جسيما أن يكون لكل محلة أفواجها النظامية ومدفعيتها وموكبها وقائدها، تحارب وقتما شاءت وكيف شاءت.. فلم يكن هناك أي تنسيق واضح. وسأعطيك مثالا صارخا عن ذلك : فقد كانت تطلق أكثر من طلقة مدفعية واحدة عند صلاة الصبح والمغرب، في حين كانت العادة قد جرت أن تكون هناك طلقات واحدة، أما في تلك المحلات / المعسكرات فكنا نسمع أكثر من خمس طلقات متباعدة فيما بينها.

وهكذا ظهر سوء التنسيق فيما بين هذه الأفواج بشكل واضح. وحسب المثل العربي : عندما تكون قبيلة ما على حافة الإنهيار، فإن الكل يرغب في أن يكون قائدا أو رئيسا.

أما بوحمارة. فقد عسكر في عقبة بني مكادة على الحدود بين الحياينة وغياثة، حيث التفت وراءه ليجد رجال المخزن قد وصلوا إلى اوطابوعبان. وكان قد اجتاح بعض الدواوير وسمع طلقات المدفعية الخمس الدالة على الفوضى وعدم التنسيق والإنسجام في الصفوف المخزنية. (اجتمعت الفيالق في وطابوعبان ما بين 15 و 20 دجنبر)، وكان معه وحدات غياثة وبني وارين وبني سادن، وآيت يوسي، وقبائل الشرق، واتسول، والبرانس كما نرى ضمن أفراد محلته رجالا من القبائل المخزنية، وبعض المعارضين، وبعض من كان يود اجتياح ونهب فاس، ولم يكن شيئا غريبا أن ترى أفراد قبيلة واحدة مقسمين كل شطر موال لجهة ما، أليس هذا أمرا سياسيا غريبا، بالنسبة لخيمة تريد أن تبنى في الظلام والفراغ أن يكون الأب مع السلطان والإبن مع بوحمارة دون أن ننسى أنه، وأمام هذه القوة، أصبح الناس يعتقدون أن بوحمارة هو مولاي امحمد بن مولاي الحسن خاصة عندما يغلق نصف عينه اليمنى، ويقلد جيدا أجواء القصر : الحفلات والموسيقى والنساء والجواري، وقائد المشور، والحاجب، والأفواج النظامية، وأغلبهم من غياثة، ولباسا عسكريا أعطته إياه إسبانيا، وكذلك تقليد سير طوابير السلطان.

وقد كان بعض الأذكياء يجارونه في هذه الحماقات، التي يظن من خلالها أنه سلطان، ولو أن ذلك سوى وهم. فكان يأتيه يوميا « رقاصة »(رسل / مبعوثون) برسائل يقال أنها من قبائل ووحدات سلطانية، وهي رسائل كتبها هو بنفسه في خيمته مساء، وقد كان عنده بالطبع خاتم يختم به وثائقه ورسائله باسم مولاي امحمد ولد مولاي الحسن.

وقد اسعده كثيرا وصول هذه الفيالق الصغيرة إلى محلته، لكن ماكان يسعده أكثر هو سماع الطلقات المدفعية الخمس المتابعة عند الفجر والزوال وغروب الشمس. فاستقدم أتباعه وقال لهم :

ــ ما جديدكم؟

ــ لاشيء سيدي.

ــ هل رأيتم هذه الذبابات القدرة التي جاءت إلى السهل !؟

ــ صحيح سيدي، إنها حشود قوية !

ــ ماذا هل أنتم غافلون؟ فكل ما ترونه أمام أعينكم سيكون لنا. فالأسلحة والمؤن والمدافع ستكون لي، لأن مولاي ادريس نفسه هو من بعثها لي لتقوية صفوفي. أما الخيول والخيام والأمتعة فسأتركها لكم فهي لكم.

وحدث يوما أن هجمت الوحدات المخزنية، بشكل عشوائي، على بوحمارة (20 دجنبر) الذين رآهم يجرون في اتجاهه وقال :

ـ إنكم ترون حتما هذه الجماعة من المحاربين. فلن يصل أي واحد منهم هنا إلا ليموت. إنهم يجرون فقط لنهب أو سرقة، إن استطاعوا، برادا (آنية لطهي الشاي) أو صينية نحاس.

ـ آه كان من الممكن أن يكونوا خطيرين لو كان لهم قائد واحد، أما أن يكون لكل وحدة كبيرها، فهم كجماعة دجاجات بدون ديك.

ثم وزع جنوده على طول الخط الذي اختاره وحدده لهم وقال :

ـ لا تطلقوا الرصاص إلا بين الفينة والأخرى، وبطريقة صحيحة ومضبوطة. فنحن لسنا في حفل التبوريدة (الفانتازيا)، فاحتفظوا ببارودكم لمن يستحقه، ولندرس جيدا ما سيقوم به هاؤلاء.

فأعجب اتباعه بذكاء وشجاعة قائدهم. وإذاكان منهم من جاء ليحارب معه، فإن منهم أيضا من جاء معه لغايات متباينة لإشباع فضول أو انتقام أو ثأر. .

وبعد أن رأى بوحمارة سخافة الهجوم قال لأتباعه :

ـ لاتسيلوا مزيدا من الدماء الفاسدة. فلا خوف عليكم بعد هذا.

فلم يكن هناك سوى بعض الطلقات المتفرقة بين هذه الجهة وتلك. وهكذا استرجع جنود بوحمارة حماسهم وشجاعتهم، بعد أطوار هذه المواجهة الأولى، خاصة أنهم كانوا خائفين جدا من عدد أعدائهم.

وقد كانت هناك صوكات يوميا. حيث كانت ترسل كل وحدة رجالها بشكل تناوبي لكن نتائجها كانت دائما سلبية.

وفي هذه الأثناء كان السلطان يعمل جيدا على تقوية جنوده بالمؤونة والأسلحة، حيث كان يرسل دائما من فاس نحو واد إناون 100 بغلة محملة بالمؤن و 100 بغلة محملة بأكياس الدوروات، تحت حراسة قوية.

وتجدر الإشارة إلى أن بوحمارة قد ظهر في المواجهة الأولى محاربا قويا، وفي مستوى مهمته مما كان له الأثر الطيب عند اتباعه في المعسكر. والأمر نفسه فعله في اليوم الموالي مما جعل أتباعه يرتقبون انتصارا قريبا ونهائيا.

وصادف هذه الأحداث صيام شهر رمضان. حيث صمنا أربعة ايام في هذه الظروف وقد كانت المناسبة مواتية ليكتب بوحمارة إلى القبائل المجاورة التي لم تؤيده وتوازه بعد :

«من كان يريد أن يربح أو يغنم شيئا سأحصله من الغنائم فما عليك سوى الإلتحاق بي بسرعة. فالهراوة فقط تكفيه سلاحا له»[6].

وقد كان الحياينة الذين كانوا مقسمين قسمين : قسم مع المخزن، والآخر مع بوحمارة قد تعبوا وملوا من رؤية رجالهم « يأكلون » بلادهم كأرجال من الجراد قد عملوا على ضم قسمهم الموجود في جهة المخزن بواسطة عملاء بوحمارة. وفي أحد الأيام، وكالمعتاد، طارد بوحمارة حركة مخزنية إلى أن أنهكها، حيث ظلت النيران تدوي من الصباح إلى المساء. وعند العصر (3 أو 4 بعد الزوال) ازداد عنف المواجهة، حيث توجهت أفواج بوحمارة نحو محلة مولاي الكبير الذي أصبح يحارب متراجعا، وكان قد بقي قسم من هذا الفوج في المعسكر لطهي حريرة رمضان، الذي سرعان ما رأى رفاقه الذين ذهبوا إلى المواجهة قد رجعوا متفرقين إلى المعسكر، لم يتردد أفراده في الهرب نحو فاس. أما قواد الفيالق الأخرى، فعوض أن يذهبوا لمؤازرة مولاي الكبير ضد عدوه الشرس، رفعوا المعسكر للرجوع، وفي المساء ازدادت المصائب أكثر، حيث استغل الحياينة وجودهم فوق أراضيهم ليطلقوا الرصاص في الفراغ حول المحلة لارعاب وإخافة المحاربين ونهب الخيام بسرعة.

وعندما عم الظلام / الليل، أصبح بوحمارة سيد معسكرات السلطان، التي فر جنودها هرعين نحو فاس، والذين يعترضهم بالعنف والطرد أفراد القبائل التي كانوا قد مروا بها منذ مدة ونهبوها، حتى كانت الطريق ملآى بالجثث، وكان منهم أيضا، الغرقى بواد اللبن، كما كنا نرى أيضا بعض الموتى الذين رمى بهم الحياينة في الواد بعد أن جردوهم من متاعهم، كما عروا كثيرا منهم تماما، ومن حسن حظهم أنهم بقوا على قيد الحياة. لقد كان هجوم بوحمارة بسيطا، وقد كان هجوم آخر مضاد من الوحدات المخزنية كافيا ليحد منه قبل الغروب وهكذا سقطت كل الخيام والأسلحة والمدافع والعتاد والمؤن، وبضائع الأسواق التي تصاحب الفيالق، والاماء (السود)، والعبيد في يد بوحمارة، بما في ذلك قافلة من البغال المحملة بأكياس من الدوروات غادرها حراسها هنا. فكما ترى فإن مولاي عبد العزيز لم يكن يترك جنوده دون أموال. . . بل إنه كان يقول أيضا في رسائله : « أن تشجعوا، هذا كل ما أطلبه منكم، أظهروا أنكم جنود المخزن الأقوياء وإذا كنتم محتاجين للرصاص، فاصرفوا الدوروات التي بعثها لكم، وسأعطيكم أكثر إن أردتم » وقد كانت لحظة الفوضى والإضطراب هذه قد أفسدت بل أظهرت كل شيء إذ رجعت هذه الأفواج من الرجال الحفاة العراة بعضهم كانوا، اثنين أو ثلاثة أفراد، يمتطون دابة واحدة، إلى فاس وسط هلع السكان الذين علموا أن المحلة قد هزمت فأغلقوا دكاكينهم وقالوا « لقد انتصر، وهذا ما كنا نرغب فيه، مولاي امحمد أو بوحمارة، فهو من سيصبح سلطانا علينا » فأقفلت الأبواب الشرقية. فكان الهاربون من المحلة يجدون صعوبة في دخول المدينة، فيطوفون بكل المدينة إلى أن يدخلوا. وكان الناس قد بدأوا يستعدون، كما لو أن حصارا سيضرب على المدينة.

لكن تخوفاتهم لم تكن في محلها، ذلك أن رجال بوحمارة المستمتعين والمستغربين من هذا الإنتصار لم يكن يهمهم سوى البحث عن مكان آمن يقضي فيه هذا السلطان المزيف حفلات عيد الفطر الذي على الأبواب في عاصمته تازة. ويبحث في هذه المراسيم عن أي القبائل يمكنه الإعتماد عليها. وهكذا رجعت محلة بوحمارة المنتصرة إلى تازة، في وقت كانت فيه فاس ترتعش خوفا من ظهوره فيها.

وأمام هذه المستجدات، والنظر إلى الأفواج المهزومة الراجعة كان السلطان، القنبلة القوية والهادئة، قد استدعى وزير الحرب ولامه لوما عنيفا :

ـــ ما مصدر هذه الفوضى والخسائر؟ هل يمكنك أن تعطيني تفسيرا لهذا؟

فقال المنبهي :

ـــ سيدنا إن المسؤول عن ما حدث ليس بعيدا منا : إنه ابن سليمان وابن يعيش وشيخ تازة، وأنا وأنتم والمخزن. فلم يكن علينا إرسال رجال لا يتفاهمون فيما بينهم، وغير متمسكين جدا بالمخزن. ومادام أن بعضهم قد قال لكم بأن لا تعطوا القيادة لقائد واحد، فإنهم كانوا خائفين أن يرجع وحده هو المنتصر. والآن أطلب منكم أن يخرج كل وزير مسؤول عن محلته، وإذا رجعنا مهزومين أو فارين فليقطع حينها السلطان رأسنا، ولأكن أنا الأول.

ـــ لماذا لم تقل لي هذا الكلام قبل هذا الوقت؟

ـــ كيف كنت سأفعل ذلك؟ فلم تكونوا تطلبون مني أي شيء، وكنتم تهمشونني.

ـــ سأحضر كل الوزراء أمام السلطان قال المنبهي :

ـــ إن المخطئين والمسؤولين عن هذه الفوضى وعدم انضباط الأفواج السلطانية هم الوزراء الحاضرون هنا، وقد كان هؤلاء الوزراء يشيعون أنني أنا المسؤول الوحيد عن كل هذا لأنني وزير الحرب. وهذا غير صحيح وأرفض أن أتحمل هذه المسؤولية لوحدي.

لكن سي فضول غرنيط قاطع المنبهي وقال :

ـــ آه، أعتقد أن كلامك عنيف بعض الشيء ! فكيف تفسر أن لنا نصيبا في هذه القضية التي لاتخص سوى بنيقتك.

ـــ هذا بالفعل كلام صحيح فإن بنيقتي التي تتحدث عنها لا وجود لها. ثم إنني وزير حرب دون نفوذ تعرقلونني في كل مرة أحاول فيها، وبالصدفة، نقل قرار ما إلى سيدنا باعتباري وزيرا للحرب. وقد قلتم منذ قليل بأنني أتحمل مسؤولية هذه الهزيمة، وكأنني لا

أصلح وزيرا للحرب، رغم ما فعلت من أجل الجيش، فماذا تريدون؟ ثم إنكم أناس لاعلاقة لكم بالحروب والبارود، ثم إنني لا أهتم بمشاكلكم الإدارية ولا أحكامكم المختلفة؟ فلا أريد أن أحشر أنفي فيما لا يعنيني، ثم إنكم إذا تركتم كل واحد يقوم بمهامه المكلف بها فسيكون ذلك أحسن، وحينها سيمكن الوقوف على المسؤول الحقيقي.

فأجاب الوزير الأول :

ـــ جيد، مادام الأمر كذلك، فليكن حوارك بخصوص مشاكل بنيقتك مع السلطان مباشرة.

ـــ فهذا ما أريد، لأنه لو تكلف كل واحد بوزارته الخاصة فقط، فسيسود النظام والتسيير الجيد، فأنت ابن سليمان وزير الخارجية ستكون مسؤولا عن وحداتي حيث ستتصرف في تنظيمها كما يبدو لك. وأنت الحاج عمر ستتكلف بقواد الرحى الذين سأعاقبهم لما أحدثوه من اضطرابات أضحى معها النظام مستحيلا، فمنذ مدة لم أكن إلا وزير حرب رمزي فقط، فأنت لست مسؤولا على الفوضى في صفوف أفواجي، فلم يعطيني السلطان أي أوامر، ولم يطلب مني أي مشورة منذ مدة. فلم أكن أعد من المخزن، فأعطوني الضوء الأخضر فقط، وسترون من هم أولاد المنابهة. ثم إنكم، وقبل ذلك تعرفون قدري. فلو كنت ثمة باوطا بوعبان، القائد الأكبر، أو حافظت على كل سلطتي على أفواجي التي اضعفتموها بسوء تدبيركم، لن يتقدم ولن يتأخر أي أحد، وسيقاتل المحاربون من أجل السلطان حتى آخر قطرة من دمهم. لكن الذهاب إلى قيادة أناس، كانوا، وبإشارة مني يختبئون وراء ظهور بعضكم، والقول لهم ماذا فعل هذا المنبهي من جديد؟ قل لي بسرعة ماذا صدر منه اتجاهك لأخبر السلطان بشيء. . . .

فقال ابن يعيش مستخلصا :

ـــ إن القضية في الأخير تبقى متشعبة، لكن قل لنا ما هو « العلاج» الذي تقترحه.

فقال المنبهي : سأفعل ما يأمرني به السلطان.

وقال السلطان :

ـــ نريد أن تنظم حملة من جديد، وستكون أنت المنبهي قائدها، والتي ستأتي بهذا الجني بوحمارة. حيا أو ميتا !

جرت هذه المحادثات في شتاء (1902-1903). وقد كان بفاس شخصيتان أعتقد أ نك تعرفهما M . Descos: [7] وسي قدور بن غرنيط الجزائري المتحدث مع المخزن باسم المدربين الفرنسيين، والذين استغل منصب ملازم المدفعية Schnaider في فاس ليبرز المزايا الكبرى

للمدفع 75. وعين ملازما من المشاة من البعثة الفرنسية وهو : سي عبد الرحمان بن سديرة، لتمرين المدفعية واستخدام المدفع الجديد المشترى.

فماذا أصبح بوحمارة؟ فبعد انتصار باوطابوعبان، رجع إلى تازة احتفل فيها بعيد الفطر بطريقة سلطانية، واستغل هذه الإحتفالات عندما قدم إليه غياثة بكثرة، لاستكمال تنظيم مخزنه بطريقة جدية. واختار الرجال والأقوياء واصحاب النفوذ من القبيلة، ومتن علاقته مع غياثة بزواجه من فتاة من أهل الطاهر إحدى أقوى فخدات غياثة، وبعد انتهاء الإحتفالات، أعطى أوامره ببناء مستودع للقمح والشعير والبرسيم وحضيرة للبهائم بخميس الكور الموجود على بعد خمس ساعات مشيا من فاس، لأنه قرر الهجوم على فاس دون تأخر.

وكان المخزن قد قام، بعد علمه بالخبر، بتنظيم محلاته وإعطاء تجهيزاته ومؤنه والرفع من أجور الجنود، حيث كان يتقاضى الجندي من المشاة روبية (1.25fr) يوميا والفارس نصف ريال (2.50 fr) حتى أنهكت الخزينة، فعسكرت المحلة أماما بالمطافئ بقيادة عمر اليوسي في حين كانت تستعد القوة العظمى بالمكان المعتاد على قنطرة سبو بقيادة سي المهدي المنبهي القائد العام للعمليات، وبعد ذلك جاءت محلة الفراكَ لتعسكر على هضبة ظهر المهراز في الجهة الجنوبية لفاس.

واجتمعت يوما محلتا عمر اليوسي والمنبهي، فاتجهتا نحو واد إناون : حيث علمنا من مخبرينا أن بوحمارة يتجه نحو ثلاثاء النخيلة، وأن عدد جنوده قليل وأقل حراسة وتأمينا، وبمجرد العلم بالنبأ، دبت حركة نشيطة في الصفوف. فوجد ا لحياينة وغياثة هذه المرة، يقفون ضدهم الند للند. في محلتنا : بنو مطير وزيان وبني مكَيلد وآيت يوسي وكلهم محاربون أقوياء. كما ظهرت أيضا معالم قوة يد العلاف المنبهي، وبعد هجمة من المحلة صغيرة فر الحياينة وبني وارين، فأصبح بوحمارة المحاط بغياثة أتباعه الأوفياء يحارب متراجعا فانهزم بالتالي في هذه المواجهة فقد خيامه ومؤنه، وأسلحته وبعض هيبته، خاصة أن أتباعه كانوا يعتبرونه رجلا لايهزم (29يناير 1903). ففر مع أصدقائه البرانس واتسول ليصل إلى تازة التي يحتلها دائما، حيث نظم مخزنه. لأنه هنا في مكانه القوي، وشرع في جمع المؤونات، وتضميد الجراحات، والطلب من القبائل المجاورة التي أحس أنها متعبة من الحروب أن تأتي وتلتحق به، ولم يعد يصرح ويقول أنه هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن، لأنه قد عرف ان السلطان قد جاء بمولاي امحمد من مكناس إلى فاس، وأظهره في مناسبات عديدة بدد بها جميع شكوك الفاسيين، وأصبح يقول الآن إنه يشن هذه الحرب لوجه الله. ومع ذلك بقي محتفظا بمخزنه ويعين ويخلع القواد ويحتفظ دائما بخاتم مولاي امحمد.

ودخل المنبهي المنتصر إلى فاس بعد أن طارد بعض الوقت الروكَي[8]، في الجبال الوعرة. صاحبا معه 40 أو 50 أسيرا، بعضهم كان من غياثة، وأغلبهم من الحياينة، حيث كنا نحلق رؤوسهم بعد أن « ملحها»اليهود على جدران باب محروق.

وقد احتفل بهذا الإنتصار الكبير طيلة سبعة أيام، كان خلالها بوحمارة يهيء نفسه، وبهدوء في تازة.

وعندما كثرت مصاريف المخزن من جراء الحرب، قرر الإقتراض من فرنسا وانجلترا وإسبانيا، خاصة أنه كان عليه إعادة ترتيب المحلات. خاصة أن الشخص المهم (بوحمارة) ينقص الحفل، ولابد من القبض عليه، للحد من هجوماته المتوالية [9].

فمنذ هزيمته، وبعد ان شفي من جرح بالغ في كتفه، رجع إلى معسكره، وإلى القبائل المجاورة من أجل تزويده بالنقود والرجال، وقد كان اللوم في هذه الأثناء منصبا على المنبهي لكونه لم يقبض على الروكَي، وان انتصاره ناقص. فخرج المنبهي مع آلاف من جنوده وفاس دائما في أفراحها [10]، أما بوحمارة فيوجد الآن عند صنهاجة بعين مديونة. وكان أهالي هذه المنطقة الجبلية قد واجهونا مواجهات طفيفة خاصة بعض المسخرين والحراس والمتأخرين عن القافلة، ونجح المنبهي في إجلاد أعدائه إلى أعالي الجبل. دون أن يقوم ضدهم بحملة حاسمة، خاصة أنه كان من الخطير مطاردتهم في هذه المضايق، وقرر وزير الحرب الرجوع إلى فاس لترميم صفوفه وإتمام تجهيزاته وأسلحته ومؤنه والإحتفال بعيد الأضحى (7 مارس 1903).

ورغم هذا كله. فإن المخزن الذي ظل قلقا من سقوط مناطق الريف ووجدة شيئا في يد بوحمارة ورجاله، قد قرر إرسال بعض الشرفاء لاصلاح الأوضاع، وجلب مزيد من التعقل والترزن في صفوف أهالي تلك المناطق، حيث توجه سيدي محمد الأمراني ومولاي عرفة إلى طنجة (في نهاية يناير 1903)، ومن ثمة سوف يذهب أحدهما إلى مليلية والآخر إلى وجدة بحرا، وقد كان بوحمارة مستمرا في تأليب الناس ضد المخزن والقول لهم بأنه يخوض حربا مقدسة ضد مولاي عبد العزيز المتهم بتسليم المغرب إلى الأنجليز، حيث غادر تازة تاركا بها خليفته وبعض النظاميين، واتجه نحو البرانس وكَزناية وبني بوياحي ثم ليصل (في الأيام الأولى من أبريل) زبوجة نحو عين واد كرت. وبمنطقة كَلاعة نظم سيدي محمد الأمراني المعزز ب 500 جندي بقيادة القائد البشير بن سناح حملة مخزنية ضد بوحمارة، واجهها كَلاعة الذين اعترفوا ببوحمارة، فحوصرت بقصبة جنادة وأجبرت على الإحتماء بالإسبان في مليلية حيث توجهت بحرا إلى العرائش بعد فشل مهمتها الذريع. فتنامت مكانة بوحمارة بشكل واضح. حيث إن كل القبائل الموجودة بين تطوان وملوية وكل الأراضي الموجودة على مشارف وزان وفاس إلى حدود الجبل قد اعترفت ببوحمارة.

وكما أغارت قبائل بني بوزكَو وبني محيو الموالين لبوحمارة الذي بنى في بلادهم مركزا/ قاعدة بعين سيدي ملوك، على بني يزناسن الذين ظلوا أوفياء للمخزن. وقد كان يوجد بهذه المناطق مولاي عرفة مع بعض المئات من الجنود، الذي اضطر بدوره للإحتماء بمناطق نفوذ الفرنسيين (بمنطقة لالة مرنية 13 ابريل). وبدأ بوحمارة في تسيير الشؤون واصدار الأوامر إلى وجدة، التي يحيط بها أتباعه من أنكاد وامهاية وسذجة. وبنى معسكره بقصبة سلوان مع مخزنه وحريمه. وبدأ في الإستعداد للهجوم على فاس.

وقع كل هذا، إذا لم تخني الذاكرة في ربيع هذه السنة، لأن اسم بوحمارة كان على كل الألسن (ماي 1903) وأصبح أكثر اعتزازا بنفسه أكثر من أي وقت مضى. ولا أدري هل كان الإسبان الذين ليسوا بعيدين منه قد ساندوه بطريقة علنية حيث كانوا يتاجرون مع محلته بالرصاص والبنادق، التي كانت وفيرة بشكل واضح. فأصبح أتباع المخزن يحسون ببعض الحرج فتوجهوا بالدعاء إلى مولاي ادريس. وكان بعضهم الذين لا يدرون هل سيكون الروكَي السلطان الآتي : معجبين بصفاته الحربية، وكفاءته في تسيير الشؤون والعمليات. فلا بد من القضاء نهائيا على هذا الشيطان، وهكذا عمل المخزن الغني بالأموال المقترضة من المسيحيين، والمتوفر على البنادق الكثيرة والمؤن القادمة من كل الجهات على تجهيز محلة كبرى تحت فاس. سيكون قائدها المنبهي : وقد أعطيته أوامر ألا يعود إلا بعد إخضاع القبائل المتمردة إلى حدود تازة، وتدمير قوات الروكَي والتيقن من مكان وجوده الحقيقي. فسمعة وزير الحرب سيئة ولايمكن استرجاعها إلا بعد ضربة قوية منه ضد الروكَي.

محلة المنبهي الكبرى

فكل شيء يعد الأن في فاس للقيام بحملة لاشك أنها ستكون طويلة جدا. حيث كوتب قواد سوس والحوز والغرب للمجيء لمساندة وتعزيز وحدات السلطان، خاصة أن هؤلاء القواد كانوا قد رجعوا مع جنودهم إلى بلدانهم بعد هزيمة أوطابوعبان. وكما ترى. فإنه، ومن أجل تقوية حملتي المنبهي، فقد استدعي أيضا برابر آيت يوسي وزمور وزيان وبني مكَيلد وبني مطير. وقد وصلت هذه الأفواج من صنهاجة إلى فاس متعبة، فاحتفظ بهم السلطان استعدادا للحملة الكبرى التي يعد لها : وهكذا شرع في توزيع الأموال والبنادق، لكن عندما أصيب هاؤلاء في المواجهات رجعوا أفواجا أفواجا إلى منازلهم، ليعيشوا على السرقة والنهب حيث كان زمور هم السباقون لذلك وبعدهم جاء بنومطير والآخرين.

وهكذا، ترى أنه لو انطلق هؤلاء جميعا في الأول لأبرزوا فعلا قوة المخزن. بل إن قبائل أخرى قد سارعت إلى فاس، عندما قيل لها. بأنه ما عليها سوى الإلتحاق بفاس وطلب الذهاب لمواجهة الروكَي، وأخذ بندقية ونقود مثل الجنود. وقد كانت هذه السنة سنة

جفاف ويؤس، فقد كانوا يغادرون حقولهم القاحلة ليأتوا إلى فاس مبرزين نفاقا مظاهر الطاعة والولاء، إنهم من جديد زمور وبني مطير، بل كان هناك أيضا بعض الموالين لبوحمارة من بني وارين وآيت سغروشن والحياينة وأيضا غياثة. وأعتقد أن الكثير من هذه البنادق قد ذهبت إلى معسكر بوحمارة.

وقد كان المخزن مسرورا، من رؤية التحاق موالين جدد، ففتح لهم دراعيه وكان يوزع عليهم النقود والبنادق والرصاص والبارود يوميا.

وقد استغل اللصوص وسراق القوافل هذه الأوضاع لإحداث مزيد من الإضطرابات والخسائر في المدن، خاصة أن المخزن كان منشغلا بالخارج / خارج المدن. فنهبت أسواق مدن الرباط وسلا ومكناس بل حتى أسواق فاس. مما إضطر المخزن إلى وضع تجريدة عسكرية بسوق الخميس وباب محروق. إنهم البرابر، أو المخزن الجديد من يلهو في المدينة استعدادالمواجهة، ولكن يجب عذر هؤلاء الرجال الذين لايحبون إلا للبارود.

وفي كل هذه الأوقات، كانت المحلة تتهيأ وتستعد جيدا. حيث عسكر أولاد جمعة ما بين واد إناون بقيادة ولد بامحمد الشركي. في حين تجمعت الوحدات ا لأخرى بالمطافئ (بآيت يوسي). أما المحلة الكبرى فتتكون دائما بمكانها المعتاد على قنطرة سبو. وها هي الآن مستعدة تماما للإنطلاق : فقد عززت بمدفع 75 المشترى من فرنسا الذي يشغله الملازم سي عبد الرحمان بن سديرة. وقد كان مع وزير الحرب كل خيامه ورجاله، ونسائه وخدمه، وطلب من قائد المشور إدريس بن يعيش أن يلتحق به وأن يكون ملازمه.

وقد كان عدد أفراد المحلة 50000 رجل؟ فكنا نلاحظ بالإضافة إلى وحدات السلطان، ووحدات زمور والخلوط وسوس وامتوكَة وكَندافة وكَلاوة وهاؤلاء الأخيرين كانوا تحت قيادة محارب متميز : سيد المدني المزواري أخ الحاج التهامي باشا مراكش الحالي، الذي كان أيضا معه لكن في المرتبة الثانية بعده. وكانت قطع المدفعية 75، تحت إشراف قائدي الرحى : بويه وموحى، من مختلف الأحجام. وقد كان كل النظاميين يتحركون مع وزير الحرب، كما كان هناك أيضا طابور الخرابة بدون قائدهم الأكبر ماك لان، بل بقيادة قائد الرحى المنبهي الذي كان فعلا مساعد نقيب أول في هذا المعسكر، والذي يتقن استعمال رشاشات Garner,Maxims ou Hotchkiss. ويتبع طابوره وقد كنت في هذه الفترة خليفة طابور الخرابة.

وقد كان الإنطلاق حوالي 15 ماي (1903) [11]. وقد كانت أول مرحلة هي « الحجرة » الكحلة على ضفاف سبو عند أولاد الحاج حيث أقمنا يومين ليتمكن المتأخرون من الإلتحاق بنا، ومن ثمة انطلقنا عبر شراكَة إلى أحد بوشابل. ووصلنا إلى ضفاف واد ورغة ثم إلى فاس البالي (قشتالة).

وبوصولنا إلى هذه المرحلة كان على المحلة أن تأخذ احتياطاتها، بوضع تجريدة أمامية بقيادة بوشتى البغدادي، والتي هاجمها بنو مسكَيلدة الذين اختفوا بمجرد رؤيتهم القوات الكبيرة الزاحفة.

وبعد هذه المناوشات وتوقف يومين، وصلت المحلة إلى دار البغيل قرب واد وديار، وقد كان امامها بنو زروال. وعلى يسارها بنومسكيلدة، وعلى يمينها بنووورياغل، وكان وزير الحرب قد كتب إلى كل قبائل هذه الجهة بوجوب الطاعة والخضوع للسلطان. ومن أجل تعزيز وتقوية هذه الرسائل الشريفة، كان يتحرك مع المحلة شرفاء وزان لما لهم من تأثير كبير على جيرانهم جبالة، حيث كانت مواعظهم وخطبهم تسير بموازاة مع المحلة. وقد كان لمساعداتهم وتدخلاتهم هاته أثرا طيبا وقويا في نفس المخزن وقد كان من ضمنهم : سي محمد بوشنافة الوزاني، وسيدي عبد القادر، وسيدي علال، وأخيرا مولاي الطيبي الزموري.

وأعلن بعد ذلك بنو مسكَيلدة المستغربين والخائفين من هذه الحشود الخضوع والطاعة بدار البغيل، لكننا لم نعرف شيئا بخصوص بني زروال الذين غادروا (مشاتيهم)[12] مع نسائهم وأطفالهم وقطعانهم وكل ما أمكنهم حمله. ثم صدر أمر للأفواج الشريفة باقتحام أراضيهم وتدميرها ونهبها كلها طيلة نصف يوم. وقد تركت وحدة حراسة كافية بعين المكان. كما تم اقتياد كل من وجدناهم ثمة وراءنا على مسافة 10 كيلومترات تقريبا. وبعد ذلك كتب المخزن إلى هذه القبائل بوجوب الطاعة، وأنه لا يطلب منهم سوى تحصيل الضرائب الواجبة عليهم. فجاء بنو زروال لإعطاء ضرائبهم، وأعتقد أنهم كانوا تحت تأثير واستجابة لطلب مقدم الزاوية الدرقاوية : سيدي عبد الرحمان الدرقاوي الذي يحترمونه كثيرا، مثل شرفاء وزان الذين يصاحبون المخزن ويرافقونه. فخرج «البراح» - تبعا للعادة - يعلن بين الناس أن بني زروال لم يعودوا أعداء للمخزن، بل إنهم سيقاتلون مع الأفواج الشريفة رفقة وحدات القبائل الأخرى.

وبعد استراحة 15 إلى 20 يوم بدار البغيل، انطلقنا نحو قلعة اسلاس، عبر منبسط واد ورغة حيث عسكرنا يومين أو ثلاثة، ولم تكن تواجهنا أي مشاكل، حيث كان السلاس يؤدون ما يطلب منهم. ونظمنا من ثمة صوكَة إلى جعاية، وهم قبيلة صغيرة من جبالة بدوار بني زروال ثم أتينا إلى ضفة بوالطاهر على ورغة بقبائل الحياينة حيث أقمنا بعض الوقت.

ثم انطلقت المحلة بعد ذلك نحو عين مديونة (صنهاجة)، وفي الطريق استسلمت قبائل صغرى من جبالة متيوة، ومزياط، وغيغاوة جيران صنهاجة. لكن كانت المحلة قد واجهت مقاومة خفيفة عندما أرادت أن تعسكر فوق حقول القمح على القرب من مديونة. ورغم ذلك عسكر المنبهي. ونظم صوكَة بسرعة نحو عين مديونة، لكن الأفواج السلطانية

عادت متناثرة مهزومة نحو المعسكر. فتقرر إذن، وكالمعتاد، استعمال ورقة الشرفاء والسياسة/المفاوضات مادام السلاح قد عجز عن الحسم في الأمر، فطالت المفاوضات والتدخلات والنصائح والمواعظ لكن أهالي مديونة الذين يحسون أنهم محميون ومؤازرون بالجبال لم يتنازلوا عن موقفهم. ولم يلح عليهم المخزن بالتالي، كثيرا فتركهم.

وكانت الأمطار التي تنزل باستمرار، قد عاقت إجراء العمليات بصفة واضحة، ثم كان البرد قارسا أيضا في المعابر والمضايق، وأصبح الناس يعانون أكثر. فكثرت الإنسحابات من الصفوف رغم سلطة العلاف القوية. فمنذ انطلاقنا، نحو الشرق وتازة، كان برابر هذه المنطقة غياثة وبني وارين الذين يحاربون معنا يختفون من المحلة، ليرجعوا إلى أهاليهم، وليلتحقوا برفاقهم في صفوف الروكي أو خليفته خاصة أنه يقال أن هذا الأخير هو من يحكم تازة. وهاهو بوحمارة الآن يحاصر الشرفاء، بعد أن يكون قد زوده هؤلاء المحاربون بمعلومات عن قواتنا ووفاء وحداتنا. والحاصل أن معنويات أفراد المحلة لم تكن عالية.

وفي ظل هذه الأوضاع عرجنا نحو الجنوب الشرقي حيث عسكرت المحلة على ضفة واد اللبن الذي يفصل بين صنهاجة واتسول. ولم نفتأ نصل حتى اندلعت مواجهة بيننا وبين أهالي هذه الجهة الذين كانوا ينتظروننا، والذين طلبوا تعزيزات من جيرانهم البرانس فانضم إليهم الحياينة الذين كانوا معنا، لأنهم متعارفين أكثر. وقد كانت المواجهة عنيفة تركنا فيها عدة خسائر، ورجعت هذه الصوكة مهزومة إلى المعسكر، بل إن الرصاص بات الليل كله يدوي في المعسكر الشيء الذي استحال معه البقاء في هذه المنطقة.

فانطلقنـــا من واد اللبن نحو واد امليل، في مكان يسمى الحجرة الكحلة، حيث مكثنا يومين، ثم ذهبنا بعد ذلك نحو واد الهدار في منبسط يسمى الكادة الحمراء (نهاية يونيو 1903). وفي هذا المكان، وطيلة النهار، كان المخزن يستقبل أهالي مكناسة التحتانية ومكناسة الفوقانية، وغياثة الذين جاؤوا بدعوى الخضوع والاستسلام للاستطلاع على أحوال الوحدات والطرق التي نسلكها، والمدافع والمؤن، ووفاء والتزام أهالي القبائل وفي المساء كنا نرى النيران مشتعلة في الجبل تمكن من رؤية، وبشكل واضح، « خيال» رجال يتحركون في تلك الكهوف المضيئة كأننا نهارا. لكن المخزن لم ينخدع من رؤية تلك النيران الدالة على قوة وشراسة أهالي الجبال، والمشجعة لمن يود الإلتحاق بهم من المترددين.

وتابعت المحلة طريقها نحو مكناسة التحتانية عبر واد الهدار، وعسكرت في مقعر شاسع به بعض الإرتفاعات، حيث انبسطت المحلة بطريقة استثنائية، فكانت طلقات البنادق تصل من أعداء غير ظاهرين، محدثة بذلك الفتنة والفوضى والإضطرابات بين الصفوف. فكانت المحلة تتحرك بشكل بطيء وعند غروب الشمس بنيت الخيام بالقرب من مكناسة التحتانية، تحت إطلاق النيران الذي لم يتوقف، لكننا كنا نتحمل تلك الطلقات مادام أنهم يطلقونها من بعيد، وفي حدود الساعة العاشرة ليلا سمعنا ثلاث طلقات مدفعية متتالية من

تازة، سقطت ثالثتها على أطراف المحلة في المرتفعات المجاورة. وكان هذا مؤشرا على هجوم مرتقب، لقد كنا محاصرين بالنيران، ولم نكن نرد إلا بصعوبة دون أن نسدد طلقاتنا جيدا، ودام هذا المشهد الليل كله، ولم يكن أعداؤنا هنا بنو علي وأولاد الشريف المعسكرين فوق أراضيهم فقط بل كان هناك أيضا مكناسة، والطايغة، وبنو ورياغل ومغراوة القادمين من ضفاف واد مسون، وغياثة بني وجان، وبنو بوكَيطون القادمين من تازة التي لا تبعد عن مكناسة إلا بنصف يوم مشيا.

وقد كانت خسائرنا في هذه المواجهة فادحة : حيث كان الرصاص ينزل علينا من كل صوب واجتيح المعسكر، واقتلعت الخيام، وقتل وجرح الرجال والبهائم. وقد أحصينا في الصباح 70 قتيلا وأكثر من 100 جريح، من ضمنهم امة سوداء للمنبهي قطع ساقها.

ومن المؤكد أنه لو كان رجال المحلة، على مشارف فاس لكان عدد انسحابات أكثر في الليل لكنهم الآن في منطقة مجهولة، محاطين بنيران الأعداء من كل الجهات، وكانوا متيقنين أن كل المنافذ المؤدية إلى خارج المعسكر محروسة جدا، فما عليهم إذن سوى البقاء.

ورغم ذلك فقد أظهر المنبهي، والقائد عمر اليوسي شجاعة وسلوكا وهدوءا ورزانة نادرة، فقد أطفأوا كل أضواء الخيام وأخرجوا الرجال من داخل المعسكر حيث هم معرضين أكثر للطلقات المنبعثة من الأعالي، ووزعوهم على التخوم من أجل التمكن من الأعداء إذا ما نزلوا من أعاليهم نحو المعسكر. بل إن القائد عمر اليوسي الذي كان محاربا جيدا لم يتردد في أن يخرج مع تجريدة من بعض الفرسان النظاميين الأقوياء ليأتي ببعض الأسرى يجرهم رجاله مقيدين بحبال قوية مع تكميم أفواههم. وقد كان وزير الحرب، صاحب التجربة الكبيرة في الحروب يشك في وفاء الحياينة الظرفي، والذين لازالوا بالمحلة، لأن من عادتهم نهب وقتل وسرقة أصدقائهم، قد كلف الكَلاوي والكَندافي بحراسة هؤلاء وقتلهم بمجرد عزم أحدهم على سرقة أو نهب إحدى الخيام المهجورة، أو سرقة فرس. مما كان له أثر واضح في حفظ النظام داخل المعسكر. وقد صعد قائد آخر : أحمد الحرابي، إلى أعالي هذا المنبسط وشرع في الرمي برشاشة في اتجاه نيران ورصاص البرانس.

وأخيرا انقضت هذه الليلة المرعبة، ولم يكد النهار يطلع ويضيء القمم والمضايق حتى خفت حدة التراشق بالرصاص، إلى أن توقف نهائيا، وعندما استوى النهار كله لم يبق أي أحد حولنا، حيث تراجع كل أهالي الجبال، فمنهم من ذهب إلى قبائلهم ومنهم من ذهب إلى تازة.

وفي اليوم الموالي وأعتقد أنه كان يوم 5 يوليوز (السديرة) انطلقنا للإقامة في مكناسة التحتانية، ثم اتجهنا بعد ذلك نحو تازة في خط واحد مستقيم عبر الطريق المارة بالحجر

الكط. وعبرنا الواد أمام تازة تحت وابل من الرصاص يقذف علينا من المدينة والأسوار والزياتين الموجودة في المنحدرات أمام الأسوار حيث كان غياثة الذين أخذوا بيدهم زمام حكم تازة باسم بوحمارة قد أجبروا السكان على موالاتهم ومحاربتنا. وكان لزاما علينا تقديم المدفعية إلى الأمام لتأخذ مكانها أمام الواد وتشرع في القصف، تارة على اليمين نحو قرن النصراني، وتارة على الشمال نحو الروف حيث تظهر تجمعات الأعداء. وقد أعطى هذا القصف نتائجه بسرعة، حيث بدأت نيران المدينة تضعف، ثم لتتوقف نهائيا وعلمنا أن غياثة قد فروا إلى الجبل تاركين السكان وحدهم. وأصبح ممكنا أن نتوقف تحت الزياتنين حيث يوجد الآن معسكر جيراردو. فقال المنبهي :

ـــ لقد طردنا الأعداء. فنحن إذن المنتصرون، لكن لنؤكد للجميع هذا الإنتصار فيجب أن ندخل المدينة. وبا لفعل دخلنا المدينة عبر باب جمعة بدون مقاومة، فانتشر أفراد المحلة على أطراف المدينة وقد كان هناك بطبيعة الحال بعض اللصوص وقطاع الطرق الذين يناوشوننا يمنة ويسرة، لكن بعض الطلقات القليلة كانت كافية لإجلائهم. أما أهالي تازة فقد جاؤوا مرتعشين خائفين من هؤلاء الوافدين الجدد، معتذرين طالبين رؤية وزير الحرب لإستعطافه : فقد كانوا مدفوعين كثيرا من قبل غياثة، الذين كانوا سيقتلونهم لو رفظوا أن يحاربوا معهم المخزن، فيجب قبول عذرهم، لأنهم أجبروا تحت الضغط والتعنيف ليسمحوا لهؤلاء المتمردين والفوضويين باحتلال، مدينتهم، لكن قلوبهم ظلت دائما مع السلطان الحقيقي بفاس الذي بايعوه بكل طواعية.

لكن الأفواج الشريفة المزهوة بهذا الإنتصار كانت تبالغ في نهب أحياء المدينة، حيث تسارعوا إلى الملاح، وهجموا على الدكاكين، وأخذوا الأموال، وأتلفوا السلع. إنها فعلا وحوش كاسرة أطلقت من قيودها، تغتصب النساء والفتيات اليهوديات بعد مطاردتهن، ويضرمون النيران، ويدمرون البنايات، ويعنفون الشيوخ الذين يحاولون حماية أنفسهم أو ممتلكاتهم، وكنا نراهم يقتادون فتيات لبيعهن في سوق النخاسة، وعندما علم المنبهي بهذه الأوضاع بعث جنودا نظاميين لإرجاع النظام، وردالنساء والفتيات إلى منازلهن. وسهر شخصيا على إرجوع الأوضاع إلى ماكانت عليه. لكن هذه الإجراء كان متأخرا جدا. فقد دمر الملاح تماما. وكنا نرى أفواجا من اليهود المتدمرين متجهة نحو مليلية أو دبدو.

فتوقفنا بعد أن كانت مشاهد النهب والصراخ والبكاء والإنفجارات قد هدأت شيئا فشيئا (7 يوليوز 1903).

وبعد ذلك جاء أهالي تازة مجتمعين مبايعين البيعة الرسمية للشريف سيدي محمد الوزاني (باسم السلطان بطبيعة الحال) حيث تعرفوا على قوة المحلة وسلطة مولاي عبد العزيز وبعث إلى غياثة بعد ذلك ما يلي :

«لقد هزمكم جنود المخزن ليس فقط في مكناسة، عندما جئتم مدعمين بالبرانس، في كهوفكم وراء صخوركم، بل أيضا حتى في تازة التي تحكمون فيها النساء اللواتي تركتموهن عندما جاء الرجال. فاتقوا قوة وغضب مولاي عبد العزيز ونيران المدافع التي تقتل من بعيد فسارعوا إلى البيعة، وسيغفر لكم، خاصة أنكم لستم سوى أطفال مشردين طائشين».
فجاؤوا بالفعل. لكن عندما كانت تأتي فخذاتهم المتتالية بثيران « التركَيبة» كان هؤلاء المتهيجين قد وجدوا الفرصة مواتية لشراء البنادق من جنود المخزن. وإطلاق النيران مزاحا، على مراكز الحراسة في أبواب المدينة، وأعتقد أن ذلك إجراء منهم لاختبار وتجريب مشترياتهم، ولما تكرر هذا الأمر وأصبح مقلقا، فإنه كان من اللازم وضع مدفعية 75 بباب الجمعة، وقصف الأفواج المغادرة التي تعرف مفعول شنايدرSchneider وبالتالي تم إيقاف هذا القصف.

وكتب المنبهي إلى السلطان، يخبره بالإستيلاء على تازة. وأن الأفواج المخزنية معسكرة الآن بالمدينة. وأضاف بأن بوحمارة قد فر إلى حدود سلوان. [13]

وعندما وصلت الرسالة إلى السلطان، قال الوزراء حساد ومعارضو المنبهي :

ـــ هذا ليس صحيحا ! غير ممكن !فلو أن تازة بالفعل تحت قبضة المنبهي، لم لم يأت ليأخذك إلى هناك؟ وسنذهب نحن جميعا.

لكن بعد مضي وقت قصير، جاء قائد المشور شخصيا، برسالة من وزير الحرب. فتأكد أن المنبهي قد انتصر فعلا، مادام أن قائد المشور جاء في طلب السلطان ليدخل تازة دخولا رسميا. فأعطيت التعليمات اللازمة بهذا الخصوص. حيث عسكرت آخر الوحدات المخزنية ومحلة السلطان والفراكَ مع مولاي عبد العزيز بالمطافئ على واد سبو. وطلب من المنتصر في تازة أن يأتي لصحبة السلطان إلى المدينة.

وبمجرد تلقي المنبهي هذا الأمر، سارع إلى أخذ جميع التدابير، وغادر تازة تورافقة القائدين سي المدني الكَلاوي وسي الطيب الكَندافي و100 فارس : حيث قطع الطريق خلال يومين مارا وبكل سرعة من بلد عدو، وقد كنت من ضمن الحرس (سالم العبدي)، ومن الواضح أنه ماكان لهذا الفوج أن يمر من هذه البلاد لو كانت تعلم هذه القبائل بذلك. وقد استنتجنا أن الطرق التي خلفنا مقطوعة الآن.

ولما وصلنا إلى السلطان، نودي على المنبهي الذي هنأه السلطان على استرجاعه المدينة. متأسفا على عدم وجود بوحمارة بها، ثم قام : بجمع ودفع الامدادات نحو وجدة (فقد كان موجودا بها منذ 26 يونيه)، وبعث المخزن إلى هذه الجهة ب 1500 جندي من طنجة، بقيادة الحاجب سي احمد الركينة، الذي كان عليه الوصول إلى وجدة عبر أراضي وهران للدفاع عن المدينة. ولعل هذا ما يفسر غياب الحاجب الملكي عن السلطان. (كان انطلاق هذه الأعداد من طنجة يوم 8 يوليوز) وأخيرا، فإما رغبة في الإنتقام أو بإيعاز من

الروكَي، فقد حاصر غياثة تازة، وأصبحت الأوضاع في هذه المدينة المفتوحة غير قارة من جديد.

وقد علمنا أن شرفاء تازة الذين يبدون معزولين ومحاصرين قد بدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم، ونسبة الإنسحابات قد كثرت في صفوفهم، لأنهم لم يتوصلوا بأجورهم. مما جعل العلاف، وبموافقة من السلطان يبعث إليهم بقافلة من المؤن بقيادة سي المدني الكَلاوي تحت حراسة 400 فارس وراجل. فانطلقت مبكرا من بوعبان نحو تازة، حيث أخذت كل التدابير والإجراءات بسرية تامة. لكن جميع الطرق المؤدية إلى المعسكر كانت محروسة، ولم يكن من الممكن الوصول دون مشاكل. فانطلقت هذه القافلة ليلا حيث وصلت عبر باب أبوغ (Col des Zouaves حاليا) إلى الحجرة الكحلة (واد امليل) مع وحدات التقوية الراجعة إلى أوطابوعبان. وعند طلوع النهار غادرنا الحجرة الكحلة إلى تازة. وكانت تلاحقنا النيران على طول واد الهدار، لكن لم تكن تؤثر على السير العادي للقافلة وكنا نترك الجرحى الذين لا يستطيعون مواصلة الطريق، لأنه كان لابد من الوصول قبل هبوط الليل. وقد سرقت بغلتان أو ثلاثة في الطريق محملة بالنقود، وقد جرح القائد سي المدني في هذا الرحلة ثلاث مرات.

ورغم هذه الظروف، وفي الوقت الذي دخلت فيه الأفواج لحراسة المعسكر، نظم المنبهي، وكان على صواب في ذلك، صوكَة في اتجاه قصبة أولاد حامد لشغل اتسول عن مهاجمة القافلة. ورغم كل هذه المشاكل والمصاعب فقد وصلت تازة قبل « الظلام». وقد خلف هذا الوصول ارتياحا كبيرا في نفوس المحاصرين. ولم يعودوا يجهلون أن الطرق مقطوعة خاصة أن السلطان لم يأت إليهم، وأن هؤلاء الرجال واجهوا مشاكل كثيرة في الوصول إليهم.

لكن رغم هذا كله، لم تكن عملية اوطابوعبان مشجعة. لأنه كانت الأفواج السلطانية تقود بنفس السرعة التي انطلقت بها مطاردة من قبل اتسول والبرانس، ولم يكن يبدو في الأفق أي أمل في خضوعهم رغم تدخلات الشرفاء. كما يبدو من المستحيل إجلاء حامية تازة وكان السلطان قد حل هذه الوضعية الصعبة والرتيبة. فشرع الوزراء من جديد في انتقاد المنبهي، ويقولون للسلطان :

ــ إنه، وبفضل ذهبك، وليس ببنادقه استطاع المنبهي دخول تازة. ومن حسن حظه أنه غير موجود بها الآن.

فأخبر المعني بالأمر، الذي قال يوما للوزراء أمام السلطان :

ــ لقد علمت أنني ألام وأعاتب كثيرا من جديد : ويقال بأنني دخلت تازة دون حرب أو مقاومة. وأعتقد أنه من السهل أن نقف على القدرات العسكرية لكل واحد منا. فما على السلطان إلا أن يبعث بكل وزير على رأس صوكَة ما.

وهذا ماتم بالفعل. وقد كان يلاحظ أنه في الأيام التي كان فيها المنبهي يقود جنوده كانت صوكَته ترجع بكل حرية وفي الوقت المحدد. لكن حينما كان ينطلق الوزراء أو قائد المشور في صوكَة ما، فإنهم يرجعون دائما إلى خيامهم مهزومين متعبين.

وتوالت الأيام دون تغيير الوضعية، وبعد مرور أيام عن وصول قافلة المدني كنا نرى قدوم مختلف قواد القبائل المحاصرين في تازة إلى اوطابوعبان، فقد استدعاهم السلطان، ولا أعلم لماذا؟ عقم النظام، أخبر السلطان بكل مشاكل وسلبيات ترك الوحدات دون قائد حتى إن أخبارا حملها رقاص تقول بأن الإضطرابات والفوضى قد عمت في الصفوف، لكن القواد تجاهلوا النبأ وغادروا تازة. وفي طريقهم هاجمهم الأعداء التقليديون : البرانس واتسول وغياثة، الذين ظنوا بعد مرور المدني أن تنسيقا ما تم من المحلتين وعملوا على حراسة كل المنافذ الطرقية، فتسببوا بذلك في عدة قتلى وجرحى وأسرى في صفوفنا، حيث قطع في هذه المواجهة رأس قائد الشاوية : برشيد وحمل وسط احتفالات التبوريدة إلى مناطق اتسول. ورغم ذلك فقد كانوا مسرورين بهذا الهرب من مصيدة تازة، والرجوع إلى بلدانهم ورؤية عائلاتهم وإشباع بطونهم، وممارسة مهامهم المكلفين بها، وألا يمكن القول إنها قبائل الحوز التي قد حاربت التمرد؟ خاصة أنه كان هناك كل القواد : سي عيسى بن عمر، وبرشيد الذي قتل كما قلت من قبل قليل وبن خدة من لالة إيطو، والكَداري من بني حسن.

وعلى العموم فإنه لم يبق في تازة المحاصرة سوى سي المدني الكَلاوي وأمينه وكاتبه سي أحمد الجاي الذي كان وزير الأحباس في عهد مولاي يوسف[14]. وعمر اليوسي، وقاد الرحى والأفواج النظامية، حيث ذهب مختلف قواد القبائل ووحدات النوايب إلى وطابوعبان، واستقبلوا استقبالا باردا بعد وصولهم في حالة سيئة، حجتهم في ذلك أنهم كانوا مدافعين في نظام، وأضافوا بأنهم مسرورون بمرورهم ومجيئهم، خاصة أنه، وقبيل قليل (22 غشت) كانت حركة قوية من الفرسان قد حاولت العبور إلى محلة السلطان عبر واد الهدار لكنها لم تتمكن من ذلك.

وقد كان اتسول يحاصرون المحلة دائما، وكنا لا نعرف الكيفية التي تستطيع بها حامية تازة التحرر والتحرك وحدها، بعد أن فقدت نصف عدد أفرادها. ثم إن الشتاء كان على الأبواب، حتى إن حاشية مولاي عبد العزيز كانت ترى أن الأوضاع بوطابوعبان أخطر مما كانت عليه بتازة. خاصة ان الرحلة دامت ثلاثة اشهر (دون طائلة) أليس الرجوع إلى فاس أفضل؟ ثم العودة إلى هنا في ظروف أكثر ملاءمة وأحسن. وكتب السلطان إلى محلة تازة أن تلتحق بوجدة لسحق الروكَي، أما هو فسيذهب إلى فاس نظرا لسوء أحوال الطقس فرجعنا دون أدنى تقطعات باستثناء مناوشات من قطاع الذين تبعونا حتى واد سبو (30 أكتوبر 1903).

هكذا انتهت محلة المنبهي الكبرى، التي لم تقدم للمخزن شيئا سوى استرجاع تازة. أما الجنود الذين بقوا بها فأصبحوا أسرى للقبائل المجاورة ومن الواضح أنه منذ انطلاقنا من لوطا كانت كل الإجراءات قد اتخذت في ذلك الإتجاه. وقد كانت كل هذه الخسائر تنسب إلى المنبهي الذي بدأت مكانته قرب السلطان تتقلص بشكل واضح. ولم يعد الوزراء يتحرجون من أن يقولوا لمولاي عبد العزيز، الذين يروا قواته قد انهكت وأمواله قد تبددت « إن المسؤول عن هذه الفوضى هو المنبهي، فلا تعطه أموال المخزن ليبددها ويضيعها من جديد». لكن الوزير لازال محتفظا ببعض الأصدقاء الذين يحمونه ويخبرونه لكل المستجدات، وفهم أنه إذا وصل إلى فاس، لابد أن يركب أخطارا كثيرة للإفلات من السجن، وتشتيت أسرته ومصادرة أملاكه، فطلب من السلطان الإذن له بالذهاب إلى الحج مرة أخرى.

وقد كان لقاؤه مع السلطان سهلا، حيث دخل إليه وجها لوجه وبعد أن قبل المصحف ووضعه بين يدي السلطان وقال له :

ـــ اسمح لي سيدنا أن أقول لكم شيئين : الأول : هو أنني لست خائفا ومسيئا. . . وأنني تفانيت دائما في خدمة المخزن وسيدنا. والثاني وهو ما أطلبه منك الآن وهو أن تسمح لي بالذهاب إلى الحج، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

فأجاب مولاي عبد العزيز.

ـــ نعم، جيد، إن فراقك ليؤسفني؟ لكن هل ستتخلى عني؟

فأجاب الآخر :

ـــ لا فعندما أرجع سأعود إلى منصبي ومهامي إذا أردتم، لكنني أظن أنه من الأفضل أن أذهب الآن، فلا شك أن سيدي يدرك الآن الفرق بيني وبين الآخرين.

فأخذ السلطان طلب المنبهي وعرضه على الوزراء الذين قبلوه خاصة أنهم كانوا لا يبحثون إلا عن إجلائه.

فقال السلطان :

ـــ يمكنك الذهاب إلى الحج، لكن من تقترح علينا أن يكون بذلك؟

ـــ فإذا رغبتم، فيكون خليفتي هو سي : محمد بن كبور.

ـــ جيد، فقد قبلت.

فبدأ المنبهي استعداداته للسفر، ولما كان ذكيا، فإنه ألجم 50 إلى 60 فرس كانت عنده في إصطبله، واقتادها مع بعض الجمال و البغال إلى القصر لترجع إلى السلطان، فلما سأله مولاي عبد العزيزعن هذه الهدايا، قال بأنه يفضل أن يتركها لسيدنا من أن يتركها عنده في منزله في متناول الأخرين، فودع السلطان من جديد، وأعطاه مبلغا هاما من النقود.

ولم يهتم في سفره هذا، بأخذ إذن بالعطلة من اعدائه الوزراء الذين كانوا يقولون له متظاهرين بالحنان والشفقة :

ــ متى ستذهب إذن؟. . . أبهذه السرعة إن هذا الفراق يؤلمنا فالمخزن كله سيفتقدك أو لسنا كلنا إخوة؟

ــ نعم فأنا اشكركم على مشاعركم، وسأذهب غدا إلى طنجة عبر باب السكَمة.

ــ آه ! وهل سترجع إلى فاس؟

ــ أجل، بالتأكيد، فسآتي لزيارتكم أنتم والآخرين، ثم أنه لازالت عندي بعض المشاغل هنا.

وبعد مراسيم الوداع هذه تجمع الوزراء فيما بينهم وهنأوا أنفسهم على رحيله.

ــ نتمنى من الله لو أنه نهب قبل وصوله إلى طنجة. فالطريق طويلة.

ــ فقال ادريس بن يعيش الذي يدرك جيدا خطتهم ومشروعهم :

ــ لا تفعلوا هذا، فهو لم يسئ إليكم، ثم إن السلطان لازال يحبه.

فقال أحدهم :

ــ لاأظن ذلك. فهو لم يفعل شيئا لكي يحتفظ به فهو غاضب منه لأنه لم يستطع الدخول إلى تازة.

ــ لكن لا يجب أن ننسى أفضاله علينا، فبفضله وصلنا كلنا إلى المخزن وإلى المناصب التي نشغلها حاليا، فاحذروا من رجوع الأوضاع إلى نصابها ومن تقلبات الدهر وانتقام القدر.

ــ هذا مؤكدا ! لكن لا سي فضول غرنيط ولابن سليمان ولابن يعيش يحبرنه. فالكل هنا في المخزن والمدينة ضده. إنه رجل أصبح ضعيفا، ولن نراه أبدا.

ــ ويمكن أن نقبض عليه قبل أن يهرب. إنها ليست عملية كبيرة؟

فقال قائد المشور :

ــ إذا أردتم، فسأتكلف أنا بهذه السخرة !

ــ نعم. لكن كيف ستفعل؟

ــ الأمر بسيط، سأستدعيه لوجبة الغداء وسأقبض عليه حين الوداع.

ــ إذن، فأظهر لنا أنك في مستوى مسؤوليتك؟ (حنة يديك).

وحاولوا أخذ معلومات حول سفره من عبد الكريم ولد با محمد الشركَي، باشا شراكَة، لأن أخته هي زوج المنبهي. لكن عبد الكريم نفى أن يعرف شيئا بهذا الخصوص.

ـــ لا تريد أن تقول شيئا لأنه صهرك.

فقال الآخر :

ـــ كلا ! فليست بيني وبينه أية علاقة. ثم إنني لست أنا من زوج أختي للمنبهي، بل المخزن. لأنها كانت بقصر مولاي الحسن وكان يريدها لمولاي عبد العزيز. لكن عبد الكريم، في الواقع، كان يحب صهره كثيرا، ولم يتردد في اخباره بالمكيدة التي تدبر ضده.

وكما كان متفقا عليه، فقد جاء في المساء استدعاء من قائد المشور للمنبهي لوجبة غذاء في اليوم، فكتب إليه الجواب التالي «. نعم لقد قبلت، وأنا سعيد بأن أحضى بشرف ضيافتكم ».

لكن بادر، وبسرعة إلى إعطاء تعليماته بجمع الأمتعة، وتهيئ كل شيء ليلا. وعند الفجر عندما فتحت بوابتي باب محروق. كانت قافلة بالقرب منه تنتظر الخروج، فانطلقت إنها دار المنبهي. حيث اتجهت شمالا نحو الشراردة. وفي نزالة بني عمار اتجهت نحو طنجة عبر ممر سكوطة. ثم ارتاح المنبهي بعض الوقت بطنجة عند الوزير البريطاني حيث يحس في أمان أكثر. ثم ذهب بعد ذلك إلى الحج عبر جبل طارق، ومرسيليا والإسكندرية والبحر الأحمر. وقد رافقته في سفره إلى البقاع المقدسة الذي دام أربعة أو خمسة أشهر. وقبل مغادرته طنجة كان قد كلف صديقه بنيس بالشروع في بناء منزل له على بقعة كان قد اشتراها. لأنه لا يفكر في العودة إلى القصر [15] وفي فاس، كان قد ناب عنه بعض الوقت خليفته بن كبور، لكن السلطان قد عين محله سي محمد الكَباص الذي جاء من الجزائر بعد أن كان عاملا للسلطان بها، تنفيذا للإتفاقات بين فرنسا والمغرب . [16]

ماذا أصبح بوحمارة؟ مطارد، متابع. إنها ايام قد زالت وانمحت

لقد تركت المحلة بتازة تحت قيادة سي المدني الكَلاوي. حيث إن كل القبائل المجاورة قد هاجمت تازة وحاصرتها من جديد. ذلك أن غياثة ومكناسة واتسول والبرانس، يحتلون دائما منافذ العبور إلى المدينة. حتى إن الأفواج المخزنية كانت مضطرة إلى أن تقصف النيران من فوق الأسوار، ثم إن الحياة بها أصبحت أكثر صعوبة. خاصة أن المؤن والإمدادات لم تعد تدخل إلى المدينة.

فضلا عن هذا، فإن بوحمارة – الموجود بناحية وجدة، كانت تقدم إليه وإلى رجاله المؤن والأطعمة من قبل قبائل المنطقة : أنكاد « بني بوياحي، امهاية، بني بوزكَو، مسارة بني خالد. ويتطلع لأخذ محلة سي أحمد الركينة الذي استرجع وجدة (11 غشت) بعد أن وصلها بحرا بواسطة الفرقاطة الشريفة سيد التركي – وقد علم أن السلطان قد غادر أوطابوعبان، وأن أتباعه يحاصرون أفواج تازة المقطوعين في فاس، فبعث ببعض الرجال، وكتب إلى غياثة :

ـــ فلتهنئوا ولترتاحوا، فستتمتعون، وتنعمون بالراحة بعد أيام كيف شئتم[17]. وقد دام حصار تازة إلى حدود نونبر، وكان عدد الفارين من الجنود يتزايد، والمدني الكَلاوي لا يعمل سوى على تضميد جروحه المتوالية، وكان يعاني كثيرا من أجل حفظ النظام، وكان يخشى أن يتجه بوحمارة شرقا نحو تازة، بعد أن تكون قد طاردته وزاحمته محلة الركينة. وحتى يضمن سلامة الحامية فإنه عمل على تقوية الحراسة في جهة وجدة (أي الباب الذي ينطلق منه نحو وجدة)، فأرسل إلى عين المكان عدة طوابير نظامية : حيث كان هناك أربعة طوابير من الرحامنة وواحد من الشراردة وواحد من زمران. وقد استطاعت هذه القوة أو الدرع الأمامي المتحرك دفعة واحدة، أن تمر دون مشاكل كبرى لتصل إلى قصبة مسون نهارا، ولتحتلها دون مقاومة.

وبعد هذا كله، كان حصار تازة يزداد اتساعا وقد لوحظ ذلك أنه عندما حاولنا في احدى الليالي استرجاع القطيع كانت الوضعية أكثر صعوبة مما كنا نظن. حيث كان الأعداء يتحركون بسرعة كبيرة ويقتلون الجرحى المتبقين في الخلف. وحدهم الرجال الذين كانوا يحسنون الركوب هم من استطاع العودة إلى الساحة / القاعدة، بنفس السرعة التي انطلقوا بها.

وها هو بوحمارة المخبر بكل المستجدات قد جمع كل وحداته، وقرر الذهاب إلى تازة من أجل مد يد العون إلى كل القبائل التي تحاصرها.

وعندما وصل إلى قصبة مسون اصطدم بوحدات المدني الأما مية، ودام تبادل النار اليوم كله. واستغل هبوط الظلام ليرسل «رقاصة»/ رسل إلى تازة للإخبار بالوضعية أو الحالة الجديدة وطلب التقوية، فأرسل سي المدني على التو الجنود اللازمين بقيادة عمر اليوسي، حيث كان هناك : النظاميون من طابور الحرابة، وبعض رجال القبائل معززين بمدفع 75 (سديرة). وبوصول هذه الإمدادات عم الأمان ورجع أتباع بوحمارة إلى وجدة. وعلمنا أن الروكَي مصاب إصابة بالغة، وأنه مختبيء في جبال أولاد زمور شمال مسون وقد كان حراس القصبة يعيشون من إمدادات السكان رغم أنهم غير مرغوب فيهم، لكنهم بقوا ثمة وقرر المدني مدهم بالمؤن وابقاءهم في نفس المكان. ورجع عمر اليوسي مع مجموعة إلى تازة. وبعد شهر اتجهت المحلة كلها نحو وجدة، حيث اتضح أن الروكَي موجود بضواحي هذه المدينة.

لقد كان الخروج من تازة سهلا، لكن منذ الإنطلاق من تازة كان السكان وغياثة ينتقمون من « أولاد كرونيل» الذين لم يستطيعوا اللحاق بالمحلة، وقد كان جنود المخزن يسمون هكذا تذكيرا بتأثير الكرونيل ماك لان - حيث عنفوهم بكل الطرق وشوهوا جثتهم.

وصلت الأفواج الأولى من المحلة إلى مسون، حيث لحقنا بالطوابير المعسكرة في القصبة. وقد كان مقامنا هنا طويلا، خلاله جاء بني وارين وغياثة كعادتهم لإزعاج الحملة من

المرتفعات المجاورة لكنه لم تكن هناك أي مواجهات تذكر، ولكي يبرز المدني قوتنا ويبهر أهالي الجبال، فإنه عمد إلى تصفيف المحلة على شكل دائرة فوق منبسط مسون بكل فرسانها ومشاتها ومدفعيتها وبغالها.

ومن هنا انطلقنا لنعسكر على ضفاف واد مسون عند أولاد مسعود، ثم إلى ملوية قبلة ثم إلى تاوريرت على ضفاف واد زا. حيث كان تحرك المحلة معرقلا من قبل بني بوياحي وبني قولل الذين كانوا يرغبون في نهب مؤخرة المحلة وسرقة البغال لكنها ظلت متماسكة حتى اختفى الأعداء، وعند مرورنا بتاوريرت كنا نجد كل دكاكين الملاح مقفلة - فقد فر اليهود بدون شك إما إلى دبدو أو إلى الحدود الجزائرية - وقد كان النهب كثيرا عند مرورنا، وفي اليوم الموالي شرع المدني في اطلاق نيران المدفعية يمينا ويسارا على بعض التلال التي تجمع فيها بعض أفواج الانفصاليين.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى مستيكَمار عند بني بوزكَو، الذين كانوا يستعدون للقيام بعمليات حربية في الجبل، لأنهم لو نزلوا إلى السفح فسيهزمون، لكن لم يكونوا هم من نقصد، ثم وصلنا إلى عيون سيدي ملوك حيث أقمنا قرابة أكثر من شهر جاءت خلالها قبيلتي بني يزناسن وأنكاد معلنتين الخضوع. لكن أغارا علينا ليلا، رغم ذلك، لأنهما كانتا غاضبتين من قوادها الذين استغلوا وجود المخزن لاستنزافهما أكثر، وبعد مرحلة العيون القوية هذه، وصلنا إلى واد إسلي قرب سيدي عيسى. حيث قضينا الليل. وفي اليوم الموالي عسكرنا بوجدة (يوجد سيدي عيسى على بعد كيلومترين جنوب غرب المدينة).

لم نلتق ببوحمارة عندما كنا في اتجاه وجدة، ظانين أننا سنجده أمام المدينة بضواحي واد إسلي، لكن هذا المحتال، رجع عبر أغبال إلى عاصمته القديمة تازة، حيث تابع تضميد جرحه الذي كان يتعبه أكثر. وفرض ذعائر جديدة، وضم الوحدات وإعداد الهجمات المقبلة.

وكان الهدوء والأمان يسود أطراف ونواحي وجدة. فقد كانت المنطقة منهكة من مرور وإقامة هذه الأفواج. وأذن بجلب المؤن الضرورية من الجزائر. أما الذخائر والعتاد، فقد كانت تأتي بواسطة القوافل من لالة مغنية أو عبر البحر إلى ميناء ساي Port-Say. حيث تحملها السفينة الشريفة التركي (على امتداد الحدود (مع الجزائر). حيث نأخذها من قرب «زوج بغال»). فكل هذه القوافل والحدود والبحر، القريبة قد ساعدت كثيرا من المغاربة للفرار، منهم من رغب في حياة أرغد بالجزائر، ومنهم من يود الهروب إلى مينائها، يمكن أن يصل منه إلى غرب المغرب، ولقاء أسرهم الذين غادروا هم منذ مدة.

وانتهى كل شيء، حيث فصل الشتاء الذي يصعب فيه التحرك العمليات (وقد كنا نهاية نونبر بالعيون، وفي نهاية دجنبر بوجدة). وترك بعض المحاربين سلاحهم واتجهوا إلى

قبائلهم للحرث. ولم يبق هناك سوى بعض النظاميين المخزنيين بوجدة ولازال أتباع بوحمارة بتازة كالسابق، واتضح للجميع أن الروكَي استطاع أن يقاوم المخزن رغم ما أنفقه هذا الأخير من أموال دون القبض عليه. فهو الآن يحتل تازة وينتظر ظروفا أحسن للهجوم، لكن يبدو أن خزينة بدورها غير قادرة على إتمام المواجهة.

وقد مضت سنة، كان المخزن موجها فيها عنايته واهتماماته إلى الخارج، خاصة أن متمردا آخر قد بدأ نجمه يظهر بناحية طنجة. إنه الريسولي الذي استغل هذه الإضطرابات ليحصل على امتيازات أكثر. وسأحكي لك قصته بعد قليل، وما دمنا نتحدث عن بوحمارة، فإني سأحدثك عن آخر محاولاته.

في فبراير 1904 ، نودي من المحلة بوجدة على الملازم سديرة ومدفعه 75 الذي طالما حسم في المواجهات. وقد كانت ثقة المخزن كبيرة في المدفع 75. فطلب أعدادا أخرى منه بالإضافة إلى 500 قذيفة مدفعية. وأثناء حصار تازة، كان غياثة قد أعطوا 800 دورو لمن يجيئ برأس سديرة. فالتحق هذا الضابط إذن بالرباط بحرا، ثم إلى فاس حيث بعثه قائد البعثة العسكرية الفرنسية Fariau (الذي عوض الكولونيل Saint-Julien في أبريل 1903) إلى طنجة مدربا للمدفعية [18]. لكن استدعي من جديد في نهاية دجنبر 1904 من وجدة، خاصة عندما شاع خبر وصول بوحمارة.

وبالفعل، فقد غادر الروكَي بمحلة قوية تازة، بعد أن أخذ ما يكفيه من العتاد والمؤن وتحرك عبر الطريق التي جئنا منها خلال فصل الشتاء لتصل إلى مشارف المدينة.

وعندما علم المخزن بهذا الهجوم استقدم المدفعية وسديرة مع مدفعه 75 من طنجة حيث وصلوا بحرا، ولم يبق بوجدة سوى بعض الوحدات النظامية. وقد كان طول وقت العمليات، والشك فيما سيؤول إليه الأمر غدا، وانقطاع اتصالات المغرب بالخارج، والحياة المضطربة في القبائل، قد دفعت بالكثير من غير النظاميين إلى مغادرة المحلة تحت ذرائع مختلفة. حيث غادر بعضهم المحلة بحرا، لكن أغلبهم اتجه نحو الجنوب الجزائري أو الجنوب المغربي، وهكذا عبر المدني مع بعض القواد ووحداتهم أيضا وبشكل متتابع إلى الجزائر. ولم يبق سوى جنود الطوابير مع قواد الرحى، وأرسل بعض القواد الجدد من فاس بحرا وهم : مولاي مصطفى بن مولاي عبد الرحمان بن سليمان قائدا عاما، تحت إشراف سيدي بوشتى البغدادي وسيدي عبد الرحمان بن عبد الصدوق.

ستحاصر إذن أفواج الروكَي المدينة قريبا. حيث وجدوا شريكا ثمينا. بوحمارة الشهير، والمتمرد الجزائري مع وحداته من اولاد سيد الشيخ والشعامبة أعتقد أن بوحمارة عندما رجع إلى وجدة لا إلى فاس، كان لا يريد أن يدخل على أهل فاس إلا وهو شريف، معتمدا في ذلك على خليفته بوعمامة. ثم وضع مدافعه على تل يشبه قالب سكر، يشرفه على كل

وحدة يسمى السمارة الصغيرة، وقصف من هناك المحلة الشريفة المعسكرة بسيدي موسى، كما كان يساعد حلفاءه بصوكَات اسبوعيا ضد وجدة.

كما كانت المحلة تقوم مرارا بخرجات من وجدة. فقد تقدمت مرة بشكل غير مبال نحو معسكر بوحمارة مسيئين تقدير قوة بوحمارة، وبوعمامة الموجودة بجانب المدينة. وقد كادت أن يقبض عليها ورجعت مهزومة إلى وجدة. مخلفة خسائر كبيرة وعدة قتلى وجرحى (3 يناير 1905).

وبعد هذا، سوف يأتي دور أعدائنا ليتابعهم ويعنفهم أتباعنا بقيادة أحمد بن كروم (23يناير). فمرت شهور دون أن يكون هناك شيء يذكر، وعلمنا في أحد الأيام، أن المتمردين كانوا يحاولون دائما نهب المدينة (وقد كان مع بوحمارة، ليس فقط بوعمامة الذي جاء من بني مظهر جنوب وجدة، لكن أيضا عبد المالك الذي جاء مع أتباعه من شمال تازة) فبعثوا بمخبرين لهم إلى معسكرنا ليجعلوا جنودنا يفرون « إنكم لستم مسلمين حقا، مادمتم تحاربون مع المسيحيين، إنكم دائما أولاد كرونيل، فتعالوا معنا وانطقوا بالشهادة » فقاموا بعمليتهم (مساء يوم 8 و 9 أبريل)، وقد كان بوحمارة ونظاميوه ومدفعيته متمركزين في أعالي جبل السمارة الذي حدثتك عنه. وقد كانت الجهة اليمنى مكونة من وحدات بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ والشعامية المعززين بزكارة وبني يعلى، وكانت الجهة اليسرى الأكثر حركية مكونة من فرسان السدجة وانكاد وامهاية، وبني محيو، وبني بوزكَو، وكانت المواجهة / الحرب شديدة وعنيفة، حتى إن رجال بوعمامة كانوا يصلون إلى حدود خيامنا. لكن الجهة اليسرى كانت لا تحارب إلا متراجعة، وفي نفس الوقت كانت مدفعيتنا تقصف نحو سمارة بفعالية لا بأس بها، لإجبار بوحمارة على التراجع (9 أبريل 1905).

كما كانت هناك هجمة موازية تغلبنا عليها بدورها (30 ماي)، وفي الأخير واجهنا محاولة أكثر شراسة، حيث انتظمت أفواج الهجوم في ثلاثة حملات وصلت إلى حدود خيامنا، ولولا تدخل مدفعية البعثة العسكرية الفرنسية لا نهزم أتباعنا، وعند نزول الظلام طاردهم المخزن إلى ما بعد (1 يوليوز).

وظل السلطان دائما في فاس. مهتما شيئا ما بأفواجه المحاربة بوجدة. وقد كانت الإتصالات بين العاصمة ومحلتنا تتم دائما إما من الجنوب أو عبر البحر. ولإنهاء هذه العملية الأخيرة، ترك السلطة المطلقة وفوض الأمر لنائبه بطنجة : سي محمد الطريس.

وقد كان لتدخل الحكومة والأموال الفرنسية بدون شك أثر واضح في إخضاع المخزن لعبد المالك وبوعمامة، وبالنسبة لهذا الأخير، فإن ابنه سي الطيب قد سلم نفسه للسلطان الذي سجنه بموكَادور. وقد كان الجزائري الذي كان متمردا دائما على الحدود الجزائرية المغربية يطالب الحماية / باللجوء السياسي في فرنسا، أما المخزن فقد كان يريد الإحتفاظ به

رهينة لتفريق بوعمامة (أبوه) عن الروكَي بوحمارة ووصل هذا الرجل إلى طنجة ليركب سفينة Galilée، والذهاب إلى الجزائر حيث بقي بها إلى حدود 32 يونيه 1906.

وبعد هذا التشتيت للقواد المتمردين، بدأ نفوذ بوحمارة يتقلص بشكل واضح وبدأ عدد أتباعه يتناقص، بعد أن وجدوا أن سمعته وبركته لاأساس لهما من الصحة، خاصة أن وجدة بقت صامدة أمامه خلال شهور. وذات صباح من شهر أكتوبر، أصبحنا نذخل ونخرج من وإلى المدينة بحرية دون وجود اي عدو. فقد التحق الروكَي بجباله.

فقد ذهب عند سلوان قرب البحر مع مخزنه الصغير، حيث كان يزود وبسهولة بالأسلحة والمؤن بل والأطعمة أيضا، وينتظر ظروفا أحسن للدخول من جديد في المواجهات وكان قد فقد كثيرا من ولاء القبائل له، خاصة بعدما علمت بعلاقاته أيضا مع الإسبان والفرنسيين.

ولم نعد نتحدث عنه كثيرا بل توجه الإهتمام كله إلى رجل قوي، شريف حقيقي تتنامى قوته نحو جهة فحص : المسمى الريسولي، الذي سأحدثك عنه. وإلى أخ مولاي عبد العزيز وخليفته على الحوز وسوس منذ نونبر 1901 وأعني مولاي عبد الحفيظ.

لقد كان المخزن « مريضا» بالفعل، ففي الشمال كان بوحمارة يلعب دائما لعبة السلطان خاصة أنه شريف. وفي الجنوب كان أخ مولاي عبد العزيز يستعد للإنقلاب ضد أخيه الذي لم يعد يستطيع ضبط أمور « منزله»، وينتقده كثيرا على إضاعته الأموال والترفيه واقتراض النقود، وعن تراخيه في مواجهة المتمردين المحيطين به. أما وزراؤه الذين ينتظرهم مؤزارة المخزن، فكانوا في صراع دائم فيما بينهم ولا يفكرون سوى في جمع الأموال، وتصرفوا مثل وحداث القبائل التي شرعت في نهب أمتعة المحلة المهزومة قبل الهروب إلى دواويرهم، كفئران أمام كيس قمح مبعوج.

الهوامش

1- يتعلق الأمر بمبشر أنجليزي أنجليزي يدعىM. Cooper (أكتوبر 1902).

2- التحق عمر التازي بسفارة المنبهي ككاتب (1903). وقد كان «أمين المستفاد» أي واجبات وضرائب اسواق فاس.

3- الطلبة المهندسين : فوج أحدثه مولاي الحسن، ليحصل على مهندسين معماريين ومهندسين في الطرق أو غيرها. وقد بعث بعضهم إلى فرنسا لمتابعة دروسهم. لكن نتائج هذا المعهد لم تكن في المستوى المطلوب.

4- قطعة أرض صغيرة مسيجة بالأشواك، لحماية المزروعات والسكن.

5- نشير هنا إلى بداية نمو ثروة بوحمارة الغريبة، المستند أساسا على الشعوذة، وخدعة الرسائل التي حررها بيده لتشغيل انتصاراته، واستغلال سذاجة أتباعه. فلا يلزم لخلق سلطان ما سوى خلق تيار معارض. وتاريخ وأصول ابن ياسين أو ابن تومرت أو المرابطين والموحدين شبيه بهذا الوضع الحالي، فلا يلزمه سوى بعض النقود وتسقط فاس بيده.

6- كان أول يوم في رمضان 1902 هو ليلة 1و2 دجنبر، عيد الفطر كان في فاتح يناير. ومن الممكن أن تكون هناك هدنة بين المحاربين بين 15 دجنبر حيث بدأت الصوكات و23 من الشهر نفسه الذي وقعت فيه الإضطرابات بين صفوف الأفواج المخزنية، لكن ليس بسبب رمضان، لأنها بدأت قبل ذلك بكثير، ولايتذكر راوينا إلى أن هذه الأحداث كانت في رمضان، وهذا صحيح.

7- لقد خصص فصلا مهما عن بوحمارة

Le Maroc d'aujourd'hui, chap. viii, p 108 A. Colin 8e edition.

8- كان لقب الروكي قد أعطي لذلك الشخص الذي حاول الإستيلاء على الملك دون أن يكون أهلا له، كما وقع في عهد سيدي محمد بن عبد (الرحمان) كان يسمى الجيلالي الروكي الرواكة (سفيان الغرب)، لكن قضي عليه في بداياته.

9- اقترض السلطان ما بين فبراير ومارس 1903 مبلغ 7500000 فرنك من باريس ومبلغا مماثلا أيضا من لندن ومدريد.

10- بداية فبراير 1903.

11- بالنسبة لهذه الفقرة من هذه التذكرات. فإن مصدرها مزدوج، شق منها لسي عبد الرحمان بن سديرة، والآخر للخليفة الحاج سالم العبدي، اللذان شاركا معا في هذه الحملات. فعندما كان الحاج سالم العبدي في الحج مع المنبهي. كانت تلك الخمسة الأشهر من الأحداث بحكاية عبد الرحمان بن سديرة.

12- مسكن أو تخييم فصل الشتاء في بلاد البرابر، حيث تخصص المساحة الكبرى للقطيع، وتختلف مساحة هذه الأراضي من شخص لآخر. وغالبا ما يستقرون في الأرض الخصبة والصالحة للزراعة.

13- في الواقع إن بوحمارة كان منذ شهر ابريل بمنطقة واد كرت قرب قصبة سلوان، التي بدت له أكثر صلاحية لمشاريعه المستقبلية بتازة. وليست محلة المنبهي هي التي طاردته إلى هذا المكان.

14- توفي سي احمد الجاي بفاس يوم 19 أبريل 1928. فقد ولد في فاس سنة 1860 ، وهو أصلا من قبيلة «الحياينة» وكان متحسب فاس في عهد مولاي عبد الحفيظ، وأمينا للبنايات المخزنية، ثم وزيرا للشكايات، وأصبح سنة 1912 وزيرا للأحباس في عهد مولاي يوسف. وقد توقف عن مزاولة مهامه في بداية عهد سيدي محمد بن يوسف (1927).

15- وهكذا غادر الحاج المنبهي إلى طنجة، وتوفي بها ليلة 26أو27 يناير 1941.

16- يتعلق الأمر باتفاقات يوليوز 1901، التي حسمت في الحدود الجزائرية، المغربية، والإعتراف باحتلال فرنسا لواحات (كورارة، وتوات، وتيدكلت). وكان لابد من اتفاق بين الحكومتين حول ارساء مراكز الحراسة بفكَيك. وتحديد أراضي دوي منية وأولاد اجرير الموجودة تحت النفوذ الفرنسي. وقد كلف بهذه المهمة من جهة المغرب : سي محمد الكَباص الذي كان خليفة لوزير الحرب، عند رجوعه من السفارة بفرنسا بتكليف من سي عبد الكريم بن سليمان الذي كان يرافقه.

17- لقد ظلت وجدة تحت قبضة الروكَي ما بين يونيه وغشت 1903، وعين بها الحاج محمد الوديبي باشا، وكان السكان في هذه المدة يطلبون تدخل الوحدات الفرنسية من مرنية، أفضل من أفواج بوحمارة، لكنه لم يتحمس لهذا الطلب من قبل الركينة وسي محمد الطريس ممثل السلطان بطنجة، فقد كان المخزن يخشى من تدني سمعته وكرامته من جديد.

18- وقد كان من ضمن البعثة الفرنسية سنة 1903. الكولونيل سان جوليان Saint-Julien والقبطان فورنيي Fournier، والملازم شنايدر Schneider والأطباء فورنيالFournial وجافاري Jalfary، وكان هذا الأخير محبوبا عند مولاي عبد العزيز، وعندما التحق سليرة بمركز طنجة، مر بالعرائش حيث مده المهندس Greusat بمدفع 75 آخر طراز والمؤن، وعلمه كيف يستخدم هذا السلاح.

الريسولي : "أحد ملوك الجبال"

فلنرجع شيئا ما إلى الوراء لنعرف ماذا يجري في هذه الأثناء داخل المخزن وخارجه فبينما ظل بوحمارة مستريحا بتازة، بعد رجوع المحلة إلى أوطابوعبان، واحتلال الأفواج الشريفة لوجدة، رجع المخزن إلى فاس مستعدا لمزيد من المشاكل المرتقبة (سنة 1904)، كان أولها وأخطرها، نقص الموارد النقدية، لأن مصاريف القصر استمرت في تصاعدها، بالإضافة إلى مصاريف مواجهة بوحمارة، ناهيك عن تكاليف المؤن والبنادق التي ترسل بالآلاف إلى وجدة. وصيانة وترميم صفوف الأفواج العسكرية.

ولكي يقوي السلطان مداخيل خزينته، فقد قرر فرض ضريبة جديدة تسمى : «الترتيب» وكانت قد قررت قبل (غشت - شتنبر 1901) لكنها لم تستخلص بعد. والضرائب كما تعلم، قد حدد القرآن مقدارها، ولا أدري لماذا يراد أن يغير النظام الذي سار عليه أجدادنا وأقره الرسول (صلعم)، وجاءت هذه الضرائب أخيرا لتعوض : الزكاة والعشور (العشر)[1]. وبأمر من المخزن فرضت رسوم، استوحاها السلطان من الأنجليز، على الجميع، وعلى كل شيء : الأغنام، والحمير، والخيول، والبغال، والجمال، والزياتين، والثمور وكل الأشجار المثمرة وغير المثمرة، والأراضي والأحجار، حيث كانت تدفع عنها مبالغ مقدما. ولم يستثن سوى هواء التنفس، وماء الشرب، ولم يفكر في الدجاج والبيض أيضا ! وقد تساوي في الأداء الغني الذي يملك قطعان الجمال، والفقير الذي لايملك سوى حمار وبعض الخرفان، كما تساوى فيها أيضا الباشوات والشرفاء والأولياء وذوي البركات وغيرهم، لقد خضع لها وأداها الجميع. لكن، وفي واقع الأمر، فإن هؤلاء القواد والشرفاء والأولياء، قد ظلوا على مر الزمن، معفيين من أداء الضرائب، ووجدوا هذا الإجراء والقرار الجديد غير عادل وغير شرعي وملزم. فرفض الأقوياء منهم الخضوع وأمروا قبائلهم بالتمرد ضد ضريبة الترتيب، وحمل السلاح إذا اقتضى الأمر على «القاعدة» العادة. مما جعل العدول والأمناء المكلفين بالإستخلاص يتراجعون عن مطالبتهم بالأداء.

وقد كان هذا الإجراء، ورد الفعل مضهرا آخر من مظاهر ضعف السلطة وعدم التحكم في الأمور، فتوالت الإضطرابات والتمردات من كل القبائل. وكان أول أعداء المخزن في هذه الفترة : القواد الذين عينهم، لأنهم لم يعودوا يتقاضون رواتبهم. وكان من عادتهم

حينما يعطون مستحقات الترتيب إلى المخزن يأخذون « دورواان : (دورو) لكل فرد. فنبض بالتالي مصدر ثروتهم.

ولم يعد يحصل الشيخ التازي، وزير المالية، على أي شيء من القبائل، ولم يعد يرى من حل سوى الإقتراض من الأجانب، فاقترض المخزن هذه السنة أيضا مبالغ هامة من النقود/ الملايين من فرنسا [2]. واستدعي ماك لان - الذي كان قد بقي في طنجة منذ الأيام العصيبة التي مر منها صديقه المنبهي - إلى فاس، وعادت له حيويته كما كان من قبل.

وكان الناس كلهم متدمرون، فالوزراء لازالوا هم نفس الوجوه (سي فضول غرنيط وسي عبد الكريم بن سليمان وسي عبد السلام التازي (وزير المالية يوليوز 1904)، وسي محمد الكَباص، لا يقومون بأي شيء، أو بالأحرى لا يستطيعون القيام بأي شيء، من أجل أن يرجع هذا الشعب إلى قبضة السلطان الذي استمر في الإنغماس في ملذاته، وكان لابد من مولاي حسن جديد في العرش، لكن ابنه لا يشبهه. فلا فائدة من الكلام ! فالمقدر مقدر ولا هروب منه.

واستمر بوحمارة في تهييج وشحذ كل راغب في المغامرة والعصيان والتمرد، خاصة أنهم كانوا يقولون : المخزن ضعيف جدا كطفل صغير، فلابد من مدافع، ثم إن بوحمارة لازال يفرض قانونه وسلطته في تازة، فلم لانفعل مثله؟ فتحركت القبائل في تمرد تحت قيادة بعض الفوضويين الراغبين في تكوين ثرواتهم مستغلين هذه التمردات والإضطرابات. فكانت القصبات تسقط في أيديهم هنا وهناك، والمزارع تجتاح، وكان القواد الذين حدثتك عنهم يرجعون إلى أراضيهم بعد أن فروا من البرانس واتسول، ليجدوها قد اجتاحتها عصابات النهابين واللصوص الذين يتحركون ناهبين بين القصبات، عندما علموا بأن حماة وقواد هذه القصبات قد التحقوا بمحلة السلطان، فكانوا يعبرون كل الشاوية ودكالة والرحامنة وكل الحوز، فأصبحت الأسواق خالية تماما ولم يعد أحد يستطيع أن يؤمن غداء يومه أو غده.

وبعد مرور أشهر من دخول السلطان إلى فاس، كان مضطرا لبعث محلة إلى الشاوية من 3000فارس، من الوداية والشراردة تحت قيادة عمه عبد المالك. الذي أرجع الأمور إلى نصابها في المنطقة، وعسكر قرب الدارالبيضاء بعين مازي.

لكن كان يوجد بناحية الفحص (ضواحي طنجة)، والعنجرة، رجل أكثر ذكاء وقوة من باقي اللصوص والمتمردين، بدأ يثير اهتمام ليس فقط المخزن، بل المسيحيين أيضا ويسمى مولاي أحمد الريسوني أي من ريسانة (بترقيق الراء أو تفخيمها)، وهي قبيلة صغيرة من بداوة بين طنجة والقصر الكبير، فقد كان هذا الريسوني أو الريسولي كما يحلو لك، ولازال حيا ورغم كبر سنه لازال يقلق الإسبان[3] متعلما، شريفا من زاوية تازروت،

إزداد بزينات عند بني عروس، وكان أخواله من بني مساور، فهو رجل جبلي فعلا قوي وعنيف وصارم في مقاومته، إنه فعلا جبلي حقيقي لم يستطع المخزن إخضاعه قط. فقد كان يرغب منذ صغره في المعارضة، وحكم الآخرين، وتجميع كل جبالة حوله. وبما أنه كان فقيرا فإنه كان يحصل على النقود من هجوماته وإغارته على كل من يمر عبر الطريق الواقعة تحت نفوذه، أي القوافل الذاهبة إلى طنجة، أو القطعان المتجهة نحو القصر الكبير. فتنامت قوته بهذه المنطقة مما جعل مولاي الحسن يبعث ضده بعدة محلات. وكان دائما مايرده إلى الصواب، وأعتقد أن باحماد كان منتبها إليه، ومحتاطا منه كثيرا، خاصة أنه يظل دائما طليقا حرا، يتمرد كل مرة رأى فيها أن المحلة لم تعد تهدده. لكن في أحد الأيام رأى السلطان أن قاطع الطريق هذا قد أصبحت قوته مهددة للعرش وخطيرة، فقبض عليه صدفة في سوق طنجة واقتاده إلى سجن جزيرة الصويرة، حيث يسجن معارضو الدولة. وفي الوقت الذي كانت فيه كل أنظار المغرب متجهة نحو بوحمارة، أصبح الريسولي حرا طليقا، بعد أن أدى دون شك الغرامة، وخلع عنه قيود السجن [4]، ورجع نحو الفحص ليستأنف تحركاته ونشاطه من جديد، فكان من أتباعه حوالي مائة رجل من العنجرة مكونين حرسه الخاص : طويلي القامة. أقوياء، أصلاب، حذرين، متيقضين، شديدي وسريعي رد الفعل، يستجيبون بكل طواعية ودون مناقشة لأوامره. يرتدون جلاليب سود داكنة مسلحين بطريقة جيدة. كما كان له عدة جواسيس في كل مكان تقريبا يحملون إليه أخبار العائلات والأسر التي فيها معارضين له، أو من يريد أن يكون من معارضيه. وبمجرد عودته إلى الجبل التف الأهالي بقوة حول هذا القائد العائد من سجن المخزن، والذي يريهم آثار القيود على قدميه. وقد كان يراقب كل شيء من موقعه المرتفع بتازروت. حيث يعلم وقت وقوع الأحداث، أو أن هذه القافلة، أو ذلك الشريف، أو غريبا ما يتنقل نحو فاس في هذه المهمة يوم كذا ومن أجل كذا بكل دقة. فهو متحكم إذن في كل تحركاتهم ويظن أنهم في قبضته. فلم يعد المخزن يخفيه، وليس من السهل قطع جناحيه كما يقال، فهو صلب قوي كالجدار، فقد كان يتحرك على جواده بقوة وسرعة حتى إنه لا يعلم أين يوجد هل هو في تزنيت أم في تازروت مقرا إقامته المفضلين، وكانت لحيته كثة تغطي وجهه، ونظراته حادة تجعلك تنجز ما يطلبه منك وبانحناء. وكان قائد حرسه هو خليفته ابن منصور.

هذا هو الرجل الذي يثير اهتمام المخزن في الغرب، والذي يريد أن يلعب دورا أهم من دور بوحمارة مادام أن الفوضى والضعف هما السائدين بفاس، وكانت هناك محلة شريفة بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني معسكرة على مشارف طنجة، لكنها غير مخيفة وقوية بالشكل الكافي، خاصة قد تأثرت بكثرة فرار الجنود وانتشار النهب والسرقة في صفوفها.

ورغم ذلك فقد هاجمت الأفواج الشريفة زينات، وأحرقتها (16 يونيو1903) وكان قد اعتقل في هذه المواجهة صحفي انجليزي Harris، جاء للإطلاع على الأوضاع بالمنطقة

وحبسه رجال الريسولي عدة ايام بزينات : لأن القبائل كانت حاقدة جدا على نفوذ الأنجليز بالقصر السلطاني. وفي الوقت الذي كان فيه القنصل الأنجليزي السيد أرثر نيكلسون Arthur Nicholson، والشريف مولاي أحمد الوزاني يتفاوضان لإطلاق سراحه، جاء أهالي العنجرة ليختطفوه من الريسولي، ويفروا به إلى أعالي الجبل، واتفق أخيرا على إطلاق سراح أسرى هذه القبائل في سجن المخزن مقابل Harris وحده (4 غشت 1903).

وفي السنة الموالية علم في فاس أن الريسولي قد اعتقل في مقر سكناه، بعيدا عن طنجة. مسؤولا أمريكيا يدعى Perdicaris [5]، وذهب به إلى الجبل، وأنه لن يطلق سراحه إلا مقابل فدية كبيرة، وقبول عدة شروط، من ضمنها استبدال باشا طنجة الذي لا يروقه، وإرجاع المحلة التي تعيق تحركاته، فتسرب الخوف إلى العديد من الأوروبيين الموجودين بكثرة في طنجة، وطلبوا الحماية من قناصلهم، خاصة الأنجليز منهم، اللذين ينظر إليهم نظرة حقد والمتهمين بإفساد الأوضاع وتأثيرهم في اتخاذ القرار بالقصر. وذهب الفرنسيون إلى شرفاء وزان المشهورين بحسن وساطتهم في المنازعات، لكن الريسولي لم يطلق سراح Perdicaris، رغم رسو بارجة أمريكية (6طرادات حربية آخر شهر ماي 1904) بميناء طنجة. فقد كان يريد من المخزن أن يأخذ مقابل ذلك، حكم المنطقة الموجودة بين طنجة والعرائش، فاستجاب المخزن الخائف لجميع شروط هذا الرجل القوي والتحق Perdicaris بطنجة يوم 25 يونيو 1904. وغادرت البارجة الأمريكية ميناء طنجة.

وفي هذه الظروف - ومن أجل تقوية صفوف الشرطة وفوج طنجة، أرسل السلطان النقيب Fournié، والملازم بن اسديرة من أجل تكوين رماة المدفعية، لكن لم يرتح الفرنسيون القلقون من مجريات الأوضاع إلا بعد رسوباخرتين حربيتين بالميناء :(Kleber et Galilée). وقد كان هناك سوق كبير كل يوم خميس وأحد قرب ملتقيات طرق المدينة، حيث يتشاجر الناس فيما بينهم، والبنادق موجودة في كل مكان، وكان الأجانب يحتمون بسفنهم ويدافعون بالمدافع. لكن المتمردين لم يكونوا موجودين بالمدينة، بل في الجبال [6].

وقد أظهر المخزن على نضج أكبر لتهدئة هذا الرجل عندما قرر تعيينه باشا على الفحص، وجعل إقامته بأصيلا [7]. وقد وقع هذا في الوقت الذي قام فيه الإمبراطور الألماني كَيوم الثاني بزيارة إلى طنجة، حيث استقبله مولاي عبد المالك عم السلطان، كما كان ماك لان، من ضمن الحضور [8]، فقبل الريسولي ذلك، وعين أخاه خليفة له (فاتح أبريل 1905).

وفي الوقت الذي كان فيه وزراء السلطان يناورون (يمارسون السياسة) : يقولون نعم اليوم، ولا، غدا للإقتراحات الفرنسية من اجل تنظيم جديد لطوابير الشرطة، قرر السلطان جمع كل القوى الفرنسية من أجل التقرير في الإصلاح الأحسن، مما سيفضي إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء، بإيعاز من الألمان. ويبدو أن الريسولي الموالي للمخزن قد استغل هذه

الظروف وبدأ في استخلاص الضرائب باسم المخزن بشكل مبالغ فيه ويحتفظ بكل شيء لنفسه، ولما نبهه أحد الأشخاص إلى سوء تصرفه هذا، وأنه سيؤدي الثمن غاليا (قطع رأسه)، أجابه بقوله :

ــ لا يموت أحد إلا بأجله. أما ما تقول عنه. فلا تنسى أنه عندما أتفانى في خدمة المخزن فإنني لاأنال أي جزاء. فما علي سوى الإستفادة لنفسي فقط. فقد بدأوا يعرفون في فاس أنني رجل متمرد عاص. إذن يجب أن أبقى كما أنا هو معروف.

هذا في وقت عجز فيه بوحمارة عن الإستيلاء على وجدة، بعد أن غادره حليفاه عبد المالك وبوعمامة. فاتجه نحو سلوان، حيث أمده الريسولي القوي بجنوده وقبائله الوفية قرب تطوان بالمساعدة، ولم لا يكون هو أيضا مطالب ناجح بالحكم؟ ثم إنهم سيكونان معا قوة ضد الوجود الأجنبي المتزايد بالمغرب، والذي يهدف إلى حكم المغرب، بعد أن جروا الأمير الصغير مولاي عبد العزيز إلى القيام بتعديلات سيئة، فاستغل الريسولي هذه الأوضاع وسخرها ضد السلطان بأن ألب الناس ضد الروميين (الأجانب).

ولم تفتأ النتائج أن ظهرت، فقد أعلن، الشيخ ماء العينين في الجنوب، الساكن في الساقية الحمراء، « الحرب المقدسة » ضد الفرنسيين حيث بدأ يجمع الرجال والأسلحة من أجل هذا الغرض واغتال العنجرة أتباع الريسولي فرنسيا على شاطيء طنجة [10]، فظهرت، وكالعالدة فرقاطتان فرنسيتان في ميناء طنجة، مما أجبر المخزن، ومن جديد على أداء غرامة حماية لباشا مدينته، فرجعنا إلى أيام قضية Pérdicaris، وسمع البارود وبمجرد الخروج من وسط طنجة، وفي الوقت الذي كان فيه بلغازي باشا طنجة قد دخل إلى المدينة لأخذ منصبه، كان عليه مواجهة رجال الريسولي، معززا بمحلة كبيرة من 3000 رجل معسكرة بعين الدالية (على بعد 15 كيلومتر من طنجة(.

وعلى العموم، فإن الإضطرابات والتمردات قد عمت في هذه الفترة كل الجهات. وانشرح الشرفاء فرحا بعدما علموا ان مولاي عبد الحفيظ بمراكش، قد أعلن معارضته لأخيه. وحرض إبن مولاي رشيد فيلالة، الذين استقدموا وحدات من تودرة، وانتخبوا قائد للحرب «المقدسة» يسمى : اسعيد البخاري [11]، كما دفع شريف آخر سيدي محمد البعزاوي الموجود بأولاد اسعيد، الشاوية ودكالة إلى التمرد، كما استقبل الشيخ ماء العينين في فاس مع حرسه (الرجال الزرق). (لون لباسهم)، وأغدق عليه السلطان الهدايا والأسلحة والمؤن [12]. وتحرك أيضا الشريف الريسولي ببعثه لعدة من أتباعه لمد العون وساعده جنوده بأصيلا [13]

وقعت هذه الأحداث كلها والسلطان دائما في فاس، في وقت كان عليه أخذ احتياطات وإجراءات وقائية، وتهيء مشروع اتفاق الجزيرة الخضراء المنتظر، ولم يعد يعرف ما الذي

سيفعله. فالوزراء الأوروبيون بطنجة يطالبون باتخاذ أعجل التدابير ضد الريسولي، والمحلة المعسكرة بعين الدالية غير كافية، لأن جنودها فروا منها جماعات بعدما لم يتوصلوا برواتبهم وبعد أن باعوا بنادقهم لأعدائهم.

وصباح ذات يوم وصلت بارجة من فرقاطات كبيرة إلى نواحي طنجة(14) وحتى يتفادى المخزن نزول اعداد الجنود «الروميين» للسهر على النظام بأنفسهم، فقد بعث بمحلة كبيرة إلى طنجة بقيادة سي محمد الكباص وزير الحرب، كما كان هناك أيضا سي بوشتى البغدادي، والقائد ماك لان بفيلقه، وضابط صف أنجليزي، وطبيب فرنسي، بالإضافة إلى المدفعية والنظاميين فوصل العدد إلى 4000 رجل. وترك الكَباص في الطريق وحدات بالقصر الكبير وعين الدالية، ولم تقع اي مواجهات حيث فر أتباع الريسولي إلى زينات.

وبمجرد وصول وزير الحرب إلى طنجة، قرر مصادرة أملاك المتمرد الريسولي، فانتزع السلطان منه قيادة المحلة وأعطاها لباشا طنجة بلغازي، الذي كان قائد للمشور ثم باشا تطوان (1901)، فاستسلم أهالي الفحص، ثم العنجرة وبني مساورة (27-31 دجنبر 1906)، ثم جهزت فرقة كبيرة من المحلة واتجهت نحو زينات عبر طريق طنجة إلى تطوان. فقصفت المدافع الثلاثة منزل المتمرد، فكان هناك عدة قتلى وجرحى من الطرفين، وأصيب بوشتى البغدادي (15) في كتفه، واستدعي طبيب المحلة Dr:Fourniel . فحل الظلام دون نتيجة حاسمة (6 يناير1907). واستغل الشريف هذا الظرف ليفر إلى الجبال بأمتعته وأتباعه المعدودين بالمئات. وفي اليوم الموالي، استدعي الملازم بن اسديرة ليركز مدفعيته بدار الريسولي، أما الأفواج فقد هجمت على زينات، لكن كانت فارغة لم يبق بها أي أحد. وقد كان علينا إتمام العملية ليلا حتى نمنع خروج المتمردين لكن البغدادي المصاب قرر أن نعسكر على بعد كيلومترات من ثمة حتى يتمكن كل أهالي زينات في تحويل أمتعتهم وقطعانهم (6 يناير) فجاء باشا طنجة بلغازي ليقود المحلة المعسكرة دائما بكَورات، في وقت اختفى فيه الريسولي عند أهل واد الراس، ثم بني مساور، وبني عروس وبني إدر، فتعقبته المحلة، وكانت تحرق وتنهب الدواوير التي حمت هذا المتمرد - فجاء الشيخ زلال من بني مساور، والشيخ الحاج العربي من ودراسة، ليعلنا استسلام قبيلتهما. لقد كنا في شهر مارس عندما وصلنا إلى بني عروس، لكن لم نستطع هزمهم. وقد يكون الريسولي موجودا بالقرب من شفشاون أو عند بني احسن.

ومادام أن تموين المحلة بالجبل شيء صعب، والمنطقة غير آمنة بالنسبة للمخزن حيث كنا نخاف أن نتفرق في المضايق، وأهالي الجبال قد اختفوا تماما من طريق هذه الحملة، ينهبون بعض الوحدات المنعزلة. ومادام أنه لم تخضع أي جهة في هذه الجبال، فإنه تقرر الرجوع في اليوم الموالي إلى طنجة معتبرين أن المنطقة آمنة، وتم العدول عن مطاردة

الريسولي الذي ساعده في نجاحه ذكاء أهالي الجبل. وفي طنجة تفككت أفواج المحلة، وعاد بوشتى البغدادي إبن باشا فاس إلى العاصمة.

أما بلغازي فقد عين باشا على مراكش (15 أبريل) حيث سافر بحرا ليلتحق بمنصبه الجديد، عبر أسفي رفقة 300 جندي.

كما وقعت أيضا أحداث خطيرة، حيث اغتيل الدكتور(Mouchamp) (11 مارس 1907)، مدير مستشفى المسلمين. وكان مولاي عبد الحفيظ على علاقة وطيدة مع الباشا الفعلي عبد السلام الورزازي، وهكذا لم يكن بإمكان بلغازي الإلتحاق بمراكش دون حراس اختفى أكثرهم في الطريق من كثرة الإنسحابات والفرار.

لكن قصة الريسولي لم تنته هنا : فلم يكن للقوة والسلاح أي نتيجة ويمكن أن تنجح بالمقابل المفاوضات وقد كان الدبلوماسي غير المنتظر لهذه المهمة، والذي سيدخل الريسولي إلى أحضان المخزن هو القائد ماكلان.

وقد كان الأنجليز يلامون ويعاتبون كثيرا، حتى إن السلطان كان قد حاول إجلاء كل البعثات الأجنبية الموجودة بفاس. وكان ماك لان يحاول أن يسترجع مكانته عند المخزن، خاصة بعد إقالة المنبهي. وفكر في إخضاع الريسولي، وأخذه بهذه الطريقة، فدخل معه في علاقات ودية، حيث استضافه بطنجة وقال له بأن الشريف لايليق به احتراف قطع الطرق، وأن السلطان سيغفر له إن هو ذهب إليه وأن الأمن والأمان سيعمان كل الأرجاء بدل هذه التمردات والإضطرابات، والفوضى، وأن من واجب المسلمين تعميم الأمان والسكينة والنظام من أجل تفادي تدخل الأوروبيين في شؤونهم، إلى غير ذلك من الكلام الذي يقال في مثل هذه المناسبات والذي لا أعرفه. فأجابه هذا المتمرد بأنه مستعد لتلبية رغبة ماك لان لكن بشروط سيضعها ويجب الإلتزام به.

فرجع ماك لان فورا فرحا إلى فاس حيث أطلع مولاي عبد العزيز على الشروط التي حددها الريسولي وهي كالتالي : استرجاع كل ممتلكاته، واسترداد مهامه حاكما على الفحص وعاصمته أصيلا فاعتذر هذا المتمرد عن عدم مجيئه إلى فاس، فعين أخاه ليمثله، لكن هذا الأخير رفض الذهاب إلا بعد أن يعطي الريسولي رهينة أوروبيا من مستوى عال ومن نفس الأهمية.

فقال السلطان لماك لان :

ــ لقد اخطأ الريسولي، عندما لم يأت هو بنفسه للوصول إلى نتيجة، فكان لابد من التحاور معه.

ــ فأنا مستعد لأن أنقل له هذا الكلام إن أمرتم بذلك.

ـــ نعم، لكن ليست لي فيه ثقة كبيرة، فإذا ذهبت إلى هناك، فتحمل كامل مسؤولياتك، ومخاطر ذلك.

قال ماك لان :

ـــ لست خائفا.

ـــ وهكذا أكون قد تخلصت من كل مسؤولية لما قد يلحقك.

فذهب ماك لان عند الريسولي، واستقبل استقبالا حارا، حتى ظن أن مهمته في طريق إنجاز أحسن. وعند نصف الليل، دخل عليه حراس واقتادوه إلى غرفة صغيرة ثم اغلقوا عليه الباب، مفهيمنه أنه أسير الريسولي (3 يوليوز 1907).

وطلب في اليوم الموالي، من الشريف توضيحات بهذا الشأن. فقال له الريسولي :

ـــ لاتقلق فأنت سجيني ظاهريا، دون أن تكون كذلك فعلا، فأنت الآن هنا كما لو كنت في منزلك فيمكنك أن تأكل وتشرب كما تريد. ويمكنك الخروج إلى القنص تحت حراسة رجالي طبعا، ولكنني مضطر لأن أحتفظ بك حتى أنال العفو والرضى، فأنا لاأطلب كبير شيء، فلا بد أن أحصل على فدية لك، وظهير من حكومتك يعترف فيه بي محميا أنجليزيا، وهذه هي الشروط التي تهمك دون أن أتحدث عن تلك التي ستكون لي مع المخزن.

حدث هذا في جبال الخماس، على بعد أيام مشيا من طنجة، لكن في منطقة محصنة يمكن أن تساعد في التفكير على جمع أفواج من الرجال المحاربين.

فقد عانى ماك لان في هذه المغامرة، حيث كان رجال للريسولي مكلفين خاصة بمنعه من الإنتحار وقد كان مبلغ الفدية 20000جنيه استرليني مرتفع جدا. ونقصت شعبية وسمعة ماك لان كثيرا. فقد أصبح شخصا مفقودا لا بالنسبة للأجانب ولا بالنسبة للمغاربة، ولم يكن متيقنا بأنه ستدفع فدية لاطلاق سراحه.

فقال له الريسولي.

ـــ لاتقلق كثيرا، فكل ما أريد بالضبط هو أن أصبح محميا أنجليزيا.

أما فيما يتعلق بمبلغ الفدية فلست متيقنا هل أعطته انجلترا لماك لان، أو هل تنازل عنها له الريسولي وأطلق سراحه؟ فليس هناك قطع في الأمر [16].

وبعدما أطلق سراحه رجع ماك لان إلى الرباط للقاء السلطان، لكن وقعت في هذه الظروف أحداث أكثر أهمية في المغرب : تقدم حركة مولاي عبد الحفيظ، ورسو الفرنسيين بميناء الدار البيضاء. . . فرجع ماك لان إلى طنجة لقضاء مدة تقاعده.

نسيت أن أقول لك أنه عندما ألقي القبض على ماك لان أعطى المخزن الأوامر إلى محلة بوشتى البغدادي للرجوع إلى البادية. فانطلقت هذه المحلة إلى الخماس (2 غشت)، لكنها انهزمت عقب خيانة الوحدات التي جمعتها من قبائل بني مساور وبني عروس وغيرهم. ويمكن أن لم يكن تقديم تلك الوحدات إلى شريف المحلة الأمراني، إلا لأخذ السلاح والمؤن، وضربنا في الظهرفيما بعد. وفي هذه الأثناء كان ماك لان الذي لم يطلق سراحه فيما بعد. قد وضع في مكان يصعب الوصول إليه، ولايمكن العثور عليه فيه أبدا.

فرجعت محلة الأمراني إذن إلى طنجة، وعاد قائدها إلى فاس، تاركا آلاف الرجال في عين الدالية. وحامية صغيرة بزينات الموجود بها المخزن دائما و 500 رجل بأصيلا وبمجرد انطلاقه (الأمراني) تقدم الريسولي حتى حدود بني عروس، ينتظر مستجدات الأمور (بيعة مولاي عبد الحفيظ). وفي هذا المكان قدمت له الفدية وأطلق سراح الرهينة (شتنبر 1907).

وعندما بويع « السلطان الجديد » في المغرب كله، أعطيته صلاحيات كبيرة ومهمة، فأصبح قائدا على كل جبالة التي تضم العنجرة، ودراسة وبني عروس، وبني إدر، وبني مساور، وكلهم أصدقاء الشريف، وأصبح مقر إقامته أصيلا كما طلب من قبل. أما الفحص مسرح انجازاته السابقة فكانت تحت سيادة قائد آخر.

ووجد الشريف فيما بعد، صعوبات كبيرة في استخلاص الضرائب (الزكاة والعشر) التي يطالبه بها المخزن، وكان العنجرة بصفة خاصة، في تمرد دائم ضده، لأنه كان يطلب عنهم ضرائب كثيرة.

واضطر ليقول لمولاي عبد الحفيظ أنه يريد الإستقالة وترك المخزن لأنه لا يمكن أن يستمر هكذا. فأجيب من فاس بإعطائه منصب باشا القصر الكبير. فالتحق بمنصبه الجديد واستمر في إبتزازه لجبالة مما أرغم المخزن على نزع السلطة من يده.

ومنذ هذا الإجراء، مرض الريسولي، وظهر عليه العياء والتعب، وأصبح هادئا، بل إن بني حسن ثاروا ولم يقم بأي إجراء ضدهم، فكان يرى ويسمع كل الأشياء ولا يتحرك، وعندما سمع تقدم الفرنسيين نحو فاس (ماي 1911) بطلب من السلطان، غادر القصر الكبير مع أتباعه ليرجع إلى جبالة، وليعش بعد ذلك مدة، تارة صديقا، وتارة محاربا للإسبان. لكن ماذا كان يفعل بالضبط فلا يمكن أن أقول لك، لأنني لا اعرف اي شيء. [17]

تقدم تحركات مطالب حقيقي بالعرش : مولاي عبد الحفيظ

لقد نقصت شعبية مولاي عبد العزيز كما قلت لك، لأسباب عديدة منها : الضعف في السلطة والتسيير، والإقتراضات من الأجانب، والإصلاحات في ميادين المال والضرائب، الشيء الذي أضر با لمسلمين المتشبثين بالنظام القديم (القاعدة)، إضافة إلى أنه لم يستطع

القضاء على بوحمارة الذي لازال دائما بسلوان بقصره ومخزن كسلطان فعلي : وكانت جهة كبيرة من الشرق موالية له بشكل تناوبي. ثم أن الريسولي الذي دخل معه في صراع، حيث كان يرفض وجود الأوروبيين في المغرب -- يوجد دائما عند جبالة كملك صغير مستغل بدوره. ثم هاهو خليفته وأخوه في الجنوب الذي كان يشجب تصرفاته، قد شرع في الدخول ضده في مواجهة مفتوحة.

أضف إلى كل هذا، تلك التمردات المعتادة يمينا ويسارا، تارة بالشاوية، وتارة بالغرب، وتارة في سوس بل حتى في ضواحي فاس، وبهذا ستتفهم تلك المشاكل والمصاعب التي أصبح مولاي عبد العزيز المسكين يتخبط فيها.

وقد كان مولاي عبد الحفيظ الأكبر سنا من مولاي عبد العزيز قويا، سمينا كما شأن أغلب أبناء مولاي الحسن، يعارض بكل قواه الإصلاحات التي كان يقوم بها أخوه السلطان. وتعلم أن خليفة السلطان على الحوز وسوس بمراكش مسؤولية كبيرة، فهو بمثابة سلطان صغير يبث في قضايا كثيرة دون استشارة القصر بفاس، ثم إن المسافة طويلة بين مراكش وفاس، خاصة أنه يجب المرور من مكناس ثم الرباط، ثم الشاوية. وكل هذا على ظهر الجواد، حيث يدوم السفر خمسة عشر إلى عشرين يوما. وقد كان للخليفة قصر صغير حقيقي أو حاجبه، وكتابه «ومشاورية» يقومون بمهمة قائد المشور، ثم مخازنيته الذين يكونون حرسه الخاص، ثم نساؤه وعبيده واصطبلاته ! لقد كان فعلا سلطانا صغيرا. ووجود رجل طموح في مثل هذا المنصب لا يمكن إلا أن يدفع به إلى التطلع والإرتقاء نحو مرتبة السلطان في فاس. خاصة عندما يحس أنه مؤازر بعدة طموحين مثله، وبعدة معارضين للسلطان، ويصدق هذا الكلام وهذه الأوصاف على مولاي عبد الحفيظ. فقد وجد في شخص سي المدني الكَلاوي، أهم وأغنى قائد في المغرب دعما غير منتظر، وتذكر أن المدني الذي كان محاربا جيدا، كان قد قاد المحلة الشريفة إلى تازة، ثم إلى وجدة أثناء أحداث بوحمارة، ولما طالت مدة إنجاز العمليات بوجدة طلب الرجوع إلى قبيلته التي غاب عنها أكثر من سنة، فا ستجيب لطلبه، لكن الحاج عمر التازي طالبه بغرامة قدرها 70000 دورو، أي حوالي (350000 فرنك)، ورغم الجروح التي أصابته خلال خدمته للمخزن، فإنه لم يكن محط رضاه، فقد كان يرى فيه قريب وزير الحرب السابق سي المهدي المنبهي، الذي يعاني من وطأة المصاعب والمشاكل الحالية.

فأصبح المدني، الغني والمحترم في مراكش، معارضا لمولاي عبد العزيز ولم يبق امامه سوى الإنضمام إلى خليفة الحوز وسوس، الذي يقر ويؤكد ضعف حكم أخيه، ويسمع انتقاد الناس له، فاتفق مع الكَلاوي على المواجهة، وهو إجراء رآه مناسبا لمطالب بالعرش مثله، وقد بدا له أن المعارضة الواضحة لوجود الأوروبيين هو الشعار الأنسب لالتفاف أكبر عدد ممكن من الأتباع حوله، وهكذا قرر دخول الأوروبيين تماما إلى دار المخزن تحت أي

سبب كان. واستقبل ماء العينين المعروف بسياسته المناوئة للفرنسيين استقبالا حارا. ويبدو أن شريف السمارة يحس براحة أكثر مع مولاي الحفيظ من مع مولاي عبد العزيز : لقد كان حليفا مناسبا خاصة انه معزز بموالاة كبيرة من أهل سوس، وكان يتبع أيضا مواقف المدني الكَلاوي التي كلها انتقاد وعدم رضى بالأوضاع، ويبحث عن الطريق الصحيحة لإنقاذ المغرب والحسم في أمر العرش بفاس.

ولم تكن هذه الطريق أو الوسيلة سوى الحملة القوية ضد الأجانب وإعلان الحرب المقدسة الكفيلة وحدها بالتفاف أكبر عدد من الناس حوله.

ويبدو ان مولاي عبد العزيز كان على علم بمؤامرات أخيه، فقد كانت تصله الأخبار بواسطة باشا مراكش بن كبور حيث كان المخبرون يتتبعون تحركاته ذهابا وإيابا إلى دار المخزن المجاورة للقصبة، بل كانت تصله أيضا المحادثات السرية بين المدني والخليفة، وقد حاول دون شك إلقاء القبض على مولاي عبد الحفيظ في محاولة للحد من خطورته. لكن سياسته في هذا الإتجاه كانت متسمة بالتردد، خاصة أن أتباعه الأوفياء أصبحوا قلة، وعدد جنوده يتناقص بشكل ملحوظ، كما كانت له محلة بالسعيدية لمراقبة تحركات بوحمارة : وثانية بعين الدالية لمراقبة الريسولي، وثالثة بالشاوية بقيادة مولاي الأمين، فكان عليه إذن الإحتفاظ بوحدات في فاس ومكناس، بالإضافة إلى أن عدة قبائل أخرى معارضة له لم تعد تؤدي الضرائب المفروضة عليها، وأمدت المخزن بوحدات شكلية إذا أريد تسخيرها ضد مولاي عبد الحفيظ. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يعتمد على قوة قبيلة كَلاوة وبعد مرور بعض الوقت على متوكَة والرحامنة الأقوياء دائما في الحروب، فإن مولاي عبد العزيز كان شبه متخلى عنه. وكان أكبر الأخطار هو الذي يأتي من الجنوب، مما أرغمه على مغادرة فاس بسرعة، والمناداة على الأفواج التي حكيت لك عنها للإلتحاق بالحوز أو أمام مراكش بشكل مكثف وقوي في وقت كان من الممكن حل المشكل بالمفاوضات، وقال رجل : « لو كان مولاي الحسن حيا لصفى جميع المشاكل وحده، وقضى على بوحمارة والريسولي وجاء بهما أسيران إلى فاس »، وكان مولاي عبد العزيز قد استمع لنصح مجموعة من الشيوخ الورعين سي فضول غرنيط والكَباص، بالقيام بمحاولات لإجهاض هذا المد.

فبعث على التوإلي أعمامه، مولاي عرفة في الحوز (1905)، ثم مولاي عمر بمسفيوة، من أجل الوصول إلى مراكش والقاء القبض على الخليفة، لكن كان عليهم مواجهة قوات الكَلاوي الكبرى المتمركزة بالمدينة، فخافوا من هزيمة نكراء إن هم عمدوا إلى الهجوم.

وحاول مولاي عبد العزيز استمالة القائد سي الطيب الكَندافي والمتوكي، لكن هذا الأخير استغل غياب الكندافي في فاس قرب السلطان، لينهب قصبة أكَركَور غير بعيد عن أمزميز، ولما رجع الكَندافي إلى قبيلة في ظروف صعبة اضطر ليبقى محاصرا بعض الأيام.

وانضم الرحامنة بقيادة القائد العيادي في السنة الموالية إلى مولاي عبد الحفيظ واتضح موقفهم المعارض للمخزن بشكل أكثر جلاء.

وقد حاول مولاي عبد العزيز مرة أخرى، بعد أن صالح المتوكَي والكَندافي، أن يستغل قواده الأوفياء بالمنطقة لتحقيق هدفه، وأعني بالقواد هنا : سي عيسى بن عمر العبدي، وسي السعيد بن الضاوية الدكالي، والحاج عبد السلام الوزرازي باشا مراكش المدينة، بالإضافة إلى عدة أفراد آخرين في سرية تامة. وكان مولاي عبد الحفيظ قد متن صفوف حرسه بعدما أخبره هذا أو ذاك فأجهض الهجوم المرتقب (1906).

وهكذا فكر السلطان في مواجهة أكبر دعامة للخليفة : سي المدني، وسجنه لأنه غني جدا، وليبحث على الإستقلال بنفسه، وهذا صحيح لأنه منذ أحداث وجدة قطع كل علاقاته مع المخزن، فقد كان قويا، وكانت تشكل أموال الكَلاوي دعامة أساس لبيت المال، لكن الكَلاوي أخبر حالا، ولما وصلت الأفواج المخزنية، كان قد احتمى بقصبته بتلوات حيث يصعب الهجوم عليه فيها، فلم تعمل هذه الأفواج سوى أن أغارت ونهبت بعض دواوير الجبل، ولم يكن من نتائج هذا الإجراء سوى تعجيل تحرك سي المدني الكَلاوي ومولاي عبد الحفيظ، فالمخزن ضعيف جدا، والقضاء عليه أمر سهل وبفضل تأثيرهما تنامت ظاهرة معاداة الأوروبيين المقيمين بمراكش بشكل كبير.

وقرر السلطان تغيير باشا مراكش عبد السلام الورزازي، الشيخ المريض الذي لا يحسن تسيير احوال الشرطة بمراكش، لكن في الواقع، وبدون شك أن سبب هذا التغيير هو موالاته لمولاي عبد الحفيظ، وعين بدله بلغازي باشا طنجة، وفي هذه المدة اغتيل الدكتور موشامب Dr.Mauchamp بمراكش وصرح القنصل الألماني أن هذا الطبيب كان يريد أن ينصب جهاز إرسال برقيات والإتصال بحكومته (19 مارس 1907).

وتعلم أن الفرنسيين قدموا على هذا الإجراء باحتلال وجدة حيث تخلوا دون إطلاق رصاصة واحدة (29مارس)، وقالوا بأنهم سيبقون إلى أن يحل هذا المشكل ويعاقب المتهمون.

ووصل بلغازي المعين (يوم 15 ابريل) عبر آسفي مع 250 عسكري، على متن الباخرة «السعيدي» وكان يستعد ليلتحق بمنصبه الجديد، لكن وحدته العسكرية عددها يتقلص شيئا فشيئا : حيث كان الجنود يفرون لأنه قيل لهم أن في طريقهم محلة مبعوثة من قبل مولاي عبد الحفيظ تنتظرهم بالبنادق، ثم إن كل قبائل المنطقة معارضة للمخزن، وتريد مبايعة مولاي عبد الحفيظ، فرجع بلغازي إلى طنجة (11 يناير).

وكان من ضمن هذه القبائل الأكثر تحمسا ومعارضة الرحامنة، والمتوفرين على الخيول والأسلحة، فقد اغتنوا كثيرا لأنهم لم يؤدوا الضرائب المفروضة عليهم منذ مغادرة السلطان

مراكش (1901)، ويتضح لك الآن كم كانت سياسة مولاي الحسن حكيمة جدا، حيث لم يرتح قط فقد كان يجوب أطراف المملكة، ويستخلص الضرائب حتى يمنع القبائل من أن ترفع رأسها. فهؤلاء الرجال لهم كل المقومات ليهجموا على مخزن مولاي عبد العزيز الذي يطالبهم بأداء مستحقا تهم المتبقية من الضرائب. وهم الذين عارضوا وجود بلغازي بمراكش وهم من كان يراقب طريق آسفي، وهم الذين أجلوا الأوروبيين المتبقين عن مراكش وفتحوا سجون المدينة التي كان بها معتقلون كثيرون منهم، وأرسلوا مبعوثين إلى دكالة والشاوية ليمدوا لهم يد العون، ومعلوم أنه كانت لهم محاولة سابقة مع مولاي امحمد أجهضها باحماد المتوفي، والذي لم يعوضه أحد في نفس قوته في المخزن. وقد كانوا يعلمون أن الأفواج النظامية، ورغم وجود مدربين أجانب، لم تعد لها نفس القيمة والفاعلية في عهد مولاي الحسن، وأن المخزن لا يتوفر سوى على وحدات قليلة من النوايب، والدليل على ذلك مقاومة بوحمارة والريسولي لها.

وكان يقال، بأن محلة السلطان ستخرج للذهاب إلى الرباط، ومن ثمة إلى مراكش، وكانوا المسؤولون يعملون قصارى جهدهم لتمدهم القبائل الخاضعة بوحدات جديدة التي يطلبها منهم مولاي عبد العزيز. لكن كان يسمع في صفوف تلك الوحدات :

ـــ أتريدون الإنضمام إلى أولاد كرونيل (الأجانب)، ماذا ستفعلون أيها الحمقى؟ هل أنتم مستعدون للعيش سنة كاملة تحت الخيام، والصبر على قصف بوحمارة والريسولي؟ ما سيكون مصير ممتلكاتكم وأنتم غائبون عنها؟ أتذكرون رجوعكم من وجدة ! أو لستم مسلمين مومنين حقا؟ واعلموا أن «الحرب المقدسة» سوف تندلع، وأن كل المسلمين يجب أن يضعوا اليد في اليد، فابقوا إذن معنا «فالروميون» سوف يختفون في كل الجهات، وسنرمي بهم في البحر، وسيكون قائد المقاومة سيدنا : مولاي عبد الحفيظ بن مولاي الحسن، مناصر الإسلام الثابت.

فلم يبعث قواد الحوز والجنوب أي وحدة إلى محلة فاس.

وهذه الفترة هي التي كان فيها ماك لان أسيرا للريسولي (3 يوليوز1907)، والتي اتفق فيها مولاي عبد العزيز مع القوات الأوروبية على تكوين أفواج الشرطة (17 يوليوز) والتي اغتيل فيها مسيحيون كانوا يشتغلون بميناء الدارالبيضاء من قبل مديونة وزناتة دون أن يستطيع لا مولاي الأمين باشا الدار البيضاء ولاسي بوبكر السلاوي أن يتدخلا (30 يوليوز). وتعلم أيضا أنه كان من نتائج هذا الحدث ظهور فرقاطتان بالمرسى. (Le Galillé et le Duchayla)، وقصف المدينة (5 غشت 1907) ثم نزول أفواج الجنود الذين كانوا على متنيهما (7غشت)، ولكن كل هذه الأحداث مذكورة في كتبك ولا فائدة من أن أحكيها لك بدوري.

والسلطان مولاي عبد العزيز لازال دائما بفاس. حيث أخرج الفراكَ (في ماي)، لكن لم يستطيع الذهاب، فالخزينة كانت فارغة، وطلب قروضا من البنوك ليدافع عن نفسه، لكن البنوك ترددت في إعطائه مبالغ كبيرة (فقد اقترض 62 مليون سنة 1904).

وكان يبدو أن الظروف كانت مساعدة لحركة مولاي عبد الحفيظ حيث زادت هذه الأحداث من هيجان وتمرد أهل الجنوب خاصة بعدما علموا (حوالي 12 غشت) أن الدار البيضاء قد سقطت في يد فرنسا، فقرروا مبايعة مولاي عبد الحفيظ يوم الجمعة المقبل (16غشت) بمسجد القصبة.

وهكذا اجتمع كل أعيان وأشراف وعلماء المدينة بالمسجد، بحضور مولاي عبد الحفيظ وأتباعه، والقائد المدني الكَلاوي وأقاربه. ومختلف موظفي المخزن وبعد كلمة وعظية (الحديث) أخذ الكلمة مولاي بوبكر أخ السلطان وقال :

ـــ نعلم جميعا أن مولاي عبد العزيز قد باع بلدنا للمسيحيين لاشباع رغباته، والأدلة على هذا واضحة حتى بالنسبة لمن لايود رؤية ما يحدث. فهم قد استولوا ومنذ شهور، على وجدة باب الشرق، ولا يبدوا أنهم مستعدون لتركها، بل إنهم يجبرون إخواننا على الخضوع لقوانين وعادات بلادهم، وتعلمون الآن أنهم قد نزلوا إلى ميناء الدار البيضاء، بأعداد كبيرة مسلحين بالرشاشات والمدافع، وأنهم أغرقوا هذه المدينة «المسكينة» باب الغرب في الهموم والفوضى والإضطرابات، هاهي يدهم تمتد نحو إخواننا الشاوية «المساكين».

(وكان مولاي عبد الحفيظ في هذه الأثناء يبكي لأن أمه من هذه القبيلة، وبكى معه الحاضرون). . . وأمام هذه المصائب التي تتوالى علينا لاأحد يستطيع أن يبقى دون حراك، ولا أن يخفي آلامه، فيجد إعانة إخواننا المنهكين في قبائل الشاوية التي تواجه المستعمر الغازي، وإذا كان سلطاننا عاجزا على تجهيز كل الجنود ومواجهة العدو، وأعتقد أنه كذلك فإنه يحق للعلماء والشرفاء اختيار قائد قوي يلتف حوله المومنون الأتقياء. وقد حان الوقت لإعلان الحرب المقدسة، فهل سننتظر دون إطلاق النار حتى يصل العدو إلى مشارف الأسوار (أ سوار مدينة مراكش)؟

فقال الآخرون :

يجب أن نتحرك فورا ونعين قائدا للمقاومة.

فقال سيدي محمد ولد مولاي رشيد :[18]

ـــ إن الرجل الذي يستحق أن يكون سلطانا هو العالم والعارف الخليفة الإبن الصغير للسلطان (حتى لا يلتبس مع مولاي امحمد الأكبر منه سنا) الشهم والشجاع صاحب

الأيادي البيضاء على الناس ومحط الرضى سيدنا ومولانا عبد الحفيظ إبن سيدنا الحسن بن سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام نصره الله.

فنهض سي المدني الكَلاوي وانحنى أمام مولاي عبد الحفيظ وقال :

ــ الله يبارك في عمر سيدنا، مولاي عبد الحفيظ !

فرد كل الحاضرين هذه العبارة بحرارة، ثم أتوا لتوقيع عقد البيعة.

وأصبح للمغرب سلطان ثان وفي اليوم ذاته فتح مولاي عبد الحفيظ مخازن الأسلحة والمؤن، وصناديق الخزينة، في وقت كانت المدافع تصدر طلقاتها (إعلانا للبهجة والفرح)، والبراحة يجرون في شوارع المدينة مرددين :

ــ الله ينصر مولاي عبد الحفيظ !

وفي اليوم الموالي بدأت تتوافد « الهدايا» إلى دار المخزن. وكان في مقدمة أهالي مراكش : عبد المجيد بن عبد السلام الورزازي ابن الباشا، وكنا نرى ضمن الهدايا المعتادة بعض الإماء والخيول المسرجة بأحسن طريقة. وجاء اليهود في مقدمتهم اسحاق كركس Isac Carcos، مرتدين ثيابهم المزينة بالحرير. وكان مولاي عبد الحفيظ يستقبل التحايا والهدايا معتليا عرش أخيه في «القبة» التي كانت مكتب السلطان، والمدني الكَلاوي على يمينه والكَندافي على يساره.

فأعطيت الأوامر بالهجوم ونهب دار بلعربي قائد « فرايكَية» (أصحاب الفراكَ) مولاي عبد العزيز، حيث وجدنا ضمن أشياء أخرى كيسا مليئا «باللويز» (الذهب) بين قفاطين.

وزار مولاي عبد الحفيظ بعد ذلك ضريح سيدي بلعباس السبتي، وضريح مولاي عبد الله بن احساين الحسني شريف تامصلوحت، ثم قرر بعد ذلك تعيين مولاي بوبكر خليفة على الحوز وسوس. وعبد المجيد والورزازي باشا على مراكش، وأمر أخيرا بإخراج الفراكَ استعدادا للإنطلاق القادم مع محلته إلى الشاوية، فأرسلت الرسائل المعتادة إلى كل القبائل مختومة بخاتم مولاي عبد الحفيظ بن مولاي الحسن.

فبايعه الرحامنة والسراغنة وقبائل الحوز على التوالي، باستثناء القائدين انفلوس والكَلولي، والشاوية ودكالة وعبدة.

لكن ماذا يحدث في فاس؟ فقد وصل إليها خبر مبايعة مولاي عبد الحفيظ دون أن يثير ذلك استغرابا لكن مصحوبا ببعض عدم المبالات والإكثرات والإستهزاء، ليس من الذي بويع سلطانا، وله جميع المواصفات لذلك، ولكن من هؤلاء الذين بايعوه، لأنك تعلم أنه لايوجد العلماء إلا بفاس وهم من لهم الصلاحية والشرعية في إقراربيعة السلطان.

ورجع بوشتى البغدادي من طنجة، بطلب من مولاي عبد العزيز لقيادة محلته، وينتظر دائما الأيام والظروف المناسبة للإنطلاق، وأصبح السلطان أكثر غضبا وحنقا من تتبع تحركات أخيه ومحاولاته لإزاحته عن العرش. فكثف مجهوداته في الإستعدادات، علما بأن قبائل الجنوب لم تبعث له بأي رجل.

ولما لاحظ أن الفاسيين قد استقبلوا هذه المبايعة ببرودة، جمع العلماء بمسجد القرويين، وطلب منهم الإجابة عن هذين السؤالين :

ـــ هل حان وقت الحرب المقدسة؟

ـــ هل يحق لخليفة الحوز مولاي عبد الحفيظ أن يأخذ العرش؟

وبعدما فكر العلماء جيدا، أجابوا بما يلي :

ـــ لا، لم يحن الوقت لإعلان الحرب المقدسة مادام أن الأجانب لا يحتلون وجدة والدار البيضاء إلا لمدة حل مشكل اغتيال أتباعهم، ثم إن مولاي عبد الحفيظ ليس له الحق في ادعائه، لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلطان إلا إذا كان ذا أشرعية تامة، فسلطاننا إذن هو مولاي عبد العزيز.

وعقب هذه الإجابات المناسبة غادر مولاي عبد العزيز فاس بمحلة من حوالي 3000 رجل. (12 شتنبر 1907) ووصل إلى الرباط (23 شتنبر)، وكانت الحراسة الخلفية تقصف كالعادة القبائل الموجودة في الطريق : بني مطير، وكَروان، وبني احسن.

وهذا في وقت كان فيه الفرنسيون بتادرت (11 شتنبر)، واستسلم زناتة والزيايدة وأولاد زيان وفي الوقت الذي وصلت فيه محلة مولاي عبد العزيز الرباط عابرة أراضي قبائل متمردة، كان مولاي عبد الحفيظ قد تحرك بإرساله محلة من 3500 رجل وأربع مدافع، مكونة في أغلبها من الرحامنة والسراغنة، بقيادة سيدي محمد ولد مولاي رشيد إلى الشاوية، لاستمالة القبائل إليه وإعاقة تحركات الفرنسيين في المنطقة (غادرت هذه المحلة مراكش يوم 16 شتنبر)، فمرت عبر سطات لتعسكر بين قصبة مديونة وبرشيد، وجلبت حولها كلا من المذاكرة وأولاد زيان وأولاد سعيد، وأولاد سيدي بن داود، وأولاد بوزيري، والمزامزة.

كما ذهبت محلة « حفيظية « أخرى» إلى بلاد حاحة حيث يوجد القائد انفلوس، فبعث المخزن ضدها جنودا نظاميين 300 من طنجة، و400 من الرباط (23 اكتوبر).

وفي نفس الوقت (15 أكتوبر) كانت محلة مولاي عبد العزيز قد غادرت الرباط في اتجاه مراكش بقيادة بوشتى البغدادي مع الشريف مولاي الزين أخ السلطان، ومادمت

أحدثك عن إخوته فإنني أشير إلى أنه قد صحب معه أخاه مولاي امحمد لمزيد من الإحتياط، وترك بفاس أخاه مولاي الكبير، وكنا نرى أيضا ضمن هذه المحلة مولاي عبد المالك عم مولاي الحسن، وسيدي عبد المالك بن عبد القادر الذي سنجده في مرحلة لاحقة بالريف. ووصل عدد أفراد هذه المحلة 4000 رجل وسرية مدفعية (3 مدافع)، وبعض الرشاشات Maxim، وضابطان جزائريان مدربان (سديرة والماحي)، وعززت المحلة في الطريق بوحدات القائد قاسم، والقائد ولد بامحمد الشركي قائد شراكَة الحالي (1925)، الذي كان معاديا كبيرا البوشتى البغدادي، وسيتأكد ذلك عند فراره منذ أول مواجهة.

فعبرنا قصبة تمارة، وسيدي يحيى، وواد الشراط وسيدي بن سليمان عند الزيايدة التي يسميها الفرنسيون حاليا Boulhaut. وفي هذا المكان نشبت معركة مع المذاكرة الذين لم يكونوا وحدهم، بل كانوا مؤازرين « بجنود» من محلة مولاي عبد الحفيظ بقيادة شخص يدعى : القائد رحو الذي كان له مدفع ويتبعه كثير من الشاوية. فقاوم بوشتى بشجاعة وكاد أن يهزم، فطلب من وحداته الرجوع إلى المعسكر حيث طاردنا العدو وأجبرنا على المواجهة حتى حدود الليل. فلم نعد نتحكم في الوضعية، حيث كانت تتوالى القذائف على المعسكر، لدرجة أنه غادرها كثير من الجنود في اتجاه بوزنيقة مطاردين دائما من قبل المذاكرة لكن بخطر أقل من المعسكر، وبمجيء الصبح توقفت المطاردة، وعسكرنا بقصبة الصخيرات (25 نونبر)، ووصلنا في اليوم الموالي إلى تمارة عند الوداية حيث مكثنا خمسة عشر يوما.

ويجب القول إنه قد ضاعت في هذه المواجهة عدة أمتعة وخيام، وأسلحة وأكياس المؤونة، وتركت عدة بغال وخيول رغم تعليمات وتسيير بلغازي الصارم لبوشتى البغدادي الذي كان يعاقب المخطئين كثيرا. فكان مختلف قواد الرحى للأفواج النظامية يكرهونه ليس لهذا السبب ولكنه لأنهم كانوا حفيظيين وأنهم يرغبون في خدمة هذا السلطان الجديد المبايع في مراكش المعادي للمسيحيين، بدل تنفيذ أوامر بوشتى الذي يتلقى التعليمات من الجنرال Drude، والمتواطئ مع الفرنسيين وكان هؤلاء القواد يبيعون في الطريق، رصاصهم بالآلف للشاوية، ويتركون طوابيرهم تتحرك كقطع خشب فوق الماء، فأنهك بوشتى، وخانه ولد بامحمد الشركي الذي غادره وتراجع مع فرسانه عند أول المواجهة بسيدي بن سليمان، لقد كان بوشتى محاربا جيدا، ولا يمكن أن نلومه على انهزامه أمام أتباع مولاي عبدالحفيظ، المتحفزين حماسا وفرحا بما يفعلون، وكان من نتائج هذه العملية انضمام حلف حمو الزياني وانفلوس إلى مولاي عبد الحفيظ.

وبعدما استراحت محلة بوشتى ورممت صفوفها، رجعت إلى الرباط، حيث يوجد السلطان معسكرا دائما بأكَدال، قريبا من دار المخزن، حيث بقي دون حراك إلى حدود ماي 1908.

وكانت فاس في هذه الأثناء هادئة.

فالروكي بوحمارة موجود دائما عند كبدانة بقصبة سلوان، حيث دخل في علاقات مع الإسبان من أجل ترميم صفوفه بالأسلحة والمؤن، مع العلم أنه لم يعد معه أفراد كثيرون ويحاول إعادة الإعتبار إليه، والإستمرار في لعب دور سلطان وهمي أمام أتباعه.

وقد كان مراقبا في هذه الجهة بمحلة وجده المعسكرة بالسعيدية، لكن هذه الأخيرة لم تعد تتوصل، ومنذ مدة، بأجورها، ولم يعد يعيش أفرادها إلا من نهب جيرانهم يمينا ويسارا بل حتى القبائل الخاضعة للمخزن، ولم يعد يسودها أي نظام، ولم تصبح سوى جماعة من الرجال لاقيمة لها، ودون انسجام فيما بينها، أي جماعة من اللصوص باعوا أسلحتهم من أجل الطعام بل إن قائدها عبد الرحمان من عبد الصادق قد سرق بدوره حيث أخذ قائد الرحى الجيلالي السرغيني خيمته وخيوله وأمتعته شارحا لهم بأنه من الأفضل له حماية نفسه.

ورغم هذه الظروف بقت معسكرة أمام سلوان محاصرة بوحمارة، حيث سنجدهم بها في مرحلة لاحقة.

وماذا عن أخبار مولاي عبد الحفيظ؟

فبعد مبايعته، ولكونه دبلوماسيا قويا. ولكي يتقرب من الأقوياء، تزوج إحدى بنات سي المدني الكَلاوي لالة ربيعة، وبنت موحى أحمو الزياني لالة رابحة، وكانت هذه الأخيرة قد أهديت لمولاي الحسن أثناء محلته الأخيرة، فبقيت بحريم مراكش، وتوفي السلطان بدار ولد زيدوح، وقد كان مولاي عبد الحفيظ يبحث على تمتين علاقته بالمحارب القوي في زيان، وعلى المرورمن أراضيه من أجل الوصول إلى هدفه الكبير : فاس، فتزوج بنته، وانظم إليه موحى أحموا بسهولة بعد مواجهة سيدي بن سليمان التي حكيت لك عنها.

وقد حان وقت الإنطلاق من مراكش أفراد قصره، ومخزنه الذين كنا نلاحظ منهم. الوزير الأول سي المدني الكَلاوي، وسي عيسى بن عمر وزير الشؤون الخارجية، والشريف سي محمد البعزاوي الذي يحترمه الشاوية كثيرا، ونساؤه وخيامه ووحداته من الرحامنة وكَلاوة وقبائل الحوز، وبعض المدافع والرشاشات فغادر مولاي عبد الحفيظ هذه المدينة في الأيام الأولى من دجنبر عبر زاوية بن ساسي وتملالت الجديد.

لكن هنا بدأت المشاكل مع السراغنة أتباع مولاي عبد العزيز الذين حملوا السلاح بتشجيع من ولي يسمى سي محمد بن داود. وبعد مناوشات بسيطة ومفاوضات كثيرة، استسلموا وأمكن للمحلة أن تعسكر بالقلعة عاصمتهم (92 دجنبر 1907).

وبعد إقامة طويلة بالسراغنة عبر مولاي عبد الحفيظ هذه الأراضي مع أصدقائه الرحامنة ليصل إلى مشرع الشعير وهو معبر على واد أم الربيع فوق واد كَيسر بعض الشيء (26 يناير 1908). وفي هذا المكان وصله نبأ مبايعة أهل فاس له (4يناير).

ذلك أن أعيان المدينة، القلقون من الشلل الذي اصاب حركة مولاي عبد العزيز، وتقدم الأفواج الفرنسية في الشاوية، وانهزام محلة ولد مولاي رشيد بقصبة مديونة (1-1-1908)، والشرفاء والعلماء وكل من يعتاد وجودهم في مثل هذه المناسبات، قد اجتمعوا بمسجد مولاي ادريس، حيث تناقشوا في طبيعة الوضع سلبا وإيجابا، وانتقدوا تسيير السلطان للشؤون وكثرة الديون (فقد طلب السلطان منذ مدة قريبة مليونين ونصف من فرنسا) وقرروا في النهاية : مبايعة مولاي عبد الحفيظ لكن شريطة أن يأخذ هذا السلطان الجديد مجموعة من التدابير لإنقاد الأوضاع الحالية للمغرب، وأول تلك التدابير، مواصلة الحرب المقدسة دون هوادة وثانيها إزالة الحواجز لدخول المدن والأسواق. وثالثها لا يسمح بوجود الأوروبيين إلا في الميناءات، والسكن في « الملاحات» (لكن عندما وصل مولاي عبد الحفيظ إلى فاس، لم يستطع أو لم يرد تطبيق شروط وطلبات الأعيان، بل فرض مبالغ جديدة مضاعفة لملأ خزينة الدولة)، وبعدما عينوا سي عبد السلام الأمراني ممثل السلطان في فاس، بعثوا بوفد لإخبار السلطان بهذا المستجد، (الوفد الذي جاء إلى مشرع الشعير)

فسر مولاي عبد الحفيظ برؤية أفراد الوفد، وبعث رسلا إلى مراكش لإعلان بداية الحرب المقدسة بها، وطلب من الأمراني القيام بالشيء نفسه في فاس، وبعث إليه بأفواج كثيرة وقوية من الرجال والتحق بالسلطان فيما بعد عدة الاف من الرجال، لكن سلاحهم عتيق، وينقصهم الرصاص والبارود وكانت خزائن القصبة شبه فارغة. وبصفة عامة، بدأت القبائل تستجيب شيئا فشيئا لهذا النداء، ولم نكن نشاهد في هذه الوحدات الموجودة بمشرع الشعير، لاعبدة ولا الشياظمة ولاحاحة ولادكالة، ولا سوس درعة.

ثم التحق بالسلطان في مشرع الشعير. الملازم المخلص سيدي محمد بن مولاي رشيد مريضا تاركا وراءه أفواج الشاوية تحت قيادة عمرو السكتاني، وحكى له ما يقع في الشمال فقد أصبح على رأس الفرنسيين قائد جديد الجينرال داماد D'Amade (الذي وصل يوم 5 يناير) لا يسير على نهج سابقه، حيث كان يترك حراسة قوية في المناطق التي يحتلها، فكانت توجد مجموعات في كل مكان في بوزنيقة وفضالة ومديونة وسطات وبرشيد. فأرسلت وحدات تقوية مع الشريف مولاي المامون.

وظل مولاي عبد الحفيظ دائما بمشرع الشعير، ينتظر ويسمع قلقا من سير الأمور، وفي هذه الفينة هزم الفرنسيون عمر والسكتاني في بلاد المداكرة، ورجع البعزاوي الذي

بعث لهجوم جديد إلى معسكر مشرع الشعير منهزما (7 أبريل)، وكنا نسمع بين الفترة والأخرى أصوات المدافع، ما العمل؟ ما الذي قمنا به منذ ثلاثة أشهر؟ فاستدعى مولاي عبد الحفيظ مجلسا للتشاور في سير الأوضاع : فبعضهم يريد الرجوع إلى مراكش، والبعض الآخر يريد البقاء هنا للتقوي أكثر وحماية معبر الواد. والإنتصار على العدو قبل أن يصل إلى فاس. فبرابرة موحى أحمو الزياني سوف يلتحقون بالسلطان الجديد الذي سيدخل إلى فاس دخول المنتصرين حاضيا برضى الجميع. لكن هل سيصل العدو إلى حدود الواد؟ تحدث آخرون، ومن ضمنهم البعزاوي، للسلطان عن المخاطر التي تحيط به وعن وضعيته غير المناسبة. فمن الأفضل الذهاب نحو فاس حيث يستطيع مولاي عبد الحفيظ بالنقود ومساعدة أعيان فاس معاقبة هؤلاء المتمردين حين يحين الوقت لذلك.

فأخذ مولاي عبد الحفيظ بهذه الإعتبارات والحيثيات، خاصة أن وحدات التقوية التي أرسلها في هذه الفترة قد نقص اعداد أفراد جنودها، فلم يعد بجانبه سوى بعض الآلف من الرجال وعشرات الرشاشات وأربعة مدافع، لكن أصدقاء ظلوا دائما ملازمين له وأعني بهم : المدني الكَلاوي، وسي عيسى، والبعزاوي وأتباعه الأوفياء من زيان أصحاب موحى أحمواالزياني المكونين لحرسه الخاص، وقرر الذهاب إلى فاس شرقا، وهكذا انطلقنا نحو بلاد بني مسكين (21، 23 أبريل) ثم مررنا بملكَو، وصخرة الدجاجة، وعين مازا ببلاد بني خيران، ثم بسيدي محمد ولد البصير، وسيدي عتروس ببلاد السماعلة ثم إلى واد كَرو ومشرع عشرين زوج حيث ارتحنا بعض الشيء. فوصل مولاي عبد الحفيظ إلى ضواحي مكناس عبر مولاي بوعزة وولماس وواد بهت ودخل المدينة دخولا احتفاليا (15 ماي)، وشعبيا كبيرين، وجاءت أفواج الكَيش للأنحناء أمامه ومبايعته.

وبينما كان مولاي عبد الحفيظ يتقدم نحو مكناس، كان قد أعطى أوامره لقبائل الشاوية بالتوقف عن الحرب، وإمداده بالأفواج والوحداث التي كانت موجودة بناحيتهم، ففهمت القبائل المنهكة أنه قد انهزمت فاستسلمت الواحدة تلو أخرى للجنرال داماد D'Amade وقد كانت هذه الجهة كلها ترغب في السلام والتوقف عن الحرب.

وقد حاول السلطان الثاني – مولاي عبد العزيز الموجود دائما بالرباط، أن يواجه تقدم تحرك أخيه نحو فاس.

وفي ماي 1908 اجتمعت حملة عسكرية بقيادة بوشتى البغدادي في سلا بالحدائق المجاورة للمدينة، استعدادا للإنطلاق نحو فاس لمنع دخول مولاي عبد الحفيظ إلى هذه العاصمة. فوصلت هذه الحملة إلى القنيطرة. [19] ثم سيدي عايش ومشرع الرملة حيث توقفت، وكان قائد هذه الحملة هو مولاي الزين، والعارف بطرق ومسالك هذه الجهة هو القائد بلعروسي من بني احسن. وكانت وحدات النظاميين تحت قيادة قائد الرحى بن

دحان العبدي، وبعضالشراردة وبني حسن، وفي مشرع الرملة، شاع في كل البلاد أن مولاي عبد الحفيظ الذي وصل إلى مكناس عبر بلاد زيان وقد استقبله أهل فاس استقبالا حارا ورائعا، فاتضح لبعض هؤلاء الرجال - الذين كان كثير منهم من أتباع مولاي عبد الحفيظ - أن هذه الحملة لم يعد يرجى من ورائها أي طائل، واعتبروا أن مهمتهم قد انتهت وتوصل بوشتى البغدادي برسالة من السلطان يدعوه فيها بأن ينظم مع آتباعه إلى صفوفه وأنه سيوليهم بعناية جيدة، وأضاف بأن أتباعه من الشراردة وبني حسن معسكرون بوادي بهت سيمنعونهم من المرور. فرفض بوشتى الخيانة وطلب من أفواجه الرجوع إلى الرباط. وهكذا رجعت هذه المحلة إلى أكَدال دون إطلاق رصاصة واحدة.

ودخل مولاي عبد الحفيظ إلى فاس وسط 1500 جندي (في 6 يونيه 1908)، فتوالت اعترافات ومبايعة المدن والقبائل من كل الجهات (القصر، تطوان) خاصة بعد مبايعة مدينة فاس ذات الإشعاع الجهوي والوطني المهم.

أما هو، فقد بحث في كل أرجاء دار المخزن عن الخزائن التي يمكن أن يكون مولاي عبد العزيز قد تركها، لكنه لم يجد شيئا. فاستدعى الأعيان بما فيهم من ليسوا معه وقال لهم:

« إني فرح ومسرور بمبايعتكم واستقبالكم الحار لي (يناير)، وإني مستعد لأن أتدارس معكم كل الإصلاحات الفعالة والجادة، من أجل خلق وضعية أحسن من تلك التي تركها مولاي عبد العزيز - سامحه الله - لكن اعلموا أن الشروط التي وضعتموها غير مقبولة، فأنتم مبالغون كثيرا، فحقدكم المشروع يغطي عنكم الحقيقة، ففيما يتعلق بالأوروبيين فإنه من المستحيل أن نجبرهم على الحياة في الملاحات ثم إن القوة لا تنفع معهم، لكن وفي القبائل، من السهل منعهم من الدخول إلى فاس ومراكش، أما بالنسبة للشرطين الآخرين فإن أحدهما متعلق بالآخر فمن أجل القيام بالحرب لابد من المال، بل وكثيرا من المال، وقد وجدت الخزينة فارغة من جهة، وأموالها مبدرة بشكل غير مسؤول، ثم إنكم تريدون من جهة أخرى، أن ألغي كل الضرائب ولاأقوم بأي اقتراض. ولهذا يصعب على القيام بواجبي المقدس والذي من أجله بايعتموني، وهكذا سأعمل في المقابل على الرفع من دفع كل المستحقات والضرائب، لتمتلأ الخزينة، إذا أرضى ذلك الله، وأقدم لكم الأمناء المكلفين بتنفيذ هذه المهمة».

فنظر الأعيان بعضهم إلى بعض مندهشين لكن لم يقولوا أي شيء.

وبعد ذلك وصل بوشتى البغدادي من الرباط لينظم إلى مولاي عبد الحفيظ، وكان في استقباله أخوه أسعيد، فسر السلطان لإنضمام هذا المحارب القوي. وعين أسعيد قائدا على أولاد جامع، لكن القائد القديم ولد بامحمد الشركَي (المخبر بالقرار الجديد) جاء إلى

القصر ليهدي إلى السلطان (50000دورو) (250000فرنك) من أجل الإبقاء عليه في منصبه. فاعتقل مولاي عبد الحفيظ الأخوان بوشتى واسعيد البغدادي، وصادر كل ممتلكاتهما[20].

وشرع أهل فاس ينتقدون بقوة قرارات سيدهم / سلطانهم الجديد.

ورغم كل هذا فإن مولاي عبد العزيز لم يعترف بالهزيمة. رغم كثرة انسحابات الجنود إلى الجهة الأخرى ظانين أنهم سيتقاضون رواتب أحسن، وإستشار في هذا الشأن كل الناس الذين لا يعرفون إلا مجاراته. وكان بالرباط M. Gaillard et M.Regnault، لكن لم يستطيعا قول كبير شيء لأن الكل كان محتارا مترددا. وقال له بعض العلماء أن بقاءه بالرباط مكتوف الأيدي لا يزيد إلاتأزيم وضعيته أكثر فلا بد أن يبحث عن حل سواء بالإتجاه نحو فاس أو مراكش. فاستشار سيدي محمد بن داود من أبي الجعد الذي أجابه بأن عليه الذهاب إلى مراكش مرورا بالشاوية وبني مسكين، وبعد ذلك سيصل إلى بلاد السراغنة الذين ظلوا أوفياء له ومن هنا لن يبقى عليه سوى مد اليد للمتوكِي الذي يتحكم جيدا في ضواحي مراكش، والذي هزم قبل مدة قريبة القائد الحفيظي العيادي عبد الرحمان. وذهب فعلا مولاي عبد العزيز إلى مراكش بعد أن ترك نساءه وعياله بدار المخزن بالرباط، وفي حالة انهزامه سيطلب من الفرنسيين الرجوع إلى الشاوية عبر المنطقة التي يحتلونها، أما في حالة الإنتصار رفقة قبائل الجنوب فسينطلق نحو فاس، ومن باب الإحتياط، أخذ أخاه مولاي امحمد إلى الدارالبيضاء حيث ظل تحت حراسة الفرنسيين مخافة أن يعقبه زعير إلى الرباط ويبايعونه.

فعادت الحملة لمغادرة الرباط يوم 12 يوليوز 1908، وكانت تتضمن عددا من الأوروبيين من البعثات العسكرية : المقدم Farriau والقبطان Rondenet والطبيب - النقيبFourniel والملازم Maréchal، الذي اغتيل فيما بعد بفاس، والطبيب الإنجليزيVerdon طبيب السلطان، والمدرب العسكري الإنجليزي Bolding الذي نودي عليه لخدمة المخزن سنة 1903 وماك لان الذي كان في هذه الأثناء ببلاده انجلترا؟

وقد كانت هذه الحملة المكونة من بعض أهل الغرب، وخاصة من أهل الحوز قد عززت بحوالي 3000 فارس من الشاوية بمختلف أفخادها : الزيايدة، والمداكرة، واولاد بوزيري وأولاد احريز، وأولاد زيان، بقيادة وزيرالحرب بن عبد الواحد. وقد توالى على هذه الوزارة : الكَباص الذي جاء من طنجة لتنظيم حملة ضد الريسولي، وعين ممثلا للسلطان بطنجة، فناب عنه ابنه الذي كان خليفته خلال شهر، ثم عوض سي عثمان الجراري الذي ذهب خلال الأيام الأولى من يونيو 1908 إلى وجدة بصفة مندوب السلطان لدى الحكومة الفرنسية وعوض هو بدوره بعبد الواحد.

وكان الوزير الأول هو سيدي عبد الكريم بن سليمان الذي موجودا بالمحلة أيضا، أما سي فضول غرنيط فقال بأنه هرم لا يقوى على التحرك وكأن التحرك الشيخ قد تنبأ بالهزيمة، وكان قائد المشور هو سي ادريس بن يعيش الذي مرض بالرباط، وسيموت بعد مدة من ذلك. وكان خليفته بوشتى بن الفيلالي لا يحضى بمكانة محترمة في المخزن فعين بالنيابة عنه ولمدة مؤقتة بخاريا يسمى سعيد بن المرابط.

وكان هناك أيضا (في المحلة) مولاي عبد العزيز مع بعض النساء والجواري والعبيد في حدود الإثنى عشر. وترك الأخرين في منازله بالرباط ومكناس، ولم يكن هناك أي شعور بالثقة يسود هذه الحملة، فكان كل واحد يحس دون أن يصرح بذلك أن حكومة مولاي عبد العزيز آيلة للهزيمة والفشل، وأن أغلب الجنود كانوا مستعدين لتغيير رأيهم والرجوع دون محاربة.

فأخذت عدة احتياطات قبل الإنطلاق، حيث وجهت حركة آسفي بقيادة مولاي الزين وسي محمد بن عيسى لاحتلال الميناء، وقيادة العمليات من ثمة بمساعدة القواد الجهويين نحو المتوكي الموالي لمولاي عبد العزيز والمعارض القوي للكَلاوي، وكما وجه إلى الصويرة الأفراد الذين يميلون نحو مولاي عبد الحفيظ، بقيادة العزيزي «الحاج عمر التازي» الذي كانت مهمته السرية مراقبة تحركات القائد أنفلوس، وسيرا على نهج أجداده وخوفا من أن يغتال فقد أبعد السلطان عنه كل المشكوك فيهم، من أجل ضمان الأمان والإطمئنان في هذه الحملة ويحاول الإستيلاء على المرسى مادام أن فاس قد ضاعت منه.

وقد أخبر مولاي عبد الحفيظ بالهجوم الذي يعده مولاي عبد العزيز ضده. وأعتقد أنه كان ينقصه المال لأنه أخرج الفراكَ ولم يستطع الإنطلاق إلا في 30 يوليوز فبعث محلة بقيادة سي المدني وسي عيسى بن عمر مع الوحدات، وخمس مدافع، كان عليها الوصول إلى مراكش مرورا ببلاد زيان.

وقد تحركت في هذه الفترة أيضا قبائل الشرق بقوة، بإيعازمن الروكَي بوحمارة الذي وجد الوقت مناسبا ليلعب دورا هاما، فاتجه نحو تازة حيث حرض غياثة والحياينة (23 يونيو)، وبدأ في قتل قوادهم.

وانطلقت إذن حملة مولاي عبد العزيز يوم 12 يوليوز، وكانت أول محطاتها تمارة، وتوجهت بعد ذلك نحو زمور وبني خيران ثم صخرة الدجاجة ثم دار ولد الشافعي قرب واد أم الربيع حيث مكثنا خمسة عشر يوما. ومن هنا انطلق القائد الامطاعي في مهمة مع بعض الجنود نحو الرحامنة لكنه لم يغب سوى يومين، حيث استقبل بحفاوة من أهالي المنطقة، وهوجم بعنف بعد ساعات من ذلك. ورجع مع كل رجاله مهزوما بعد فقد

جوادين. وأخيرا عبرنا الواد عبر مشرع بن خلو نحو أولاد الشرقي حيث وصلنا إلى دار سي علال الشرقاوي (9 غشت) ثم إلى قلعة السراغنة (10 غشت) التي رأينا فيها وصول ابن ادريس بن يعيش سي محمد الحسن (الحاجب الحالي) من الرباط يحمل إلى السلطان نبأ وفاة أبيه (ادريس بن يعيش) فبقينا خمسة أيام بقلعة السراغنة في قلق، وبدأ أفراد المحلة يفقدون الثقة وتعددت وجهات النظر، فبعضهم يريد الرجوع إلى الرباط، والبعض الآخر يريد الذهاب مباشرة إلى مراكش، ورأى الفريق الثالث بوجوب الذهاب إلى دمنات وانطلقنا في الأخير لنتوقف بواد تاساوت، وقمنا من هذا المعسكر بصوكَة ضد دار ولد جاكير حيث توجد أفواج حفيظية في واجهة حراسة أمامية بقيادة عمر والسكتاني، وكانت مهمتها ناجحة حيث اعتقلت عدة أسرى ونهبت الدار، وهرب السكتاني إلى الجبل، ورجعت الصوكَة إلى واد تاساوت مزهوة بهذا الإنتصار، وبعد أيام من الراحة علمنا أن محلة مهمة بعض الشيء قد تجمعت على قدم الأطلس بقيادة العيادي الرحماني، فاستدعى مولاي عبد العزيز السراغنة الموالين له، ووزع عليهم الأسلحة والمؤن لمواجهة العيادي، البعيد من هنا في عين عجيبة على الضفة اليسرى لواد تاساوت.

فانطلقنا على الساعة الثانية صباحا، ومشينا حتى حدود الساعة السابعة، حيث ظهر بعض العياء على المشاة، فكان يركب اثنين أو أكثر على فرس أو بغل، وقد كان المسير متعبا جدا وغير منظم وانطلاقه تصرف خطأ، فقد كان هناك حوالي 3000 فرس، لكنها وصلت متعبة جدا، حتى إنه كان ينزل من على ظهرها في الساعات، وتفرق أفراد المحلة التي كانت تمتد على طول خمس أو ست كيلومترات، وكلما اقتربنا من الوصول كلما زاد عدد المتأخرين الذين يستغلون هذه الوضعية للإختفاء.

وعندما وصل معظم الفوج الأول أمام معسكر العيادي، الذي تراجع وتركهم يتبعونه متفرقين متعبين، بدأت المواجهة ولم تستغرق سوى عشر دقائق. حيث كان المحاربون البعيدون من المواجهة وفرسان الشاوية من المذاكرة وأولاد بوزيري يحاربون متراجعين إلى الوراء ومحدثين مزيدا من الفوضى والإضطراب فرجعوا شبه غير محاربين تاركين اسلحتهم ومؤونتهم وبغالهم وأمتعتهم لرجال العيادي الرحامنة وكَلاوة الذين يطاردونهم، فاتجهوا نحو معسكرهم القديم وسط نيران الأصحاب والأعداء، ولم يعد يفكر كل واحد إلا كيف ينجو بنفسه فقط. فبقت المدافع في ساحة المواجهة، وأطلقت البغال التي كانت تجرها للفرار بأسرع وقت، إنها فعلا هزيمة كبيرة دون حرب تقريبا. وقد عمل السكان المجاورون لمعسكرنا أيضا على سكب الماء في السواقي لإعاقة تحركات فرساننا وجنودنا، وكان المعسكر قد نهب بما في ذلك صناديق السلطان الخاصة وكان السلطان يتابع هذه الإندحارات والمشاهد بحزن وأسف ولم يعد من الممكن سماع أي نداء لجمع وتقوية المحلة من جديد. وسمعت

طلقات رصاص في المعسكر ولانعرف هل أعداؤنا هم من يقصفوننا من فوق أو أتباعنا. لايهم، فالمكان أصبح خطيرا، وعساكر العيادي سيصلون بين القينة والأخرى. وعلم السلطان (مولاي عبد العزيز) ببالغ الحزن أن وزيره في الحرب قد أصيب ورأى أخاه مولاي يوسف أن السلطان الحالي قد أصيب في رجله، ففهم أنه فقد المواجهة، فحمل نساءه على البغال وتراجع بسرعة نحو الغرب وسط حرسه الخاص فقط.

وقد دامت المواجهة ضد العيادي ما بين السابعة والثامنة صباحا، وفي وقت الزوال كان معسكرا واد تساوت مشطبا تماما وفر أغلب أتباع مولاي عبد العزيز نحو أم الربيع تاركين القلعة على يسارهم.

وقد كان الليل كله مناسبا لتشاجر وصراع اللصوص وتقاتلهم، إما لأنهم يريدون أن يظهروا أنهم أعداء أو أنهم يريدون اختلاس وسرقة الأسلحة والمؤن والنقود والخيول، وكانوا يقابلون بطلقات الرصاص من أفراد الدواوير التي يمرون بها من خلف أسوار المنازل، مما يعني بأنه لا يوجد هنا أي مكان للجوء أو الإحتماء، وكانوا ينسلون من بين المضايق ليروا نتائج قصفهم، ويتركون الجثث، إذا ماكانت، عارية وعبثا كان القائد يحاول لم هذه المجموعات من اللصوص والنهابين. لقد كانت فعلا هزيمة نكراء لرجال حمقى عراة أو نصف عراة. وأمكن لسي قدور بن غرنيط الذي بعثه M. Regnault من الشاوية أن يشفي غليله بهذا النظر.

وأخيرا، وبعد عبور واد أم الربيع، حسب استطاعتنا، وصلنا إلى مشرع بوحسينة ومشرع الخليفة ومشرع الشعير. . وتوقف أتباع مولاي عبد الحفيظ على المطاردة. وتفرق كل أفراد حملتنا غير النظاميين إلى بلدانهم، كل حسب وجهته، أما النظاميون فعبروا بلاد بني مسكين، ووصلوا إلى سطات، وكان السلطان معنا، عبر اولاد سي بن داود.

وفي الطريق، كان المبعوثون العسكريون الفرنسيون قد تعرضوا لمحاولات اغتيال كثيرة لأسباب مختلفة، لكن أفهم هؤلاء المهتاجين الإنفعاليين ما هي العواقب الوخيمة التي قد تترتب عن مثل هذا الإغتيال. وأبرق المقدم Fartiau إلى العقيد (الكولونيل Brulard) فوصلت حملة فرنسية أمام فوجنا المهزوم. وقد كان وصول هؤلاء الجنود قد أنقذ حياة العديد منا. وأصبحنا نحس بالأمان انطلاقا من سطات، ومعلوم أن كل الوحدات التي تدخل إلى منطقة نفوذ الفرنسيين تجرد من السلاح بأمر من الجنرال D'Amade ووصلنا إلى الدار البيضاء مرورا ببرشيد ومديونة، وعلى طول الطريق كان حراس المراكز الفرنسية يخرجون لإهداء الأسلحة للسلطان المسكين.

وانعقد بالدار البيضاء مؤتمر جمع وزير فرنسا M. Regnault والجنرالين D'Amade وليوطي للبث في مصير مولاي عبد العزيز وماهي الإجراءات التي يجب اتخاذها في الظروف

الحالية، وقد كان بعض الجياع يقصدون الفرنسيين في مناطق نفوذهم الذين لا يبخلون عليهم بشيء ولم يفقد عبد العزيز الشجاعة حيث استمر في البحث عن أتباع جدد قبل أن يذهب إلى طنجة مقابل راتب شهري (3000 فرنك)، بعد أن تخلى عن جميع حقوق العرش. ووصل إلى طنجة يوم 24 نونبر، حيث انظم أغلب جنوده القدامى إلى مولاي عبد الحفيظ. وبقيت البعثة العسكرية الفرنسية بالدار البيضاء إلى إشعار آخر، لكن كل ما قلته لك منذ وصولنا إلى سطات لاشك أنه موضح أحسن في كتبك.

وبمجرد انتشار خبر هذه الهزيمة الكاملة والنهائية، في أرجاء البلاد، تقوت منزلة مولاي عبد الحفيظ بعد أن كانت مضطربة بعض الشيء، فأطلقت المدافع طلقاتها بفاس، وزينت الأسواق بقطع قماش من الحرير، ودامت الإحتفالات سبعة أيام، وبايعت مدن جديدة مولاي عبد الحفيظ. وحيث انضم إلى السلطان خلال شهري غشت وشتنبر مدن الرباط وسلا والعرائش والجديدة وأزمور ووجدة وآسفي والصويرة التي قتل بها الحفيظيون القائد انفلوس (فاتح شتنبر)

ولازال بعض أتباع مولاي عبد العزيز هنا وهناك، ظلوا أوفياء له مثل أصيلا التي صمدت بشجاعة وبقيادة رجل حرب قوي يدعى بوعودة، أمام هجومات الرميكي باشا القصر الموالي لمولاي عبد الحفيظ، والسراغنة والمتوكي الذي واصل تقدمه نحو مراكش التي حاصرها بعد أن هزم أفواج سي التهامي الكَلاوي بفروكَة، لكن ما لبث أن وصل سي المدني الكَلاوي وسي عيسى بن عمر من فاس مع وحداتهما : صاحبين معهما مولاي الكبير أخ السلطان الذي ذهب إلى فاس بعد مبايعة مولاي عبد الحفيظ، عبر أراضي زيان والأطلس والوصول إلى مراكش من دمنات، وكانت مهمة هذه المحلة تقتضي محاربة المتوكي الذي كان «عزيزيا» والحاج عمر التازي بالصويرة المعارضين للسلطان.

لكن لما وصلت هذه القوات إلى مراكش، فهموا أن أعداء المعارضين أقوى منهم، فتداولوا فيما بينهم، وقال سي عيسى بن عمر :« أنا أتساءل : لماذا سنحارب؟ ما علينا إلا طلب السلام، والتفاهم فيما بيننا، حيث سنقسم الجنوب فيما بيننا نحن الثلاثة، فلنتصالح ولنذهب إلى فاس».

وهذا ما تم فعلا حيث كانت هناك مفاوضات بينه وبين المتوكَي والكَلاوي، فاتفقوا أخيرا وعم السلام، واحترمت وحفظت مصالح كل واحد منهم.

فوصلوا كلهم إلى فاس عبر الرباط لغرض واحد، وكان الوزير الأول الذي عوض ولمدة مؤقتة سي عباس الفاسي قد صحب مع عائلة مولاي عبد الحفيظ قسما من أفراد عائلته وخيوله وكلاب صيده، ومروض نسور صيده. وتيقن كل العزيزين أنه لن يصيبهم بأدى لافي أبدانهم ولا في متاعهم (فبراير 1909)، لكن بالوصول إلى الرباط غادر مولاي

الكبير المحلة دون استئذان متجها نحو أصدقائه من زمور، باحثا على تأليب القبائل ضد مولاي عبد الحفيظ وسأحكي لك عن هذا في فرصة أخرى.

ـــ ووصل مولاي عبد الحفيظ إلى الرباط (في آخر أكتوبر 1908)، واستقر بطنجة وبايعته الدار البيضاء (25 نونبر)، وطلب أن يكون اخواه مولاي الزين ومولاي امحمد بجانبه.

لكن هذا الأخير لم يقف مكتوف الأيدي بعد هزيمة مولاي عبد العزيز، حيث جاءت عدة رسائل من جهات عديدة من المغرب يقال له فيها « تدبر أمورك إذا أردت أن تكون سلطانا، فإننا على استعداد لمؤازرتك» بل إنه أعد خاتمه السلطاني، ومخافة أن يذهب جنوبا عند الرحامنة المستعدين لمؤازرته، فإن مولاي عبد الحفيظ وضعه في جانبه حتى تراقب تحركاته.

وغادر مولاي امحمد الدارالبيضاء ليصل إلى قصبة الصخيرات، حيث استقبله عرب ازعير الذي كان في مقدمتهم صديقه الحاج بن عيسى الذي سيذهب معه إلى الجنوب، فوصل هؤلاء الرجال إلى تمارة، حيث كانوا بعض المئات من الفرسان مع القائد السويسي والحاج بن عيسى فاتجه بهدوء نحو الرباط حيث قضى الليل، وفي اليوم الموالي انطلق نحو فاس تحت حراسة قوية، فسجن المسكين من جديد، ووضعت القيود في رجليه حتى نزالة الفرجي آخر مرحلة قبل فاس. . وقد كان هذا الرجل مشهورا في القبائل التي يخاف السلطان رد فعلها إن هي رأته في هذه الوضعية، وعندما وصل إلى فاس وضعه مولاي عبد الحفيظ في قبة والأغلال دائما في رجليه [21].

وعرفت البعثات العسكرية الفرنسية بعض التغييرات ويمكن أن يكون ذلك من نتائج أحداث بن عجيبة عوض المقدم Farriau بالمقدم Mangin الذي كان قائد الشرطة الدولية بطنجة (كابور البوليس)، حيث كان مساعد القبطان Breunondوأصبح الأطباء هم الأطباء النقباءBellot et Cristiani.

وفي شتنبر بعث الملازم سديرة الى طنجة عند سي المهدي المنبهي، وزير الحرب السابق، الموالي للإنجليز لمراقبة تحركاته، وتذكر أنه عندما رجع من الحج مكث في منزله الذي بناه وجمع فيه كل متاعه، وأصبح محميا أنجليزيا.

كما كان بطنجة أيضا وجه معروف : ماك لان الذي استأنف علاقته مع السلطان منذ وصوله إلى هذه المدينة وبعد مدة من قبول السلطان مولاي عبد الحفيظ شروط مؤتمر الجزيرة الخضراء، اعترفت به كل القوات الأوروبية، وانطلقت البعثة العسكرية الفرنسية نحو فاس (دجنبر1908)، وأرسل سي قدور بن غرنيط المقدمة ليهنئ بقدومه إلى فاس، وبمجرد وصول الضباط قدموا للسلطان لكن كان استقبالهم باردا.

ولاية مولاي عبد الحفيظ

(من 19 غشت 24 1908 إلى 30 مارس 1912)

المواجهات الحربية الأولى ضد آيت يوسي وبني مطير

لقد كانت بداية ولاية عبد الحفيظ صعبة، خاصة أن شيئا ضروريا كان ينقصه وينقص خزينة الدولة : إنه النقود. فقد اقترضنا من جميع الجهات لكن كل شيء تبخر. فما العمل بدون نقود؟ لاشيء، ثم إن بعض القبائل لم تؤد مستحقاتها من الضرائب منذ خمس أو ثمان سنوات بعد أن أنهكتهم الحروب. ومن المستحيل الذهاب عند قبائل الشاوية الذين انسجموا مع الفرنسيين الذين يسهرون على الأمن في المدن والأسواق.

فأدرك مولاي عبد الحفيظ أنه لابد من إعلان السلام مع الأجانب والخضوع لشروط ومقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، وهذا ما خطب به في المساجد (دجنبر 1908)، ولم تعترف القوات الأجنبية بمولاي عبد الحفيظ إلا بعد استجابته لهذه القرارات.

فكل شيء بدأ كالسابق، فها هي بداية ولاية مولاي عبد الحفيظ تشبه بدايات مولاي عبد العزيز، بنفس الأشخاص الذين يبدو أنهم انتعشوا واسترجعوا حيويتهم من جديد. فهاهو الريسوني قد طلب وحصل على حكم مناطق جبالة كما قلت لك سابقا وهاهو بوحمارة وأتباعه يريد استئناف مغامراته القديمة، وهاهم أيت يوسي وبني مطير والمتمردون المعتادون قد أعلنوا العصيان ولابد من محاربتهم من جديد.

ووصل وزير فرنسا M. Regnault إلى فاس ليتحدث مع السلطان حول الإجراءات الواجب اتخاذها، فأشار مولاي عبد الحفيظ بأنه يرغب أن تنسحب فرنسا من برشيد ومديونة، وأن لا تبقى في الدارالبيضاء إلا مدة مؤقتة، حتى يعد محلته من جديد ويرجع الأوضاع إلى نصابها في المنطقة، ثم عوض مولاي الأمين بسي محمد الأمراني في الشاوية. ولما رأى مستوى المدربين الفرنسيين الجيد أعجب بهم وبمساعدتهم له، عين المقدم Mangin قائدا عاما لكل المدربين العسكريين (22 فبراير)، وسيلتحق به فيما بعد وحدات ما بين 15 و20000 رجل، ثم اتجه وزيره الأول وصهره سي المدني الكلاوي نحو فاس مع وحدات الجنوب ومنها إلى وجدة قصد تركيز الجنود في تلك المنطقة.

وفي الوقت الذي كانت فيه وحدات الجنوب وقوادها : سي المدني الكلاوي، وسي عيسى بن عمر، وسي عبد المالك المتوكي، وقواد الرحامنة وبلاد احمر متجهة نحو فاس

ولم تلتحق بها وحدات دكالة وحاحا أرسل مولاي عبد الحفيظ مبعوثين فرنسيين للبث في القضايا المعلقة في الشاوية والشرق. ثم عين سي الحاج محمد المقري وزيرا في المالية، وسي عبد الله الفاسي وزيرا في الخارجية « أثناء غياب سي عيسى بن عمر، (19 ماي).

فتنفست البلاد الصعداء شيئا ما، في انتظار الجديد، وكانت الشاوية هادئة.

وأصبح للفرنسيين قائد جديد (الجنرال Moinier الذي عوض AmadeD يوم 22 فبراير) لكن البرابرة. وكعادتهم لازالوا مستمرين في تمردهم، فأرغم مولاي عبد الحفيظ على إرسال ثلاث محلات الأولى ضد آيت يوسي، والثانية ضد بني مطير، والثالثة لمراقبة تحركات بوحمارة.

وجمعت المحلة المتجهة ضد آيت يوسي في فبراير بقيادة اسعيد البغدادي الذي أطلق السلطان سراحه، وسي محبوب عم مولاي الكبير، وكان طابور المشاة تحت قيادة بوعودة الذي التحق بصفوف مولاي عبد الحفيظ، وكانت المدفعية مكونة من مدفع Hotchkiss ومدفعين جبلين (80ملم). وعشرات الرشاشات Garnerبقيادة الملازم بن اسديرة والمساعد (Adjudent Rouchon) وقائد الأفواج النظامية هو قائد الرحى بلخير التيزنيتي.

ووصلت هذه المحلة عبر فاس إلى صفرو حيث عسكرت تحت الزيتاتين (3 مارس)، ووقعت مواجهة قوية هناك أياما بعد تشييد المعسكر (6 مارس) لكن المدفعية حسمت الموقف. ولم يثر أيت يوسي إلا لأنهم لا يريدون آداء الضرائب خاصة بعد أن اغتنوا بالخيول والأبقار والأغنام والبغال، ولم تصمد منهم في المواجهة سوى فخدة واحدة وهم أيت علي، وكان لابد من تنظيم عدة صوكَات ضدهم من معسكر مستارة الجرف. فقد كان على رأسهم شخص قوي يدعى محمد أغامي، لكن أجبروا في الأخير على الإستسلام وآداء مستحقاتهم عينا، وتزويد المخزن ب 250 جندي بقيادة قائد رحى، يتحملون مصاريف رعايتهم.

وأعطيت الأوامر بعد انتهاء هذه العملية، برفع المعسكر والإنطلاق عند بني مطير. حيث الوضعية ليست على ما يرام.

وفي الوقت الذي كنا فيه عند آيت يوسي، كان مولاي عبد الحفيظ قد جمع حملة في فاس لإرجاع بني مطير إلى الصواب، وسأشرح لك لماذا؟.

فقد كان هناك في فاس شريف محبوب محترم من سلالة مولاي ادريس يسمى سيدي محمد بن الكبير الكتاني كان وراء موافقة علماء فاس على مبايعة مولاي عبد الحفيظ (منذ 4 يناير 1908)، لكن بشروط لابد من الإلتزام بها، وكان يؤكد دائما على عدم وجوب دخول الأوروبيين إلى فاس، ولم يقبل مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء التي قبلها

السلطان. ولاحظ أن الأوروبيين قد رجعوا إلى فاس وأن السلطان يستشيرهم في تسيير الأمور، وكان لابد من إعادة كل شيء من البداية، فتصاعدت وثيرة انتقادية إلى أن قرر معارضة السلطان بشكل مباشر، وذهب عند بني مطير ليحرضهم. ويشير باندلاع الحرب المقدسة (19، 21 مارس) فالتف حوله 500 محارب، وكان يود الذهاب حتى عند بني مكَليد.

لكن السلطان جمع محلة من 2000 رجل بفاس، بقيادة بوخبزة قائد « موالين ادحو» بالقصر، وكان ضمنها مدربون عسكريون أجانب، وضباط صف (Pisaui) في المدفعية و (Bolding) أنجليزي في الخيالة. لكن أحد قواد بني مطير، بعد أن تملكه الخوف قبض على الشريف حينما كان يستعد للذهاب عند بني مكَليد، وسلمه للمخزن الذي اعتقله. ورغم ذلك قرر السلطان أن تستمر المحلة في مهمتها ومعاقبة الذين وقفوا إلى جانب هذا المتمرد (كان الإنطلاق يوم 28 مارس).

وقد كان بوخبزة يتقدم، وفي انتباه كبير وببطء نحو بني مطير، لأن هؤلاء الرجال قد ظلوا مدة طويلة أحرارا وأقوياء. وعسكر أخيرا على بعد كيلو مترات من قصبة الحاجب، وبعد يومين وجد نفسه محاصرا بمجموعة من المحاربين من بني مطير، وبني مكَليد، وآيت سخمان وكَروان بل وحتى زمور الذين اشعلوا نارا قوية في هذه المواجهة، فوقعت انشقاقات وتصدعات في معسكره وترك رجالنا المدافع والخيام والمؤن وفروا نحو فاس كأرانب تطاردها كلاب صيد، وكانت هذه أول هزيمة لأفواج المخزن الجديد (15أبريل).

وكانت حملة سي محبوب بعد أن أنجزت مهمتها بآيت يوسي قد غادرت معسكر مستارة الجرف قد وصلت إلى شربانة ثم أمقلا حاليا. وفي هذا المكان وصلنا نبأ هزيمة المحلة ببني مطير، وكان وجودنا هنا مغامرة بعض الشيء لأن بني مطير كانوا قد اتفقوا مع أيت يوسي لمحاصرة المحلة المعسكرة بأمقلا، ولكن مولاي عبد الحفيظ أعطى أوامره لكل وحداته المحاربة بالرجوع إلى فاس، وأعني محلتنا، ومحلة أخرى كانت توجد بعنق الجمل ضد أتباع الروكَي. سأحدثك عنها بعد قليل.

فاجتمع إذن كل الجنود بباب سكَمة، وأخذت بعض التجريدات حراسة أبواب فاس، لأننا كنا نخاف هجوم البرابر. فأعطيت البنادق والأجور المتأخرة للجنود، ونظمت محلة قوية ضد بني مطير بقيادة سي محبوب (22 أبريل).

وفي الوقت الذي كان فيه الشريف الكتاني يعاني من الجلد الذي حكم به عليه السلطان (4 ماي) كنا نحن نتقدم نحو بني مطير، وبعد هجومين قويين (16 و18 ماي) ردتهما قواتنا، احتلت المحلة قصبة الحاجب، ورأت المواضع والأماكن التي هزمت فيها محلة بوخبزة ووجدنا في ساحة المعركة القديمة المدافع المتروكة عند الفرار. وقد كان للمدفعية

بقيادة بن سديرة وضباط الصفPisaui،Rouchon،Guerrazدورا كبيرا في هذا الإنتصاربالإضافة إلى بعض المدربين المخزنيين النقيب le Glayوالإنجليزي Bolding.

وعندما انهزم بنو مطير تماما، استسلموا وجاؤوا بثيرانهم (الهدية) وأدوا مبالغ هامة (100000دورو) غرامة. وأجبروا على مؤونة وعناية خاصة بطابورهم ضمن الأفواج المخزنية وقد كان هذا الإنتصار المخزني انجازا خارقا لم تشهد القبيلة مثلها منذ القديم.

فأقامت المحلة في راحة تامة بقصبة الحاجب وسط البلاد مدة شهرين في ضيافة بني مطير فاستدعاها السلطان من فاس لتدمير موقع تمرد أصبح أكثر خطورة، ذلك أن أتباع بوحمارة قد جاؤوا في عصابات من 40 إلى 50 فارس لنهب القرى على مسافة قريبة من فاس، ويجب وضع حد لبوحمارة هذا الذي صمد أمام قوات مولاي عبد العزيز وكان السلطان المتحمس والمسرور بنجاحه في بني مطير أكد أنه قادر على النجاح في هذه المهمة.

نهاية مأساوية لمغامرة بوحمارة

لقد تركت بوحمارة في سلوان حتى أحكي لك عن الريسولي، وقدوم مولاي عبد الحفيظ من مراكش.

وتعلم أن سلوان هي قصبة قوية، بنيت منذ عهد مولاي اسماعيل على يد حمية من البخاريين، كانت توجد بها دائما حمية مخزنية (500 رجل) سواء في عهد مولاي الحسن أو مولاي عبد العزيز، لكنها سقطت في يد بوحمارة (ربيع 1903).

وقد لجأ إليها الروكَي بعد أن هزمه بوعمامة وعبد المالك بوجدة (يوليوز 1906)، ولم يفقد قوته بل ازداد قوة بمتاجرته مع الإسبان واشتراء البنادق والرصاص. وكانت قصبته قريبة من بحيرة كبيرة بسبخة بوعركَ التي يسميها الإسبان Marchica حيث كانت تصله المراكب التجارية إلى حدود أفراد قصبته، ويقال بأن الروكَي قد أصبح يتوفر الآن على 20000 رجل و 10 مدافع وست رشاشات (ربيع 1907).

ولم يقف المخزن مكتوف الأيدي، بل أرسل محلة مراقبة بقيادة الباشا سي الحاج علال وبنى معسكره عند كبدانة بالقرب من هذه البحيرة. وهاجم رجال سلوان المحلة، هجومين قويين (18 و25 ماي 1907) بل إن المحلة الشريفة قد حوصرت على الشريط الرملي الذي يفصل La Marchica والبحر، ونهب أتباع بوحمارة وريافة المجاورين المعسكر (27و31 ماي 1907)، وقد قتل في هذه المواجهات بعض قواد الرحى مع مولاي بوبكر عم السلطان، لكن، وعوض أن يهزم بوحمارة الأفواج المخزنية تماماويؤكد انتصاره، فإنه تراجع إلى قصبته مخافة، ودون شك - أن يعقبه أحد إليها وينهب مؤنه وأسلحته، وأعاد المخزن تكوين صفوف. . . كما هزمت محلة أخرى بقيادة سي محمد بن الجيلالي الذي خرج مع 3000 رجل، وعاد إلى سلوان ب 38 قتيل و200 أسير (شتنبر 1907)، وقد أصبحت هذه المحلة المسكينة عاجزة تماما عن الحركة، فأفرادها دون أجور ودون طعام بل ودون لباس، وكان عليها أن تعيش مما يعطيها الأهالي المنهكين من كل هذه الحروب، وكانت هذه فرصة أخرى انتصر فيها بوحمارة (10 دجنبر 1907). . كما قتل أيضا سي محمد بن الجيلالي مع خمس قواد الرحى، أما الذين تبقوا فقد فروا وباعوا البنادق والرصاص. فاضطر السلطان أن يدعوهم للالتحاق بفاس فوصل آلاف الرجال بحرا (مليلية ثم طنجة نهاية يناير 1908).

وبعد هذه الانتصارات استرجع بوحمارة قواه، وضمد جروحه، وأعاد تدعيم صفوفه بالأسلحة والمؤن، وكان يعلم أن مطالبا بالعرش بدأ نفوذه يتقوى في الجنوب وبويع سلطانا في مراكش (16 غشت 1907) فلماذا لاينزل هو بدوره إلى فاس، وهو الذي لازال يدعي أنه هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن، قبل أن يصعد الآخر إليها؟

ولكن للحصول على النقود، فقد أكد أهالي الجبال أنه باع للإسبان مناجم الرصاص والحديد الموجودة بسلوان في جبال بني ايغرو. حيث كان يتحرك المهندسون في هذه المناطق ويعدون طرق استغلال المعدنين : فأصبح الريفي يكره الروكَي الذي باع الأرض المغربية للنصارى. ففي الوقت الذي كان فيه مولاي عبد العزيز يعد لحملته التي أجهضت في الجنوب، كان الروكَي قد غادر قصبة سلوان عبر كَلاعة وبني أوليشك، وبني توزان، وبني اسعيد الذين طردوه من أراضيهم، نحو واد زم (تاوريرت)، وهكذا رجع إلى تازة (23 يونيه 1908) حيث سيعيد اطوار مسرحيته القديمة وكان الحياينة يحيطون به دائما، وبعث رسلا إلى غياثة واتسول والبرانس لضمهم إلى صفوفه من جديد لأنه وصل بأفراد قليلين ككلب مهزوم بعد أن فر مع بعض أتباعه عبر عيون سيدي ملوك ومسون وهاهي تازة قد رأت زعيمها من جديد.

ولما كان بوحمارة قد جهز عصابات كبيرة مهمتها الحراسة متسامحة مع الأصدقاء وناهبة الأعداء، فإن مولاي عبد الحفيظ، ومنذ شهوره الأولى من التولية، كان قد بعث محلة بقيادة ابن اسعيد في الإتجاه الذي يمكن أن يكون قد ذهب إليه الروكَي ليصل إلى فاس، خاصة أن هناك إشاعات كثيرة بالمدينة تقول إن بوحمارة موجود بقصبة أولاد زيان، والبعض الآخر يقول بأنهم رأوه بعين السبيت. وفي الأيام الأخيرة من فبراير انطلق 2500 رجل شرقا لكن توقفوا بمنطقة عنق الجبل، في منحنى سبو حيث كان الطقس مضطربا، والبرد قارس جدا وزوابع ورياح وأمطار كان مستحيلا معها القيام بأية صوكَة فالحيوانات الموجودة في العراء تموت تباعا، والمرضى وغير المرضى من أفراد المحلة يرجعون إلى فاس القريبة منهم.

فاستدعى السلطان هذه المحلة لترجع إلى باب سكَمة 19 أبريل 1909. في الوقت الذي كانت تقود فيها بقايا المحلة المهزومة ببني مطير وكنا في حاجة إلى رجال للرجوع لقصبة الحاجب.

واستأنفت عصابات بوحمارة عملها التخريبي، فقد وصلوا عند الشواشي وملتقى نهري سبو وإناون، وقد كان قائد هذه الطليعة عبد زنجي قديم للسلطان وأصبح خليفة لبوحمارة يدعى العبيد الجيلالي ووصل بتمرده ونهبه حتى أولاد الحاج مخلفا وراءه النيران والدماء بل إنه قام استطلاعات حتى حدود قنطرة واد سبو.

وطيلة شهر ماي ويونيو كانت الأوضاع بضاحية فاس والمناطق المجاورة لها مضطربة وأصبحت القبائل الخاضعة قلقة من ردود فعل السلطان الذي لايحميهم، وكان المنهوبون يدخلون إلى المدينة خائفين، بل إن الخوف قد تسرب إلى سكان فاس أنفسهم حيث أغلقوا باب فتوح.

فلابد من التدخل إذن وبسرعة. وهكذا استدعى مولاي عبد الحفيظ حملته المنتصرة ببني مطير إلى فاس، بعد أن تركت حمية بقصبة الحاجب، بل إنه ودون انتظار وصولها بعث طليعة من طابورالعبيد في حوالي 700 رجل، وكان الجيلالي في هذه الأثناء معسكرا بعين السبيت عند بني سادن وبوحمارة مع 500 نظامي يوجد بعين تافاسا وشيد المعسكر الشريف بالحجرة الكحلة على سبو. فقمنا بصوكة ضد الجيلالي، وكانت المواجهة في منبسط على ملتقى وادي اللبن وواد إناون، وفر المتمردون المنهزمون عند الحياينة، ولم نطاردهم بل اكتفينا بنهب معسكرهم والرجوع إلى الحجرة الكحلة.

وبعد إقامة في هذه المنطقة، رفعت محلة سي محبوب[22] المعسكر في اتجاه الشمال الشرقي نحو شراكَة وقشتالة، وعلمنا أن بوحمارة الذي التحق به الجيلالي، قد وصل مع أتباعه إلى منزله عبر الضفة اليسرى لورغة فقد كان يريد، ودون شك، أن ينضم إليه جبالة ويهجم معهم على فاس لأنه وحسب هذه المعلومات فإن إعداد جنوده الحاليين قليل جدا مكون أساسا من حياينة الضفة اليمنى لإناون.

والذي يبدو جليا، أن قبائل ناحية تازة قد تخلت عنه ولم تعد تمده بالمؤن، وسيحاول البحث عن مصدر آخر فمر عبر عين مديونة وقلعة السلاس، مهددا بالهجوم على فاس البالي بقشتالة (6-8 غشت 1909) وجبل أمركَو.

وكانت محلتنا تتقدم فرسان أولاد جامع قاطعة عرضا بلاد شراكَة، في اتجاه اللحاق بالروكَي والقبض عليه في حوض ورغة، التي يقوي فيها صفوفه بالقبائل المجاورة.

وفي اليوم الذي عسكرنا فيه قرب سوق اثنين قشتالة بعين أم كَنافر (9 غشت) أخبرنا أهالي المنطقة أن الروكَي قد ذهب عند السلاس حيث عسكر، وأنه يتحرك بتجريدات متفرقة على طول واد ورغة وجبال بني ورياغل وعم الخبر كل صفوف المحلة.

فأمر سي محبوب بأن يمتطي الكل خيولهم، وكنا على بعد ساعتين تقريبا من واد ورغة، ولما اقتربنا لاحظنا في الوقت الذي كنا نستعد فيه لعبور الواد، طليعة جنود الروكَي بالسهل، وأخبرنا المستطلعون بأن حملته تمتد على طول عدة كيلومترات تتخللها فراغات وتقطعات وسط الصفوف.

فبدأ الهجوم، ومنذ الوهلة الأولى انتصر المخزن وقد كان بنو ورياغل القريبين جدا من مرتفعاتهم الجبلية الذين ينتظرون اتجاه الريح (من سيفوز)، قد لاحظوا ضعف وحدات

الروكَي، فانقلبوا ضده، أملا في تحصيل نصيب من غنائم القافلة، فتقطعت وتلاشت محلة العدو، وهوجمت في خمس أو ست أماكن، فكان المحاربون يفرون، والحراس يغادرون قافلتهم، فكنا نجمع العبيد والإماء المستعطفين والخيول والبغال المحملة بالأمتعة، وشرع في نهب صفوفه، لكن بوحمارة وهو المحارب الجيد والقوي، قد أوقف جنوده وشجعهم على المواجهة أكثر، وبعث تجريدات لتقوية النقط الضعيفة، واستأنفت المواجهة، ولم يكن الهروب (هروب أتباع الروكَي) هو المنتظر كما رأينا قبل لحظات بل كانت هناك مواجهة قوية ومنظمة أمام عدد أكبر من الجنود، وعند غروب الشمس توقفت المواجهة، وبقيت محلة الروكَي في أماكنها وقضى بوحمارة ليله فوق تل.

لقد كان فعلا يوما عصيبا، قصفنا فيه دون توقف منذ الساعة الثانية بعد الزوال، وكان هناك عدة قتلى وجرحى من الجانبين.

وعند الفجر، اختفى الروكَي في اتجاه الشمال الشرقي نحو بني خالد وبني مسكيلدة(بلالة عويش) فطارده جبالة إلى حدود زاوية مولاي عمران عند بني مستارة، فجمعت المحلة الشريفة الأسلحة والمؤن والأمتعة التي تركها هذا المتمرد عند فراره، وأسرت عدة جرحى ومرضى لم يستطيعوا اللحاق به، ومشطت حوض ورغة، وبعد غياب مرتين رجعت إلى معسكرها، بعثت إلى فاس بحوالي 200 أسير و40 رأس مقطوعة لتعلق على باب محروق، وقد كان من ضمن القتلى الخليفة الجيلالي (10و11 غشت).

ثم عبرت المحلة واد ورغة إلى المشرع في منبسط بلاد بني ورياغل، ثم صعدت نحو واد أوديار لتصل إلى مولاي بوشتى الصغير، حيث عسكرت، وأرسل قائد الحملة من هذه النقطة بعض القواد مع حراسهم، إلى مختلف الجهات لمعرفة أي الجهات اتجه نحوها الروكَي، فجاءت الأخبار مؤكدة وجوده بزاوية مولاي عمران.

وفي أحد الأيام جاءنا أهالي بني مستارة يخبروننا أن قوات بوحمارة قد تلاشت، وأن فرسانه يغادرونه شيئا فشيئا، وأنه لم تعد له الأموال الكافية، ولم يبق حوله سوى حريمه وخمسين فردا من العبيد، ومن السهل القبض على هذا المتمرد الذي تعبوا من مؤونته وتغذيته، وكان اليوم يوم جمعة، فقرر الذهاب أولا للصلاة، ثم الإنطلاق حيث كان الفرسان يتبعون مدفع 80، والرشاشات في الأمام، وكان أهالي البلاد يساعدوننا على عبور مسالك هذه البلاد الوعرة والمرتفعة التي يصعب فيها التحرك بسهولة وسرعة. وأخيرا وصلنا في حدود الساعة الرابعة والنصف إلى مشارف الزاوية التي لجأ إليها بوحمارة (22 غشت).

فبدأت المواجهة، حيث كان دفاعه قويا، فالعبيد يقصفون من الزاوية نفسها. مما أفقدنا عدة أفراد، لأنهم كانوا يرمون من ثقب الأسوار، وكان السكان المجاورون للزاوية قد

غادروا مشاتيهم بمجرد علمهم باقترابنا، واحتموا بأبنائهم ونسائهم وبهائمهم بعيدا عن مسرح المواجهة التي ينتظرون نهايتها.

واقترح في هذه الأثناء، أحد أفراد المحلة الفكرة التالية : إن الوسيلة الوحيدة للقبض على بوحمارة دون فقدان مزيد من الأرواح هي إشعال النار في سقف الزاوية. فتطوع أحد الرجال بعد أن تجرد من ثيابه تماما، باحثا عن مكان مناسب ليبدأ عمله، فانبسط أرضا، وأخذ يمشي على بطنه كثعبان في المنعرجات والأماكن الوعرة، مختفيا وراء أدنى مرتفع في الأرض، وازداد دوي البنادق لإلهاء المحاصرين عن تحركات هذا الرجل، ووصل أخيرا واشتعلت النار بالسقف. فلم تعد الوضعية بالزاوية مريحة، فقد كنا نسمع الصراخ، وكان بوحمارة، وتحت حراسة قصف العبيد من الشرفات والثقب، يخرج النساء الواحدة تلو الأخرى من الزاوية، وكان بعض العبيد يتقدمون أماما يطلقون النيران يمينا ويسارا، والسقف المحروق قد سقط نصفه، لكن أين بوحمارة؟

وقد كان الهاربون المتمردون يحاولون الإبتعاد من المواجهة في نظام متسللين، لكن فرساننا كانوا يحاصرونهم واجبروهم على الدفاع من جديد، وكان أحد الجنود الذي يعرف الروكَي قد ميزه من وسط النساء، فاعتقلوه. وأحاط قواد الرحى فرحين بكونهم هم الأوائل الذين عرفوه، وكان منهم : ابن الجيلالي، والسغال الزمراني، وعقرة والناجم، واعتقل معه الكل : النساء والفتيات والعبيد والإماء، وقد كان سي محبوب قائد المحلة الشريفة قد بقي بمعسكر مولاي بوشتى، وكانت التجريدة التي قبضت على بوحمارة تحت قيادة سي عبد الكريم ولد بامحمد الشركَي.

وبوصول الليل، كانت الأفواج تراقب وتحرس أسراها، حيث قضت الليل في مكان القبض على بوحمارة، فاستأنف السكان حياتهم اليومية، وبمجرد القبض على الروكَي رجع الملازم الجزائري بن سديرة، « الفرنسي الوحيد» في هذا الإعتقال، إلى المعسكر ليخبر سي محبوب بالنبأ الجديد، فأرسل سي محبوب رقاصا إلى المقدم Mangin لإطلاعه بالجديد[23].

وفي اليوم الموالي على الساعة الثامنة صباحا، أدخل الروكَي إلى المعسكر وسط استغراب كبير. فلم يكن يرتدي سوى قميص، ورأسه عار تماما، لكن كان يمشي متبخترا فخورا. وقد كان عمره حوالي 50 سنة، ولم تكن عينه ناقصة كمولاي امحمد، لكن عيناه مفتوحتان واثقتان، وكان يبدوكأنه لا ينظر إلينا، وكان وحيدا، رجلاه مغلولتان. فقد اختفى كل رجاله، وسبى جبالة نساءه وباع أفراد المحلة عبيده وإماءه، وهو سلطان الشرق السابق يمشي كلص بئيس، وعندما وصل عند قائد المحلة اشتكى له من الجوع والبرد، فكساه سي محبوب، وقدم له الطعام، ووضع له الحداد الأغلال برجليه وأركب بغلة « بالسريجة»،

واتجه به نحو فاس تحت حراسة بقيادة سي عبد الكريم، وبقيت المحلة معسكرة بمولاي بوشتى.

وبمجرد علم السلطان بالنبأ أعد قفصا قويا قضبانه من حديد، مثل قفص الحيوان المفترس، وأرسل تجريدة لإستقباله، فأدخل بوحمارة إلى هذا القفص مكبلا دائما إلى فاس عبر باب بوجات، فأعلن « البراحون » في كل الأنحاء في فاس الجديد وفاس البالي، نبأ القبض على بوحمارة، فعم الفرح والإرتياح، وأطلقت المدافع طلقات الفرح، وأغلقت المحلات وخرج الناس جماعات من الأسواق، وأقيمت حفلات التبوريدة وتزاحم الناس لرؤية هذا المهزوم، والذي سيراه السلطان بدوره مثل شعبه.

فأدخله الحراس بسهولة إلى المشور الجديد مخافة الهيجان الشعبي، فعزفت الموسيقى، ولعبت التبوريدة، وكان السلطان محاطا بكل المخزن : الوزراء والكتاب جالسا في الخلف أمام حيوان قصره. فطيف بهذا الأسير كل أنحاء القصر حتى يتعرف عليه كل الحاضرين.

فأنزل القفص أمام مولاي عبد الحفيظ الذي أخذ يتأمل « صاحبه » مدة طويلة، وكان ينظر إليه وهو بدوره دون أن يقول أي شيء وأخيرا بدأ الحوار بين الرجلين كما سأقول لك :

ـــ ما اسمك ياولد الحرام؟

ـــ الجيلالي الزرهوني.

ـــ لماذا انتحلت صفة أخينا مولاي أمحمد منذ سنوات؟ وعارضت أخيرا أيها الكذاب سلطتنا رعاها الله.

ـــ لايقع إلا القدر المكتوب.

ـــ فلماذا كنت تتجه نحو وزان؟

ـــ لاتسألني أي سؤال لأنني لن أجيب عنه، لكن أعطني طعاما لأنني جائع. وبعد ذلك سأعترف، لأنني أرى أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها.

فاستغرب السلطان من وثوقية هذا الرجل في نفسه، وأمر بإعطائه الطعام، وقدم له الخبز والسمن.

ـــ هل هذا طعام يقدم إلى السلاطين؟

فرفض أن يأكل.

وأشار السلطان إلى حاجبه الذي أعطى أوامره، وبعد لحظات جاءه عبدان أمام القفص بطجينين من لحم الدجاج والغنم، فكان بوحمارة يأكل كثيرا، وببطء، والسلطان ينتظر دائما، وطلب شايا فأعطيه، ولما رشف آخر رشفة قال له مولاي عبد الحفيظ :

ـــ حسنا فقل لي الآن بعد أن امتلأت بطنك لماذا ذهبت عند جبالة؟

ـــ لقد كنت ذاهبا إلى مولاي عبد السلام، لأن ثمة كان من الممكن أن أتفاوض معك !؟

ـــ كيف؟ ألا تستحيي من تصرفاتك؟

ـــ لست أستحيي من تصرفاتي، كما لا تستحيي أنت من تصرفاتك، فكلنا من أسرة واحدة، فنحن الإثنان روكَيان.

ـــ فإذا كنت أنا روكَيا، فإنني لم آت من دوار في الجبال امتطي حمار. وأطالب بعرش فاس. فأنا من أسرة السلطان المنحدر نسبه من علي بن أبي طالب (ص)، وأنا بفضل الله ورسوله هنا هو السلطان.

ـــ نعم، هذا صحيح، لكن يبدو لي أنك تحتقرني كثيرا وتعاملني كراعي أغنام، فأنا متعب وأريد أن أستريح رغم آلام الأغلال في رجلي. فلا داعي للإطالة في الكلام فإما أن تطلق سراحي وتضمني إلى جانبك أشتغل معك، أو تعدمني، فلو كنت مكانك وكنت مكاني، فإنني لن أفكر سوى في هذين الحلين.

ولم يتدخل السلطان، كما لو أن بوحمارة هو من يتحكم في الحوار.

ـــ إطمئن، فأنا لا أقتل وأشوه أجساد أمثالك.

وقد حاول سيدي عبد القادر الفاسي أن يسأله، لكنه أجابه :

ـــ لن أجيبك، فأنا لا أتحدث أبدا مع غير الملتحين.

وفي الوقت الذي كانت فيه خطب المساجد تنوه بالقبض على بوحمارة، ظل هذا الرجل في قفصه محروسا بباب بوجات، وكان قد بني سورا مربعا من الإسمنت حتى يمكن لكل واحد أن يشفي غليلهُ من رؤيته، ولما شفي غليل كل أهالي فاس أطفالا وشيوخا وأيتاما ومشردين، وعجزة فوق بغالهم من رؤية الروكَي، نقل إلى دار المخزن حيث سجن في بنيقة تحت حراسة مشددة دائما.

وبعد سبعة أيام من هذا الإنتصار، دامت الحفلات يوميا بباب محروق بأشكال مختلفة حفلات سأحكي لك عنها الآن فقد عرضت خسائر الحرب من قبل الأسرى المبعوثين بعد هزيمة الروكَي بواد ورغة ومن قبل من لازالت محلة سي محبوب تطاردهم في نواحي فاس.

ووفد على فاس عدد جديد من الرؤوس المقطوعة (60 إلى 80) الذين عمل اليهود، وتجار المحلة كالعادة على تمليحها، وخياطة قطعة جلد في العنق، وعلقت على جدران باب محروق أمام حشد كبير من الناس، ووسط الأهازيج النغمات الموسيقية والأفراح.

كما وصل أيضا 300 أو 400 أسير لاأتذكر العدد جيدا، أفواجا أفواجا، فكانت توضع في أرجلهم الأغلال بمجرد وصولهم، وتقطع يد ورجل كل واحد منهم. وكان يقال إنه لم يكن هناك إلا أتباع بوحمارة لكن المؤكد أنه كان من ضمنهم جبالة وبعض المساكين الأبرياء الذين اعتقلوا صدفة لأن حملة سي محبوب لازالت دائما في المواجهة، ولما انتهت مهمته رجع سي عبد الكريم مع رجاله إلى مولاي بوشتى الصغير. ولما كانت قواة السلطان مزهوة بهذا الإنتصار الكبير، أي القبض على بوحمارة، فإنها مشطت كل هذه المنطقة الجبلية، من كل المتمردين الصامدين والمتحصنين بالجبال، وخلال ثلاثة أو أربعة أشهر استخلصوا الضرائب، حيث كانت تذهب تجريدة يوميا بقوادها إلى هذه المنطقة أو تلك لإخضاع المزيد من القبائل، وجلب الأسلحة والقطعان والأغنام والبغال فكان الشعير والقمح يتراكم ويتكاثر في مولاي بوشتى بالإضافة إلى عدد الأسرى المتزايد الذين يبعثون إلى فاس أفواجا بدرجة ارتفعت بها منزلة أفواج مولاي عبد الحفيظ في عين الجميع.

وقد كانت الإعدامات وتعليق الرؤوس متواصلة يوميا في باب محروق، حيث كان يتجمع الناس من الأسواق كل يوم خميس، وكان بائعو الحلويات يتحركون بنشاط في الأسواق، والسقاؤون يقرعون أجراسهم، والنساء يضحكن خلف حياكهن، والموسيقات تعزف واختلطت فرقة السلطان بفرق الشيخات المزينات بالحلي، فكان الحفل بهيجا لدى العامة، وكان الجزارون بباب محروق يشحذون سكاكينهم لقطع يد يمنى ورجل يسرى لهذا السجين ويد يسرى ورجل يمنى للآخر. فسالت الدماء وسط أفراح أهل فاس، ولكي يوقف نزيف هؤلاء البؤساء، فإنهم كانوا يحملون إلى صهريج ماء ساخن ويحشى ما تبقى من أعضائهم الدامية وسط صراخهم وآلامهم. ومات كثير منهم هنا لنزيفهم من الدم.

وبعد بضعة أيام من احتفال الخيالة هذا، تجمع قناصل القوات الأجنبية الموجودة بفاس، وقرروا استضافة السلطان، وطلبوا منه باسم الإنسانية والتحضر أن يكف عن هذه التصفيات البشعة.

فأجابهم مولاي عبد الحفيظ بأنه هو السلطان هنا وليس غيره، وأن له الحق في عقاب المتمردين كيف يريد، ولم يعقب عليه الأوروبيون لأنه، وهو سلطان المغرب، لم يكن يتدخل لافي شؤون فرنسا أو انجلترا أو غيرهما، ليخفف من مآسي أسراهم ومجرميهم، بل انه ثار ضدهم وخاطبهم بقوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» المائدة 32.

واستمرت الحفلات الدموية بباب محروق.

واستقبل يوما قافلة من الأسرى وسألهم بعض الأسئلة :

ـــ ماذا كنتم تفعلون في فخداتكم؟ فليجبني كل واحد على حدة، لأنني سأجازيكم بالإلتحاق بصفوف المخزن.

ـــ فتبين أنه يوجد من بين هؤلاء الأسرى كثير من الموسيقيين، موسيقي بوحمارة، لأنه كان له موسيقيوه وخيمته وخاتمه.

فاستقدم السلطان العرب الذين يزيلون الأضراس، وأمرهم بقلع أسنان كل هؤلاء الموسيقيين لأنهم لن يستطيعوا الغناء بدون أسنان، فاستعصى على هؤلاء المساكين الدامية أفواههم أن يعزفوا على «غيطاتهم» / مزاميرهم التي لم تعد تصدر أي صوت.

وقال مولاي عبد الحفيظ :

ـــ أترون إنهم ليسوا سوى دجالين مكرة.

وسجن بعضهم، ووضع الآخرين في أقفاص الأسود.

وخلال هذا الوقت كله فإن بوحمارة كان يوضع بضع الساعات داخل قفصه في ساحة المشور وأخرج مولاي عبد الحفيظ في يوم جمعة مولاي امحمد لصلاة الجمعة بمسجد فاس الجديد، فتبين وللمرة الأخيرة أن بوحمارة لايشبه مولاي امحمد في شيء.

وألح السلطان على الروكَي لأخذ معلومات من مناجمه في بني افرور، وعن كنوزه التي يمكن أن تكون له في تازة أو في مكان آخر، ولم يستطع بوحمارة قول أي شيء لأنه لا يتوفر على أي شيء. ومرت الأيام والمتمرد دائما حي، بل بدأ يسترجع شجاعته.

لقد مر أسبوع على إلقاء القبض على المتمرد، وقال مستشارو السلطان :

ـــ سيدنا ! إن بوحمارة خطير رغم كونه أسيرا ألا ترون أنه من المناسب قتله : خاصة أن الأروبيين – شتت الله شملهم – قادرون على المجيء عندك، وآداء فديته لإطلاق سراحه، وقد سبق أن احتجوا باسم العدالة في باب محروق، فأظهر لهم أنك سلطاننا الذي نصره الشعب، والذي يشبهه علماؤنا بجديه الميمونين مولاي الحسن ومولاي اسماعيل.

فدعا السلطان لاجتماع يحدد فيه مصير الروكَي، وقد كان الإجتماع سريا حضره الحاج أحمد الكريسي، وبعض قواد الأفواج النظامية الأوفياء، وسي ادريس ولد منو والقائدين بوهو ومبارك السوسي، فتوجهوا عند الأسير الذي أخرجوه من قفصه ومن البنيقة في اتجاه حديقة الوحوش، حيث توجد الأسود والنمور والفهود التي جاء بها سي المهدي المنبهي من انجلترا إلى مولاي عبد العزيز (1901) فأدخل إلى قفص أسد ظنا أن الأسد سيفترسه، لكن لم يضربه هذا الأخير إلا على كتفه برجله. فانزوى في الركن وأخذ ينظر في هدوء إلى المتفرجين. فقال مولاي عبد الحفيظ للحاضرين.

ـــ انظروا ! مايكون هذا الرجل الذي رفض الأسد افتراسه؟ إنه ساحر جبار.

فالتفت متعبا إلى القائد مبارك السوسي وقال له :

ـــ عندك مسدسك. اقتله بمجرد أن أخرجه.

فأخرج بوحمارة، فشق القائد مبارك رأسه بطلقة من مسدسه Mauser، وجر عبدان جثته في ركن من القصر، وصب عليه الغاز وأحرق (15، 16 شتنبر 1909).

هكذا إذن كانت النهاية المأساوية لهذا المتمرد المشهور الذي هزم أفواج مولاي عبد العزيزوالذي عين وعزل قواد الشرق، وتخلوا عنه الواحد تلو الآخر وأتم ثروته بواد ورغة.

ولم تعد محلة سي محجوب إلى فاس إلا في نونبر، حيث دخلت دخول المنتصرين، مارة بباب محروق المزين دائما برؤوس المتمردين. وعمت سلطة مولاي عبد الحفيظ البلاد كلها، واعترفت به تازة وجاء غياثة واتسول والبرانس الأقوياء لمبايعته. وازدادت مكانة المخزن قوة بعد القبض على بوحمارة.

مصاعب جديدة للمخزن الحفيظي

ولا يعني هذا أن مولاي عبد الحفيظ لم تعد له أي مشاكل في الحكم خاصة بعد القضاء على بوحمارة وامتداد بيعته في المغرب كله. بل إن أحد اخوته مولاي الكبير قد التحق بالجبال، في محاولة منه كما يقال، للحصول على العرش، ثم إن الإسبان كانوا يريدون الشروع في استغلال مناجم الحديد بكبدانة التي أعطاهم إياها الروكَي، والذين قتل منهم العديد من العمال والمهندسين على يد ريافة وأرسلوا في المقابل فيلقا من 50000 جندي ليحتلوا رأس الماء، وسوق العرب بكبدانة والناضور والمناجم المعروفة (شتنبر 1909)، وأرسل مولاي عبد الحفيظ رسالات احتجاج إلى القوى الكبرى. وأخيرا، فإن الخزينة تشكو من فراغ كبير، وأصبحت تأخذ الضرائب مضاعفة مرة أو ثلاث مرات ويقال إن عدة قواد أغنياء صودرت أملاكهم. وأرسلت محلة إلى تازة لاستخلاص كل الضرائب المتأخرة، لكن الوضعية ظلت كما هي، وأخذ السلطان يفكر في مغادرة فاس نحو مراكش، حيث يمكن القبائل الجنوب القوية والغنية أن تؤدي ضرائبها التي لم تكن تعطيها إلا بصعوبة للخليفة مولاي بوبكر، لكن القبائل المحيطة بفاس قد احتجت بشدة وقلقت من تصرفات السلطان، مما أخاف الباشا من اندلاع ثورة شاملة بعدما يغادر السلطان وافواجه فاس.

وكان مولاي عبد الحفيظ قلقا بعض الشيء من تحركات مولاي الكبير- وتعلم أنه ابن آخر لمولاي الحسن طويل القامة، وسمين / غليظ، منقط الوجه - الذي رجع إلى مراكش (أبريل - ماي 1909) مع محلة قواد الجنوب عند مولاي عبد الحفيظ، لكن بوصوله إلى الرباط ولاأدري هل كان يخاف أن يسجنه أخاه ويصادر كل أملاكه؟ وهل كان يفكر في ضم عديد من الأتباع ليطالب بالعرش؟ لاأعلم ولكنني أرى أنه خاف خاصة بعدما علم أن ضيعاته وذخائره من الحبوب والشاي قد صادرها السلطان - اختفى ليلة مع أتباعه الأوفياء عند زمور وازعير، فاستقبله زمور استقبالا حارا وقدموا له المؤن، وبعد مرور شهر (ماي) كان مولاي الكبير يبحث عن الرجوع وطلب العفو، فقد خاف كثيرا، وهو محق في ذلك، عندما صودرت أملاكه، لكنه كان يعلم أنه ليس هو المستهدف في شخصه، فصعد عبر تافوديايت نحو واد بهت (يونيو)، وكتب إلى مولاي عبد الحفيظ يطلب منه بحسن معاملة أهله (نسائه وأطفاله)، وأن يرجع إليه أملاكه، أما بالنسبة له فهو يريد الذهاب إلى

الحج إذا سمح له السلطان، لكن هذا الأخير أجابه بأن أملاكه لن ترد إليه إلا في فاس التي يجب أن يأتي إليها.

لكن مولاي الكبير كان يشك في هذا الإقتراح، وبينما كان كل اهتمام المغرب منصبا على القبض على بوحمارة، فإنه(مولاي الكبير) ذهب مختفيا عند كَروان وبني مطير وآيت سخمان وبني مكَليد وآيت يوسي وغياثة يحدث القبائل في محاولة منه لمبايعته (نونبر، دجنبر).

وقد دخلت محلة سي محبوب إلى فاس مزهوة بانتصارها على بوحمارة. فأرسلها مولاي عبد الحفيظ نحو القبائل الي يبدو أنها تساند مولاي عبد الكبير، وفي هذه الظروف طلب قائد البعثة الفرنسية Mangin من المدربين العسكريين الإلتحاق في خدمة المحلة. ويمكن أن يكون قد توصل بمراسلة بهذا الخصوص من حكومته؟ ولما كان السلطان فخورا بانتصاره الأخير، فقد ترك الأورويين جانبا وأصبح يتدارس يوميا، الكتب العلمية مع ثلاثة علماء، وبهذا رجع إلى الطريق الصحيح. ولم ينظر المدربون العسكريون الفرنسيون والإنجليز إلى المسألة إلا من الجانب الديني / المسيحي، أو ليس حريا أن يوجد جيش كبير من المسلمين أفضل من جيش مصغر من الأروبيين؟وهكذا طلب من اسطمبول مده بمدربين عسكريين أتراك. ثم إن تراجع نفوذ المدربين العسكريين قد سر الأتراك الذين سيصل منهم نقيب واحد وعشر ضباط صف إلى طنجة (9 نونبر) لمصاحبة محلة سي محبوب التي سوف تنطلق نحو الحياينة.

فانهزمت هذه المحلة تماما لأن المدربين الأتراك لم يقوموا بأي مجهود لتنظيم صفوف المحلة المتفرقة لتنظيم صفوف المحلة المتفرقة، لأنهم دخلوا، ومنذ البداية في صراع مع قواد الرحى الذين يريدون أن يتحكموا فيهم، فرجعت الأفواج إلى فاس، ثم توجهت بعد ذلك نحو الشرق.

ومولاي الكبير موجود بتازة (20 دجنبر) وعلم أن قائد المحلة سي محبوب قريبه من جهة الأم، فعوض بسي عمر بن العبدي خليفة وزير الحرب وقريب الكَلاوي، مخافة أن ينظم سي محبوب إلى مولاي الكبير.

ودخل الأتراك في صراع مع الفرنسيين الذين بقوا في فاس، لايقومون إلا بتمرين الطوابير، وأرادوا أن يحلو محلهم، وبدا أن وجودهم هنا أصبح غير مرغوب فيه، وظهرت بعض عناوين المقالات في صفحات جرائد المسلمين، بايعازمن الأتراك من مثل « لماذا تحتفضون بالفرنسيين؟ فلن تجنوا منهم سوى الأخطاء فتذكروا أحداث 1870. . » فعلقت البعثة الفرنسية مهماتها وخدماتها تماما (1910/1/10). ولما تعبت فرنسا من رؤية تصرفات،

وردود فعل مولاي عبد الحفيظ الجديدة، والذي لم يعد يحترم الإتفاقيات السابقة. وجدت أنه حان الوقت لتذكير السلطان بمجموعة من القضايا التي لم تحل بعد (خاصة : معاقبة قاتل Dr. Mauchamp) بالإضافة إلى بعض الديون المتأخرة وأنه إذا لم يسحب المدربين الأتراك، فإنها ستنادي على بعثاتها وقناصلها وتطلب بتسوية عاجلة لكل القضايا.

فاستجاب السلطان لهذا الشرط، خاصة أن الأتراك لم يحسنوا التصرف عند الحياينة، وأن الجنود المغاربة قلقين من وجودهم، رخص مولاي عبد الحفيظ للمدربين العسكريين الفرنسيين بالإلتحاق ومرافقة محلاته (1910/2/28).

ولازالت المحلة الشريفة معسكرة أمام تازة منذ عدة أشهر، لكن المنطقة هادئة وليست هناك أي معارضة أو عصيان، ولم يعد مولاي الكبير مقلقا كثيرا.

ووصلت إلى صنهاجة الداخلون في مواجهة مع المخزن (12 أبريل)، لكن عند المرور بواد اللبن، تذكر الحياينة انتصارهم السابق فهاجموا المحلة وكبدوها هزيمة قوية 20 قتيلا، منهم ثلاث قواد المائة وعددا كبيرا من الجرحى (15 أبريل)، فتراجع المخزن إلى سوق أربعاء تيسا والحياينة يطاردونهم دائما، لكنهم اختفوا بمجرد علمهم أن السلطان قد بعث ضدهم بثلاثة طوابير مع المدفعية والحاجب الحاج أحمد الكريسي، فاستأنفت المواجهات مع صنهاجة.

لكن هاهو مولاي الكبير يثير الشكوك من جديد، فقد بايعه الحياينة واتسول والبرانس ومكناسة بتازة. فرجعت المحلة إلى معسكرها القديم (نهاية ماي)، واعتقد أنه كان يلزم هذا المطالب بالعرش الجديد الأسلحة والنقود، فهو لا يعرف أين يتجه، فقد كان يتحرك من قبيلة إلى أخرى ويمكن أن يكون مستاء أو قلقا من هذه المبايعة، وأخيرا، بعث محلة إلى ورغة لمواجهة المحلة الشريفة وشيئا فشيئا ودون حرب، بدأ يطلب «الأمان» من مولاي عبد الحفيظ الذي يجيبه دائما :

« ارجع إلى فاس، وسنرد إليك أملاكك »

وعوض أن يذهب مولاي الكبير، الخائف من غضب السلطان، إلى فاس اتجه نحو وجدة ليصل إلى المنطقة الفرنسية، لكن وجوده ثمة كان قد أخرج حكومتك التي لها عدة مشاكل مع مولاي عبد الحفيظ، فنقلته من وهران عبر طنجة بحرا نحو فاس وكان قد جاء سي بومدين كاتب M. Gaillard إلى السلطان الذي سامحه والتزم بأن لايؤذي، وضمنت الحكومة الفرنسية حمايته، واعطيه بدون شك منصب خليفة مراكش الذي كان به مولاي بوبكر، لكن رغم كل هذه الضمانات فإن مولاي عبد الكبير ظل خائفا، فاتجه نحو العنجرة، وبعد ثلاث أو أربعة أيام انطلق قائد الرحى الحاج المهدي لطابور طنجة صحبة بعض الحراس بأمر من الباشا، في مطاردته، فاعتقله واقتاده نحو فاس رغم الحماية الفرنسية.

وأقنع مولاي عبد الحفيظ بصعوبة بعدم إعدامه، فقد كان يريد قطع رأسه. فأعطيه مسكن بدار المخزن حيث عاش منذ ذلك الوقت أسيرا، وهذه كانت نهاية تحركه (شتنبر/ اكتوبر 1910).

وفي هذه الفترة كان مولاي عبد الحفيظ، وبتنسيق مع وزيره الأول سي المدني الكَلاوي، يريد إعادة تنظيم صفوف جيشه النظامي، فأصبح هناك عدد قار للجنود، تحت ضغط فراغ الخزينة، لكن كانوا يتقاضون رواتبهم بانتظام، وينضبطون للتعليمات، أما الذين لا يريدون الإنضباط للنظام الجديد يمكنهم الذهاب، فذهبوا إلى فاس حيث قاموا بعدة سرقات، بل بعدة اغتيالات فقد سرح، وفي دفعة واحدة : أكثر من 3000 رجل وكان Mangin قد اقترح نقلهم إلى قبائلهم الأصلية، حتى يكونون أقل خطورة من فاس. وكان ممن بقى من الجنود طابور الزنوج، وطابور العسكر العبيد (حوالي 650 رجل)، وسرية التدريب (150 رجل) بقيادة البعثة وأربع طوابير من المشاة ب 500 رجل وثلاثة طوابير الخيالة ب 150 فارس، وطابوري مدفعية بأربع قطع / مدفع لكل واحد وطابور من المهندسين ب 200 رجل، بمجموع جيش صغير من 3250 رجل ولما كان المال قليلا، فإن مولاي عبد الحفيظ كان مضطرا إلى تكوين جيش صغير على غرار الأروبيين وهذا ما لم يكن يرده منذ شهور ورغم هذا فإنه كان يكلفه ذلك أكثر من 7000 دورو و(350000 فرنك) أسبوعيا.

وإن لم تبعث القبائل وحدات النايبة، وكانت تبعثها، فإن قوات المخزن تبدو ضعيفة جدا لمواجهة تحالف قبائل الشرق، أو قبائل جنوب فاس، وقد كان الوزير الأول سي المدني الكَلاوي لا يتواصل مع السلطان كثيرا، وكان يقال أنه يبدل قصارى جهده للإساءة إلى السلطان، وهكذا قرر أن تؤدي كل القبائل المخزن الضرائب، ومعلوم أنه، ومنذ قرون، كانت هذه القبائل لا تقدم للسلطان سوىالخدمات العسكرية مما يعفيهم من الضرائب، وبهذا التصرف سيجبر الشراردة وغيرهم على التمرد، فلم يعودوا يرسلوا أي فرد منهم إلى فاس، ثم إن القبائل التي كانت متمردة دائما : بني مطير، وأيت يوسي، وكَروان وبني حسن مستعدون للبارود، ومسرجون خيولهم لتهديد فاس، مما أرغم مولاي عبد الحفيظ أن يطلب الفرنسيين لحمايته.

وعلى العموم، لم يكن السلطان هو المشار إليه بسوء التصرف، بل مخزنه، وكان قد عين وزراء جدد لكن الوقت كان قد فات. ولكن أنت تريد أن تعرف كيف كان يتكون مخزن مولاي عبد الحفيظ، وماذا أصبح وزراء مولاي عبد العزيز القدماء بعد ذهابه.

ففي وقت بيعة مولاي عبد الحفيظ بفاس، وهزيمة مولاي عبد العزيز، لم يعد الوزير الأول سي فضول غرنيط يقوم بأي شيء، وبقي في الرباط مجردا عن أي سلطة.

ثم إن عبد الكريم بن سليمان الذي ذهب إلى فاس ليشغل منصب الوزير الأول، رفض فوقع مريضا ثم مات بعد ذلك، وفي اليوم الموالي دنس قبره وقطع رأسه (ولعل ذلك بأمرمن السلطان) وعلق رأسه بالمصلى مكتوب فوقه « هذا جزاء من يبيع وطنه إلى المسيحيين».

واعتقل مولاي عبد الحفيظ، اثر هذا الحدث أحد أحفاد عبد الكريم بتهمة تدنيس القبر وماكتب في المصلى.

وقد كان المدني الكَلاوي هو وزير الحرب، لكنه لم يبق في البنيقة سوى بعض الوقت وعين بدله فيها ابنه سي محمد العربي، أما بالنسبة له هو فقد حل محل بن كبور الخليفة السابق للمنبهي في منصب الوزير الأول، وأصبح بن كبور وزيرا للشكايات.

وبقي الشيخ التازي في الرباط، ثم ذهب إلى الدار البيضاء، ومنها إلى طنجة حيث سيموت.

أما سي محمد الركينة صاحب مولاي عبد العزيز، فقد ذهب مع سيده إلى منفاه الإختياري وعوض بالحاج احمد بن مبارك الكريسي حاجب مولاي عبد الحفيظ.

وبالنسبة لقائد المشور، فإن قصر مراكش اعطى مولاي عبد الحفيظ أمر إدارته إلى الباشا ادريس كنيشيش البخاري، ولكن بالوصول إلى مكناس عوض الحاج بن عيسى باشا مكناس، الذي كانت له علاقة جوار مع البرابرة وسمعة حربية معروفة، وكان قد مهد الطريق للسلطان الجديد في هذه المناطق، وليجازيه مولاي عبد الحفيظ فقد أعطاه منصب قائد مشوره، وعين ادريس باشا فاس الجديد محل القائد البشير مومو الذي بقي مواليا لمولاي عبد العزيز، والذي سيعتقل بمجرد وصوله. لكن عندما وصل الجنود لتنفيذ تعليمات السلطان، احتمى البشير بباب القصر، وكان نساء المخزن المحجبات بحسب إدارته إبان غياب مولاي عبد العزيز، قد تدخلن له حتى إذا دخل مولاي عبد الحفيظ إلى القصر وجده في طريقه، مغبر الجبين راكعا على رجليه طالبا عفوه فسامحه وأدرجه ضمن طابور عبيده.

وتذكر أن قائد شراكَة وأولاد جامع ولد با محمد الشركَي، كان قد أعطى لمولاي عبد الحفيظ 50000 دورو ليعين باشا على فاس، والبقاء في قيادته أو منصبه التي كانت ستعطى لسعيد البغدادي، وعندما رجع الحاج بن عيسى مع سجينه مولاي امحمد الذي ذهب يبحث عنه في تمارة مدعيا أنه سيتحالف معه، عين قائدا للمشور وباشا فاس البالي، واحتفظ لولد بامحمد الشركَي بقيادة شراكَة.

وكان خليفة قائد المشور سي مصطفى بن يعيش. ودخلت القصر فتاة من عائلة ادريس بن يعيش تزوجها مولاي عبد الحفيظ وأهداها كيسين من النقود ولؤلؤتين نفيستين :

وعين مصطفى قائدا للمشور. وطلب السلطان النقود من الحاج بن عيسى الذي لا يستطيع أو لايريد إعطائها له، ومادام أن الوقت قد صادف تمرد زمور الموالين لمولاي الكبير، فقد اتهم هذا الرجل (الحاج بن عيسى) الذي كان مقربا من مولاي عبد الحفيظ كان يساند هؤلاء، فاعتقل (19 ماي 1910)، وصودرت أملاكه، وأخذت إحدى نسائه : لالة البتول وعنفت لتعترف بمكان وجود مال العائلة لكنها لم تكن تعلم شيئا، ولاتستطيع الإخبار بمكان وجود نقود زوجها.

وبهذا أصبح سي مصطفى بن يعيش قائد المشور.

أما إبن عيسى فقد أطلق سراحه بتدخل من الوزير الفرنسي M. Regnault وذهب إلى مراكش.

وإبان أحداث الفتنة والإضطرابات. كان باشا فاس هو الحاج المقري. وعوض سي محمد البغدادي الذي عينته فرنسا، لكن كان كل هذا في بداية عهد مولاي عبد الحفيظ، أما باشا فاس فكان هو سي عبد الرحمان بن عبد الصدوق الذي عزل وعوض سي الحسين بن موحى أحموا الزياني، أخ لالة رابحة زوج مولاي عبد الحفيظ التي سبق أن أهديت إلى مولاي الحسن الذي كان يريدها زوجة مولاي عبد العزيز، لكن هذا الأخير كان يفضل كما تعلم، الشركسيات، وتركها في مراكش، وتزوجها مولاي عبد الحفيظ ليضم إليه قوة زيان، فاستطاع الوصول إلى فاس مرورا بأرض زيان، وكان على رأس الحملة بنت موحى أحموا أقوى قائد في بلاد خنيفرة، وطيلة الطريق لم تعرف المحلة أي عرقلة أو مشكل وأخذ ولد موحى أحمو في مزاولة مهامه لم يكن رجلا يعرف القراءة والكتابة، ولكن كان بربريا قويا ذا أنفة يحب كثيرا الخيول ورائحة البارود من أجل البقاء في منصب باشا فاس البالي، فذهب يوما إلى أهاليه بالجبل بعدما نودي عليه، وعوضه عبد الكريم ولد با محمد الشركي الذي ألقى القبض على بوحمارة.

وكان وزير الشؤون الخارجية (وزير البحر) هو سي عيسى بن عمر قائد عبدة، عوض (في غشت 1910) بالحاج محمد المقري الذي أصبح فيما بعد الوزير الأول عندما رجع سي المدني إلى قصبة تلوات (دجنبر 1911)، ومنذ وصوله إلى سنة 1910 كان سي الحاج المقري هو أمين الأمناء، مكان الشيخ التازي ومكان أمين الشكارة سي الطيب المقري.

وأرسل الحاج عمر التازي إلى موكَادور (الصويرة) بعد هزيمة مولاي عبد العزيز، وفي الوقت الذي اتجه عديد من اتباع السلطان المخلوع إلى الدار البيضاء، لطلب اللجوء من الفرنسيين، أخذ بعضهم شيئا فشيئا الطريق نحو فاس، وعندما هدأت الأوضاع أصبحوا يبحثون عن مزاولة مهمة ما في المخزن الجديد، لكن أفهم الحاج عمر التازي أنه لامكان له

قرب السلطان، خاصة أن الوزير الأول سي المدني الكَلاوي قد شغل منزله بفاس وأصبح ملكه، وهذا سبب آخر لكي لا يذهب إلى فاس.

وهذا كل ما يتعلق بالنسبة لمخزن مولاي عبد الحفيظ [24].

آخر أحداث مغرب ما قبل الحماية

لقد انتهت روايتي ولم يعد لي ما أقوله لك، فالمغرب « القديم » سوف يختفي، وما يقع الآن مثبت عندك في كتبك، وكنت طول هذه المدة خليفة « لطابور عسكر العبيد، وكان علي البقاء جوار السلطان بفاس، فقد أعيد تنظيم الطوابير، كما قلت لك، وأصبح لكل طابور ضابط فرنسي، وكان هناك أيضا أنجليزيان للخيالة، تعرف منهما Bolding، ضمن الحرس الأسود للسلطان.

فهل كانت هناك حملات في هذه الأثناء؟ أبدا، لم تكن هناك أي مواجهات، ولم يعد السلطان يعول في تدخلاته سوى على أفواجه النظامية. وكانت قبائل المخزن قد تمردت لأنها لم ترد أداء الضرائب ولاحظ آخرون بأن مولاي عبد الحفيظ لم يلتزم بالشروط التي أقرها العلماء، وأنه يتصرف مثل مولاي عبد العزيز، حيث يعتمد على المسيحيين، فتزايد عدد المتمردين يوما بعد الآخر، وانتشروا في الأسواق وأصبحت الطرق خطيرة كالسابق، فهم يرغبون في سلطان جديد. ولم نعد نعرف ماذا نريد فكثر النهب والقتل، وكان أدنى رد فعل من مولاي عبد الحفيظ سيشعل فتيل السيبة.

وكان أول من تمرد : بني احسن وجبالة لأن مولاي عبد الحفيظ كان يريد أن يسلم قشتالة وبني زروال، وبني مسكَيلدة وبني ورياغل إلى قائدي أولاد جامع وشراكَة، وقد استنجدت هذه القبائل ببوحمارة، وكان يحاول أن يقبض عليهم بهذه الطريقة. فاتجهنا نحو أماكن المحلة بقيادة القائد باقة بوبرين، والشريف مولاي يوسف، وكان في فاس سوء تواصل بين السلطان ووزرائه من جهة، وبين الوزراء فيما بينهم من جهة أخرى : الوزير الأول سي المدني ضد المتوكَي ووزير الشكايات الذي عوض بن كبور، ولم يعد للمخزن سلطة كبيرة، فكل القبائل قد تنكرت له باستثناء بعض بني وارين والحياينة، وتعلم أن هؤلاء الناس كورق الشجر في مهب الريح وكان الشراردة وبني مطير وكَروان وزمور وازعير ومجاط صامدون أمامه، فإذا أراد السلطان أن يذهب إلى الحوز كما قال فإنه لابد أن يواجههم في الطريق، ويخضعهم على التوالي، فكونت محلة بفاس لإخضاع الشراردة، وأريد أن أقول أن المحلة كانت في كامل استعدادها، لأنه لم تكن هناك وحدات القبائل فكان النظاميون يكونون حوالي 3000 رجل.

فانطلقت هذه الحملة من فاس (يوم 28 فبراير 1911)، بقيادة وزير الحرب سي محمد العربي بن المدني كما كان هناك أيضا القواد : سي محمد البغدادي، والمقدم Breumond

والنقيب LeGlay، كما كانت تضم طوابير المشاة (الخمسة) في حوالي 1700 إلى 1800 محارب. وطوابير الخيالة (الثلاثة) في 350 فرس وطابور المدفعية، ومجموعة من 80 محارب من الجبل / « جبلي » بقيادة AdjudantPisaui، وسرية مدفعية بقيادة المار شال Des logis Guerraz معلومات من اسديرة، وقد كونت هذه الأفواج منظمة على الطريقة الجديدة التي كان يعارضها العلاف، ومادام لم يبق في فاس سوى بعض غير النظاميين مع المدفعية، فقد استدعيت وحدات الحوز التي جمعت بصعوبة لتتجه نحو فاس عبر الرباط (وصلوا حوالي 12 ابريل).

ووصلت محلة سي محمد العربي إلى بلاد الشراردة، وهزمت المتمردين دون صعوبة كبيرة بسوق سبت الشراردة (3 مارس)، وتابعت مسيرها أماما في اتجاه معسكر العدو سي محمد بن يعقوب، حين شتت المدفعية المتمردين، وطوردوا إلى جبل سلفات (7 مارس)، وعسكرت الأفواج الشريفة، بعد حسن صنيعها بدار القائد حفيظ حيث جاءت القبائل المنهزمة لإعلان طاعتها، وبقت هنا مدة شهر إلى أن استدعيت بصفة استعجالية إلى فاس حيث الوضعية أصبحت صعبة بعض الشيء.

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه القوات المهمة في بلاد الشراردة، علم السلطان بأن كَروان وبني مطير يتجهون نحو مكناس، فبعث ضدهم بعض الجنود الذين تبقوا عنده (اسديرة)، لكن هذه الحملة لم تقم بأي شيء فكان أفرادها يبيعون الرصاص مقلدين قوادهم، وبمجرد رؤيتهم العدو تراجعوا دون أن يحاربوا، وطردت إلى حدود نزالة فرجي آخر محطة قبل فاس. وفقدت حوالي 30 قتيل وكثيرا من الجرحى (27 مارس).

وقد شجعت هذه الهزيمة البرابر، الذين يستعدون لمحاصرة فاس، فقد علموا أنه لم يعد مع السلطان أحد، وأنه محتار في أمره، فكتب إلى الرحامنة وقبائل الحوز طالبا منهم النجدة، وأنهم إذا بعثوا له بالرجال سيعفيهم مدة خمس سنوات. لكن لم يستجب لطلبه.

وهاهي بعض أفواج البرابر أخذت تقلق ضواحي فاس القريبة، فكانوا يرون بالبرج الجنوبي وبدار الدباغ، وهي في ملكية السلطان جنوب المدينة، ولم يتفرقوا إلا بعد قصف المدافع، وقد كانت كل الطرق المؤدية إلى فاس مقطوعة ومحروسة، وأصبح التزود بالمؤن صعبا، فأخذ الفاسيون يحتجون في بيوتهم، وطلب من محلة الشراردة الإلتحاق بفاس، ومن الجنرال Moinier أن يبعث محلة الحوز الموجودة حاليا بالرباط، وأخذ حركة من 1500 رجل من قبائل الشاوية بقيادة سي محمد الأمراني.

ونهب بنو مطير مكناس وبايعوا بها أخ السلطان مولاي الزين، الذي ما فتئ أن كون مخزنه (19 ابريل)

وأصبح من الصعب على محلة الشراردة الإلتحاق بفاس، لأنه كان عليها أن تحارب يوميا القبائل التي تعرقل سيرها وتنادي بالإنتصار خاصة أن الشرفاء تراجعوا إلى فاس، والشراردة وبني احسن خلفها، والوداية وشراكَة وأولاد جامع يقفون أمامها.

فالتمرد على أشده، والبلاد في فوضى حقيقية، وكانت القبائل المتمردة معسكرة براس الماء (الشراردة وبني مطير وزرهانة) وسيدي احمد البرنوصي شراكَة والوداية وأولاد جامع) وبضواحي سيدي حرازم (بني وارين وغياثة) وغير بعيد من دار الدبيبغ (آيت يوسي)، وكان لهم نفس قائد العمليات الذي يعطيهم الأوامر بالدخول إلى المدينة، كل واحدة حسب موقعها.

ولم يبق مع السلطان إلا بعض الحياينة، وبعض فرق بني وارين، وناداهم السلطان من جديد للإنضباط والتعقل بواسطة سي محمد بوشنافة الوزاني ، لكن هؤلاء الرجال لم يكونوا يرجعون إلا لأخذ الأسلحة والنقود، حيث كان يعطي 20 فرنك يوميا لكل فارس، وأصبحت مصاريف الحرب أكثر إرهاقا للمخزنية. والوضعية بفاس أصبحت أكثر خطورة : فتدخلت المواد الغذائية، وارتفعت الأسعار كثيرا، وأصبحت العصابات تتردد على الطرقات، كما أن وضعية الأروبيين الذين يريد البرابرة طردهم، أقل أمانا.

ولكي يبعد مولاي عبد الحفيظ عنه المخاطر، خاصة أن دوي الرصاص وصل إلى دار المخزن، فإنه طلب مساندة الحكومة الفرنسية (4 ماي) بينما أرسل الإسبان 10000 جندي إلى ضواحي سبتة، والألمان يريدون التمركز بسوس. فأنت تعرف البقية ولست أدري لماذا تريد أن أحكي لك بعد ذلك؟

وكان يتحرك مع المحلة التي جمعها الأمراني 2000 من المشاة بقيادة العقيد Brulard، والتحقت بها في لالة ايطو قوات دعم بالمهدية مع العقيد Gourand 13 (ماي)، كما وصل أيضا الجينرال Moinier مع أفواجه من الدار البيضاء، وانطلق الكل نحو فاس، عبر طريق زكوطة، ووقعت عدة مواجهات لاأستطيع وضعها لك. ودخل الفرنسيون فاس يوم 21 ماي 1912.

فتنفس الكل الصعداء، وواضح بالنسبة لكل الفاسيين أن مولاي عبد الحفيظ لم يتجه سوى تدخل الفرنسيين الذين تسمع أبواقهم من معسكرهم بدار الدباغ.

وعزل السلطان الوزير الأول سي المدني الكَلاوي، وعين باشا على مراكش سي ادريس ولد منو الذي عوض بسي التهامي الكَلاوي (26 ماي 1912).

وكان على الفرنسيين للإستلاء وتهدئة ضواحي فاس أن يقوموا بعدة مواجهات ضد القبائل الثائرة، وقد خضع آيت يوسي (18 ماي) وبنومطير، وشراكَة (2 يونيو)، وأدوا

غرامة / خسائر الحرب لكن ثاروا من جديد مادام معسكر الفرنسيين قد هوجم من قبل أيت يوسي وأيت سغروشن، وبني وارين وبني سادن (6 يونيو)، وبعدما أجلى الفرنسيون الخطر عن معسكرهم أرسلوا حملة إلى صفرو، وأخرى إلى مكناس (بومطير وكَروان) حيث استقبل الجنرال Moinier مولاي الزين مستسلما خائفا هو والقبائل التي بايعته.

وظل المدني (الكَلاوي)، يراقبه السلطان بعد أن أذن له بالذهاب إلى قصبته بتلوات، ، وعرض الحاج محمد المقري.

وأصبح وجود الفرنسيين واضحا، على مستوى تنظيم الجيش وتسيير إدارة القبائل، وتحولت سلطتها بصفة طبيعية إلى حماية، أما الدول الأخرى فقد كانت تعطي لفرنسا حرية التصرف في كل شيء، شريطة أن تترك أو تسمح لها بالمتاجرة في المغرب.

ولما تخلى الكل على مولاي عبد الحفيظ، أصبح مضطرا لقبول دعم ومساندة الفرنسيين. وعندما رجع M:Regnault إلى فاس، ومعه نص الإتفاقية (25 مارس 1912) وقعها بعد أيام من التردد.

وعندما انتشر هذا الخبر تمردت القبائل من جديد. وتوترت الأعصاب بالعاصمة، وتسرب التدمر والقلق إلى أفواج الجنود، فالسلطان الذي بويع ليقف ضد النصارى قد وقع معهم الإتفاقية، وكان يقال في الأسواق بأن عبد الحفيظ قد باع المغرب نهائيا للفرنسيين الموجودين بفاس، وإلى الإسبان الموجودين بالعرائش والقصر، ونزل يوما المتمردون من قصبة الشراردة. وكان جنود الطوابير المتدمرون من كل الإصلاحات المراد تطبيقها عليهم والتي لا يفهمونها، مدعومين في ذلك من أفراد المخزن القلقون على مصيرهم، وعن قوادهم، قد قتلوا ضباطهم الفرنسيين، وتسللوا إلى فاس في محاولة لقتل كل الأوروبيين الذين يجدونهم في طريقهم (17 أبريل 1912).

ولم يعد الأمان والهدوء إلى المدينة إلا بعودة حملات مكناس وصفرو وتيفلت وأدرك مولاي عبد الحفيظ أنه لم يستطيع أن يبقى على العرش، وعندما وصل الجنرال ليوطي الذي استقبله بفاس (24 ماي) لأخذ الإدارة العامة للشؤون المغربية تنسيق مع السلطان، طلب مولاي عبد الحفيظ الذهاب إلى الرباط تاركا خليفته مولاي يوسف (6 يونيو) بفاس. وصحبه إلى الرباط عسكر العبيد الذي يراد أن يحول إلى حرس شريفي / ملكي : فاتجهنا إلى مكناس مع الوزير Regnault الذي اتجه إلى طنجة وبالرباط ألح السلطان على ترك السلطة / الملك فأعطي تعويضا جيدا، واتجه مع نسائه وعبيده وبعض أقاربه إلى طنجة ليلتحق بعدوه القديم المخلوع مولاي عبد العزيز (12 غشت 1912).

ورجع طابور عسكر العبيد إلى فاس، التي بويع بها السلطان مولاي يوسف بموافقة ليوطي (20 غشت 1912) فماذا وقع عبد ذلك؟

بعد أحداث فاس برز روكّي جديد : الشريف سي الحجامي عند جبالة حيث جمع محلة ووصل إلى حدود الحجرة الكحلة وأخذ يقصف فاس، بل إنه دخل زاوية مولاي ادريس، التي أخذ منها غطاء الضريح ليظهر للقبائل أنه دخل فاس. فخرج القائد الفرنسي Gourand، بعد أن انضمت إليه قوات القبائل من باب الكَيسة في اتجاه زلاغ وهزم محلة الحجامي بالحجرة الكحلة.

وفي الجنوب دخل ابن ماء العينين الهيبة مع محاربين من سوس ودرعة (18 غشت 1912) في مواجهات الفرنسيين في مراكش، وسجن كل الموجودين بها منهم، لكنه لم يستطع الصمود أمام أفواج Mangin بسيدي بوعثمان.

وكانت هذه هي آخر أنفاس مغرب قديم مات، بكل كل ما قلته لك تاريخ أمس، ويجب أن تعلم أكثر مني أن ذاكرتي ليست جيدة فيما يتعلق بالأحداث الراهنة، عكس ماحدث في عهد مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز لأنني لم أصبح فيها شيخا بعد.

فالطرق الآن أصبحت معبدة، بدل الطرق الترابية العادية، وحلت القناطر محل المعابر والمرافئ، فقد مضى زمن أفواج الجنود المغنين في السهول، زمن « السروت» (أفواج الخيل» «زمن القصاره» الكلام غير المنتهي، زمن المحلات، وفي كلمة واحدة أقول : هذه ليست سوى ذكريات خادم قديم مثلي يحكيها بأسى وأسف.

وبهذه الكلمة الحزينة أنهى الحاج سالم العبدي روايته.

الهوامش

1- الزكاة : 5،2 من رأس المال والنقود، و « العشور» هو العشر من المحاصيل الفلاحية.

2- يتعلق الأمر بالقرض المغربي (12 يونيو1904) بما قدره 5،62 مليون فرنك فرنسي، بضمانة مداخيل ديوانة الدولة (10) وبفائدة 5 ، مقدم من رابطة البنوك الفرنسية، برئاسة بنك باريس وهولندا.

3- حسب هذه الحكاية فقد توفي الريسولي بأجدير يوم 4 ماي 1925.

4- مكث الريسولي أربع أو خمس سنوات بالسجن، وقام بمحاولة فرار فاشلة، ثم أطلق سراحه بتدخل من الحاج محمد الطريس نائب السلطان بطنجة.

5- اختطف Perdicaris الأمريكي وربيبه البريطاني M. Varlry يوم 18 ماي 1904 ، وأطلق سراحهما يوم 25 يونيو الموالي، بعد أن استجيب بشروط الريسولي.

6- وصلت السفينتين الحربيتين Kleber et Galilée إلى طنجة يوم 30غشت 1904.

7- تسلم الريسولي مهامه يوم 1 أبريل 1905 . حيث أعاد النظام إلى السوق الكبير، مسرح إنجازات عصابته، ووجدت طنجة نفسها محاصرة تحت قبضته.

8- عبر القيصر الألماني طنجة يوم 31 مارس 1905، وسط حراسة قوية، وقد جاء على متن الباخرة Hamburg، ومكث بعض الساعات بالمفوضية الألمانية. لكن هذه الزيارة عقبت بزيارة أخرى قام بها الوزير الأولCourte de Tatteubach الذي وصل إلى فاس يوم 11 ماي، وزار السلطان ليقف ضد مطامع الفرنسيين، مما جعل وزراء المخزن يقترحون على السلطان قبول عقد مؤتمر دولي (30 ماي).

9- افتتح مؤتمر الجزيرة الخضراء أشغاله يوم 15 يناير 1906، وكان المندوبون المغاربة في المؤتمر : الحاج محمد الطريسي، وسي الحاج المقري، وتوصل إلى « اتفاقية عامة» وقعت عليها القوات الكبرى يوم 7 أبريل قدمها الوزير الإيطالي M:Malmusiعميد السلك الدبلوماسي إلى مثل السلطان في فاس سنة بعد انعقاده، وقبلها لسلطان بظهير، بتاريخ 18 يونيو1906.

10- كان اغتيال M. Charbonier يوم 17 ماي 1906

11- منذ يوليوز 1906 وتمرد تافيلالت، كان العبور إلى الأسواق دوي منية تحت نفوذ فرنسا ممنوعا، وأراد فيلالة الإنضمام إلى قبائل تودرة، التابعة للقائد الكَلاوي، وإلى آيت إيغلمان وأهالي درعة لتكوين شبه كونفدرالية بالجنوب.

12- لقد جاء هذا الشريف يطلب العون والمساندة من سلطان المغرب ضد الفرنسيين في موريطانيا وتوات، وكانت سكناه بعين السمارة قرب الساقية الحمراء، فوق واد درعة واسمه الحقيقي مولاي احمد بن محمد الفاضل. (Martin,quatre siècle d'histoire Marocain p.378.Aclan1923). ومن أبنائه مولاي الهيبة الذي سيلعب دورا هاما فيما بعد (1912)، وغادر ماء العينين فاس في غشت 1906.

13- في أكتوبر 1906، احتلت المدينة بمساعدة أحد أعيان المدينة بن ريحان الذي كان قد عزله باشا أصيلا.

14- يتعلق الأمر بمجموعة السفن الحربية للأميرال :

(Suffreu,Saint-louis Charlemagne)، الراسية أمام طنجة يوم 9 دجنبر.1906.

15- يتعلق الأمر بالضبط بسيدي محمد بوشتى البغدادي، جندي كبير، شغل منصب باشا فاس مدة 20 سنة وتوفي عن سن 82 سنة يوم 22 نونبر 1932.

16- وقد تنازل الريسولي على أخذ 20000 جنيه استرليني فدية لماك لان، لكن مقابل حكم العنجرة ولم يبق على المخزن سوى اذن سوى أداء 5000 جنيه للأنجليز، وهذه هدية للمخزن لا لماك لان كما يعتقد سالم العبدي، الذي يقول بأن المبالغ المطلوبة لم تعط للريسولي.

17- بالفعل لقد كان رسول الإسبان بالعرائش بموافقة الريسولي، الذي اعترفوا به " سلطانا للجبل (1913) وقد ساعده كل المفوضين المتتاليين الجنرالات (Alfau.Marina,jordana) إلى حدود 1919، التاريخ الذي عوض فيه Berenguer الجنرالJordana المتوفي، والذي ألح على خضوع خليفة السلطان مولاي المهدي ورفض الريسولي المتمرد، وبعدما صمد بشجاعة (بعين يريدا) في يوليوز، غشت 1919، أجبر على التراجع نحو تازروت أمام القوات الإسبانية الكبيرة، إنها فترة الأقوياء. وبعد هزيمة أنوال غشت 1921 أجبر Berenger على التراجع إلى جبل العلم إلى أن استدعي إلى مدريد سنة 1912، وتركه Burgueta الذي عوض في أمان، منشغلا في الخارج بعبد الكريم. ودخل الريسولي إلى تازروت، لكنه مرض بـHydropisic فأجرى له الأطباء الإسبان عملية يوم 12 فبراير 1924، وكان عبد الكريم الذي مد سلطته في مناطق نفوذ الإسبان قد اعتقل الريسولي بمقر سكناه يوم 27 يناير 1925 ، لأنه كان يرى فيه صديقا للإسبان، وأرسله إلى قبيلة بأجدير حيث سيتوفى بها ثلاث أشهر بعد ذلك (10 أبريل 1925).

18- مولاي رشيد عم السلطان وحاكم تافيلالت، وقد حاول إبنه الدخول في الحرب المقدسة مع اسعيد البخاري سنة 1906، فكل شرفاء تافيلالت كانوا ضد مولاي عبد العزيز ولما فشلت هذه المحاولة جاء سيدي محمد يعرض خدمته على مولاي عبد الحفيظ.

19- ميناء ليوطي حاليا.

20- وبعد ثلاثة أشهر من السجن أطلق سراح بوشتى البغدادي وعين باشا على القصر الكبير مؤقتا.

21- توفي مولاي امحمد، الذي كانت عينه ناقصة والذي عرفناه بقصر الرباط يعيش طليقا مع مولاي يوسف، منهمكا في قراءته واشغاله يوم 15 شتنبر 1946. وفي نفس المرحلة كان مولاي الكبير يعيش مع اسرته حتى سنة وفاته 1939.

22- توفي محبوب في يوليوز 1946.

23- راوينا في هذا الجزء من الحكاية(مطاردة بوحمارة هو بن سديرة).

24- كان الحاج عمر التازي وزير الأملاك المخزنية في عهد مولاي يوسف ووزير الحرب والمالية والشؤون الخارجية. وإستحدث في عهد الحماية بنيقتان / وزارتان التسيير شؤون أملاك الأهالي (عمر التازي) ووزارة الأحباس والأوقاف الإسلامية (سي احمد الجاي) وتوفي سي عمر التازي بالرباط في 28 يناير 1936.

26- ملاحظة :

نعلم أن مولاي عبد الحفيظ وصل على متن الباخرة Du chaly، دون استقبال شعبي كالمعتاد. (12 غشت 1912)، وسلم استقالته للجنرال ليوطي، الذي كان يرافقه في الباخرة مع M:Saint-Aulaire و المقدم : Simon.

وكان نساؤه وأولاده وخدمه قد اتجهوا نحو فاس. وذهب السلطان المخلوع. في رحلة نصف رسمية إلى فرنسا قبل أن يلتحق بعدده القديم أخيه مولاي عبد العزيز.

وأثناء الحرب الفرنكو/ألمانية 1914-1918 ، قضى بعض الأيام بمدريد على نفقة الألمان الذين كانوا يساندونه دائما، ولما انتهت الحرب وفشل تدخل الألمان، قبل الإقامة بفرنسا في Enghien، وأرسلت امتعته بطنجة إلى دار المخزن بفاس، وتوفي يوم 4 أبريل 1937 عن سن 61 سنة، ودفن في حفل رهيب بفاس، بمسجد سيدي عبد الله إلى جوار أخيه وخليفته مولاي يوسف الذي توفي قبله سنة 1927، وسيدفن إلى جواره أخوه مولاي عبد العزيز الذي توفي بطنجة إلى إثر سكتة قلبية يوم 10 يونيو1943.

أما بالنسبة لبكر أبناء مولاي الحسن، مولاي امحمد فإنه توفي سنة 1946 أما الصغيران سيدي محمد المهدي وسيدي محمد المكناسي فتوفيا سنة 1947و1948 .

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشـــرق **2002**
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور الدار البيضاء
الهاتف 022.25.95.04 / 022.25.98.13
الفاكس 022.25.29.20 / 022.44.00.80

زمن "الـمَحَلات" السلطانية

تهدف هذه الترجمة لفت الانتباه إلى مصدر آخر من مصادر الكتابة التاريخية الواصفة لأحداث المغرب خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إنها الرواية الشفوية التي يمكن اعتمادها أو الاستئناس بها لفهم بعض ما حدث خلال هذه الفترة.

ولا يمكننا الادعاء أن ما جاء في هذا الكتاب كله صائب في بابه، لاعتبارات كثيرة أهمها كون لويس أرنو قد تغيب عنه أشياء، أو يزيد أخرى حين سماعه رواية الحاج سالم العبدي البخاري، فضلا عما يمكن أن يصيب ذاكرة الراوي من سهو أو نسيان أو...

ومع هذا كله يبقى كتاب "زمن لمحلات" مهما جدا للقارئ لتفرده بآراء وتتبعه لدقائق قد لا توجد في مصادر تاريخ هذه الفترة بحكم ملازمته أهم التحركات المخزنية / السلطانية منذ عهد مولاي الحسن الأول إلىٰ بداية عهد الحماية.

ونحن إن نترجم هذا الكتاب نبغي تمكين الباحثين في هذه المرحلة من أخذ فكرة نوعية عن الرواية الشفوية التي قد تساعد في تدقيق كل جديد ومميز، كما يمكنها الإفادة في الفهم والتفسير والتحليل والمقارنة والاقناع".

المترجم :

محمد ناجي بن عمر

- من مواليد 1966/2/1 بابن جرير
- أستاذ باحث بكلية الآداب - أگادير
- عضو مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي بكلية الأداب - أگادير
- له :
  - مقالات في الأدب واللسانيات (مؤلف مشترك).
  - سوس والصحراء المغربية تواصل ثقافي وفكري (مؤلف مشترك)
  - عدة مقالات في مجلات وجرائد عربية ومغربية
  - مؤلفات قيد الطبع (تحقيق تراث)



لوحة الغلاف للفنان
Jean de la Nézière

